شُرفةٌ تطِلُّ
عَلَى بيتٍ قدِيم

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ-٢٠١٨م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

اسم الكتاب	: شرفة تطل على بيت قديم
اسم المؤلف	: محمد محمد السنباطي
الغلاف	: محمد ضوهـ
التصحيح اللغوي	: خالد رجب عواد
الطبعة	: الأولى
رقم الإيداع	: ٢٠١٧/ ٢١٤٥٤
الترقيم الدولي	: ٩٧٨-٩٧٧-٧٨٦-١١٦-٨

٨ عمارات الواحة – قطعة ١٠ – مدينة نصر – القاهرة
ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠
ghorabpublishing@hotmial.com

رواية

شُرفةٌ تطِلُّ عَلَى بيتٍ قديم

محمد محمد السنباطي

دار غراب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى أحبائي الذين رحلوا إلى فوق،

وتركوني على الدرب أتوكأ على ذكراهم الطيبة

الآن أحاولُ أن أفعل ما كانت تفعلُه أمي قبل مغرب كل يوم...

لمبة الجاز (نمرة عشرة) على حائط الصالة المدهون بجير باهت في منزلنا القديم، تنزعُ عنها زُجاجتها.

[رائحة جاز خفيفة، مباغتة، صفراء. تهلُّ عليَّ الآن عبر كل هذه التكتلات من السنين]

تمسك بورقة جرنان قديم، تُكوِّرُها، تتفُلُ عليها خفيفًا قبل أن تولجها في تجويف الزجاجة. تظلُّ تُحرِّكها بالوسطى والسبابة. ينتقل السناجُ من جدارها الداخلي شيئًا فشيئًا إلى لفافة الجريدة. تصيرُ الزجاجة لامعة براقة. تُحرِّكُ ما يُشبه الترس النحاسي الصغير فيرتفع الشريط الأسود فتنظر إذا ما كان في حاجة لأن تسويه بالمقص فتزيل عنه الشراشيب. هدفها أن يكون معتدل الأنوار عندما يضيء. تشعل عودَ كبريت بعد أن تكونَ قد ألقت ضفيرتها الطويلة خلف ظهرها كفرسَة.

تحبِكُ الزجاجة في مجراها من ذلك التكوين الشفاف المليء بالجاز، والذي بحسب لونه يتبدى الجاز أخضر أو أزرق.

يتجلى نوران:

نور المصباح، ونور المرآة الصغيرة المستديرة المُلحَقة به، والمثبتة بسلكين قويين مهيئين لحملهما معًا: المصباح في الأمام، والمرآة خلفه قابعة تمامًا تحت المسمار الذي يحمله على الحائط.

هذا ما كانت تفعلُه أمي كل مغرب. ومثلها أحاول الآن أن أجلو ذاكرتي. فإلى أي مشاهد قَصِيَّة يمكنني الوصول؟

الصور التي في القاع السحيق أعثر عليها باهتة، متآكلة، مع ذلك أحاول استبانة الكوامن واستحضار الخبايا ورتق المهترئ.

أراني أول ما أراني، أخبُّ في جلباب ابتلعت الذاكرة لونَه في ليلةٍ شتوية باردة وغير مطيرة، خارجين من بيتٍ قديم، مغادرين شواطئَ الدفء، تاركين الظلالَ تتداخل كلما حرَّكَ الهواء ذُبالةَ لمبة سهاري تكاد تغفو في تجويف جدار قديم، منبعج، في تلك الحجرة التي أحاول الآن تبيُّن مَن كان فيها معنا. أو من كنا فيها معه.

أكاد أجزم الآن أنها كانت لعمتي.

إذن كنا في زيارة ليلية لها. وكانت ممددة فوق سرير من أعواد الجريد، سيلازمها طويلًا... وكان يغطي قدميها القصيرتين حرامٌ حائلُ اللون. الضوء في الحجرة باهت، شحيح، لا يكاد يكشف الآن لي ملامحَ موغلة في القدم.

أمي ليلتها هي التي صنعت الشاي [كانت تلك عادتها عندما نزور عمتي] على جمرات تتلظى في وعاء يشتكي السواد.

- اعملي شاي لجوزك يا إحسان!

تطلب منها ذلك والبراد على الجمر، والدفء يغمر المكان تحافظ عليه جدرانٌ سميكةٌ، وبابٌ مغلق، ونافذةٌ صغيرة تكاد لا تنفتح أبدًا.

الصوتُ واهٍ ضعيف ينسربُ في تلافيف السكون.

الأكواب لم تكن من الزجاج، بل من الزنك ولها أذن صغيرة (محندقة).

هل عمتي كانت بعافية شوية؟ وتأخرنا عندها قبل أن (يطسنا) هواء الشارع شبه المظلم. هل كانت راقدة فعلًا وممددة تحت الحرام؟ أم جالسة في السرير وظهرها للحائط وساقاها أمامها تحت الحرام باتجاهنا؟

أشعل أبي عود كبريت فانطفأ. كنت أداري خوفي بتشبثي بقوة بالبُرُنْج الذي تلفه أمي فوق ثيابها في الطريق الموحش. وربما لم أكن خائفًا بالمرة لأني في حماية الأب مطلق القوة.

أرفع عيني قليلا فيلوحُ قمرٌ مريضٌ كعمتي، ثم يتوارى عندما يبرز فانوس الشارع بعد مسافة قصيرة. لم تكن الكهرباء قد عرفت بلدتنا بعد. يأتيني صوت أبي: "جدنا الكبير كان من بلدة صغيرة مجهولة على النيل في الصعيد، مشهورة بالعسل، وعندما تصل المراكب وعليها البلاليص ويراها الناس يستبشرون: "العسل الـ.. [ويذكرون اسم البلدة الذي صار اسما جديدًا لعائلتنا] وصل. مع ذلك لم يعمل أحد الأحفاد بتجارة العسل ولا تجارة البصل. أمي هي التي حكت لي ذلك".

***

أتشكك، فأتساءل الآن: مَن كانت المريضة التي كنا نعودها، عمتي نفيسة أم جدتي ست؟

لحظاتٍ قبل أن أتكئ على اليقين. بالتأكيد لم تكن الجدة؛ فجدتي أم أبي، كانت تقيم في بيتنا القديم قبل أن يضربه التقسيم ثلثًا لأبي وثلثين لعمي. وجدتي لأمي كانت بعيدة عن خريطة الزيارات.

إذن المريضة تلك الليلة هي عمتي نفيسة ولا أحد غيرها.

رغم أني لا أذكر شيئًا عن جدتي ست، أم أبي، فقد ماتت وأنا لا أدرك سوى القليل، وجدي مات قبل أن يتزوج أبي بأمي، فلا أعرف عنه إلا ما سمعته وانحفر في ذاكرتي؛ فكأني رأيته بعيني وخصوصًا ما قيل عن نظرات عينيه التي كانت تتوقد كالجمر. ما كان أحد يجرؤ على التحديق في عيني جدي ولو لحظات.

هل رأيتُ ذلك أم سمعتُه؟

سمعته، ورأيتُ الصورةَ الصغيرة التي كان أبي يحتفظ بها في صندوق صغير من الصاج، مغلق بقفل مفتاحه في مكان آمن. كنت أطلق على ذلك الصندوق بؤرة الأسرار والدموع.

دريتُ بأبي مراتٍ عديدة يتسلل وحيدًا إلى الحجرة الوحيدة، عندما تكون أمي منشغلةً في الصالة بشيء سيأخذ منها وقتًا طويلا... وألمحه يتحسَّسُه برفق ليزيل عنه ما يكون قد علق بسقفه من تراب. يفتحه ويخرج الصورة، صورة أمه. لا شك أن أصابعه المرتعدة من الخشية المقدسة قد تركت عليها أثرها الذي لا يُمحى.

يظلُّ يتطلع إليها وعيناهُ بالدمع تُشرقان. ألمحه أحيانًا يُنهنه كطفل صغير وبقايا أمه في يده، يطلب لها الرحمة والمغفرة. تراني أمي فتجذبني من جلبابي وهي تصلِّب بسبابتها على فمها علامة تحذير.

شيء ما خطير يحدث الآن. "لو رآكَ تتلصص عليه سيؤذيك!"

- أنا لا أتلصصُ على أحد.

- أنا نفسي لا أستطيع الدخول عليه هذه اللحظة.

بعد لحظاتٍ أسمع نشيجه فتجتاحني الرعدة لأن الجبل يبكي. أرفع وجهي لوجه أمي فأرى عينيها تغرورقان لبكائه، لكنها لا تقدر أن تدخل عليه.

أما صورة أبيه فلم يكن يمعن فيها النظر طويلًا. كان أبوه رجلًا شديدًا، صلبًا، مرهوبًا، يحتكمُ إليه أهلُ البلد وله عليهم سطوة. وعندما كانت تتناحر عائلتان يأتي رجلٌ من هذه أو من تلك إلى بيتنا ليقابل جدي ويحكي له مُصابه، فإذا ما اقتنع بالكلام اقتناعًا تامًّا وأراد أن يمنع كارثة من الوقوع طاوع الرجل وذهب معه إلى بيته وجلس عنده ساعة والمنظرة مفتوحة الشبابيك حتى يراه الناس عنده فيفكر الخصم ألفَ مرةٍ قبل أن يُقدِمَ على شيء ضار.

وعندما تحدث سرقةٌ ويتحيرون في فكِّ طلاسمها يأتون إلى جدِّي. تتهمون مَن؟ ويرسل إلى المتهمين واحدًا بعد آخر. نظرة من عينيه تثقب المريب الذي يكاد يقول خذوني. يعترف ويتعهد برد الشيء المسروق ولا يبوح جدي باسم السارق. يظلُ السِّرُّ في بئر. يجتمع جدي بالمتهمين جميعًا دفعة واحدة ويقول لهم: في المساء تأتون ومع كل واحد منكم جلبابٌ مطويٌّ ومَن سرق يخفي السرقة في الجلباب. يدخل ويتركها في الحجرة المظلمة ويخرج بالجلباب فارغًا. وبعد أن ينصرف آخرُ واحدٍ من المتهمين يدخلون ويضيئون الحجرة فينشرح قلبهم بعودة المسروقات. يُقبلون يد جدي ويرجونه أن يحدد لهم السارق فلا يفعل أبدًا.

بعد كرِّ أربعين عامًا على مثل تلك الأحداث قال أبي لأختي زينب المتزوجة في الإسكندرية: "أريد تكبير هذه الصورة يا أم هاني، خذيها وأعطيها لمصوراتي وخليه يكبرها عالكمبيوتر..."

ويؤكد عليها: "لا تبخلي عليه! أعطيه أجرته وزيادة وسأحاسبك".

وتقول أختي إنها أُصيبت بطلقة نارية عندما اصطدمت عيناها بعيني الصورة فلم تطق التحديق إليها لحظة واحدة، بل إن زوجها عندما رأى الصورة سألها:

- مَن هذا؟ أهو الذي يخوِّف به العفاريتُ أبناءَهم الصغار؟

- لو سمعك أبي سيطلقني منك!

أخفتْها في حقيبة يدها ولم تُعِد النظر إليها حتى سلمتها لمصور مشهور في محطة الرمل. قدَّمتها إليه على استحياء. هي واثقة أن الصورةَ باهتةٌ لكن العينين ترميان بشرر. الرجل الذي تلمع نظارته سيصدم بها. أختي تريد أن تشغله عما سيراه حتى يتشتت انتباهه ولا تصدمه الصورة.

ستظل تثرثر: "يا باشا أريد تكبر الصورة دي، وخذ بالك وحياة ولادك دي غالية قوي عند بابا، إوعى تتبهدل منك أو تتلف اعمل معروف! دي صورة جدي وأنت تعرف الناس بتوع زمان كانوا.... "

لكن الرجل عندما تناولها ونَظَرَ إليها جفل كالمرعوب متمتمًا بكلمات غير مفهومة، وضَمَّ شفتيه بابتسامة مُطفأة قبل أن يُعيدها إليها: "آسف"

- ليه؟

تركت يده ممدودة بالصورة وشهقت: "ليه؟ ما السبب؟"

- لن أستطيع!

- يا باشا!

- طيب، ممكن أكبّرها بشرط أعمل شوية شغل في العينين، أحاول أخليهم معقولين.

- يعني شغلك سيؤثر على الصورة يا باشا؟

- طبعًا، لازم القلم يمشي عالجفون ويخلي النظرة تلين.

- يا خوفي بابا يزعل! إنت ما تعرفش زعله شكله إيه!

- يزعل ليه؟

- لأن هذه صورة أبيه، وما أدراك من أبوه!

بعد ثلاثة أيام ذهبت أختي إلى الاستوديو فملأت وجه الرجل البسمة المطفأة نفسها: "آسف يا ست، ما زلت أشتغل فيها".

- الولادة متعسرة والا إيه؟

نَظَرَ إليها الرجل باستغراب. كأنما ينظر إلى جمل غاضب (يبرطع) في منطقة سياحية. نحن هنا في استوديو محترم وليس في مستشفى إنجاب أطفال. بعد أسبوع ناولها إياها، أزاحت الغلافَ الورقيَّ عنها فوجدت شخصًا آخر يرنو إليها، غيرَ مخيف. عيناه وادعتان يلبس جبة وقفطانًا زاهيين لم يكونا له. "إيه رأيك؟"

– خايفة تقول لي ادفعي ثمن الجبة والقفطان!

ابتسمَ لأول مرة.

– يعجبك هكذا؟

– ربك والحق كده أحسن، ولكن كأنه ليس هو، ربنا يستر!

وبعد اتصال تليفونيٍّ سافر أبي إلى الإسكندرية خصيصى ليتسلم صورة أبيه. تناولها من يدها بحنان من يربت على طيف. أزاح عنها الغلاف وملأ بملامحها عينيه لحظات قبل أن يسأل: "من هذا؟"

ثم فجأة.... كأنما صببتَ على رأسه الماء البارد في عز الحر، انتفض كالمارد: "مش دي أبدًا!، حرام عليكم، هذا ليس هو، أريني الصورة الصغيّرة لأريكِ الفرق!"

ناولَته إياها فتزلزل. ماذا جرى للعينين؟ ما الذي عبث بهما هكذا؟ مستحيل! يداه المعروقتان ترتعدان. "وأفوض أمري إلى الله" حرام عليكم. "إن الله بصير بالعباد". كاد يتبرأ من أختي لفعلتها التي لا تُغتفر.

وظلّت تترجاه وتقول له إن المصور لم يستطع التحديق إلى الصورة قائلًا كيف: "تعلَّق في أودة الجلوس ويشوفها الناس؟" "سامحني يابا!"

– هو ماله؟ "وأفوض أمري إلى الله" هذا أبي أنا مش أبوه هو، حرام عليكم!

ويتطلع إلى الصورة الصغيرة ويتساءل: "كيف أُعيدها إلى ما كانت عليه؟ "إن الله بصير بالعباد".

وعندما صفق الباب وراءه غضبانَ أسِفًا كانت "حرام عليكم" تتناثر في بئر السلم. ترك أختي لدموعها وعاد إلى البلدة يمزقه الغيظ.

ضاعت الصورة إذن بعد أن فقدت جوهرَها، وهَجَها، تضرُّمَها. غرق طفل في الماء فمهما نفعل لن نعيد سوى جثته.

لكني عثرت على قصيدة رثاء من تأليف جدي وبخطِّ يده نظمها وألقاها في حفل تأبين زميل له من المعلمين، من عائلة شعبان القريب منزلهم من النيل، كان جدي معلمًا أيضًا، أريتها أبي على أنها كنز وسيفرح بها، لكنه تجاهَلَها! فسَرْتُ ذلك بأنه سبق له رؤيتها كثيرًا.

***

قيل لي إن المدارس الحكومية لم تقبلني لأن سني كانت صغيرة، ولهذا ألحقني أبي بمدرسة الجمعية التابعة للأزهر حيث كانت تقبل صغار السنِّ، فهل قضيتُ بها الصف الأول بأكمله ثم انتقلت إلى مدرسة الزمراني القريبة من بيتنا أم كان انتقالي بعد أشهر قليلة فقط؟

وكم من الشهور أو الأعوام قضيت في مدرسة الزمراني تلك قبل انتقالي إلى مدرسة النصر القريبة من مركز البوليس؟

ربما كنتُ أنتقل من مدرسة إلى أخرى تبعًا للمكان الذي كان يعمل فيه أبي، ولذلك لا أذكر أي سلطة قيادية في أي مدرسة من الثلاث المذكورة لأن سُلطة أبي كانت تفرد جناحها على حركاتي وسكناتي وتهبني الاطمئنان والأمان. "ابن الأستاذ كومي" يقولها أحدهم للآخر فأحسُّ بالنشوة تغمرني.

ومن المؤكد أن أبي عمل في مدرسة جمعية المحافظة على القرآن الكريم سنواتٍ طويلةً قبل إلحاقي بها، وقبل أن يُنقل للعمل في المدارس الحكومية، سمعته يحكي ذات مرة عن الشيخ كشك، الخطيب المشهور، الذي كان تلميذًا لأبي في تلك المدرسة، ولكني لم أهتم بما قال، ربما لأني ألفيت فيه ما يشبه المبالغة. قال إن التلميذ الصغير عبد الحميد كشك كان يعبث ذات يوم بأشياء في يده غير ملتفت للحصة، وأن أبي ضربه معاقبًا إياه، ولم يجلس التلميذ شبه الضرير آنذاك بل ظَلَّ واقفًا رغم صياح أبي فيه ليجلس، لكن التلميذ أصرَّ ألا يُذعنَ للأمر إلا بعد معرفة سبب الضرب! "قل لي أولا لماذا ضربتني؟" "لأنك لا تلتفت لما أقول".. "بل أنا شديد الالتفات". وراح الطفل يُعيد عن ظهر قلب كل كلمة قالها أبي. يحكي لنا ذلك وعيناه تشرقان ربما بدمع لا يبين. [لا أدري لماذا ظننتُ أن في هذه الحكاية البسيطة العفوية مبالغة!]. ولم يكن يُعهد لأبي، حسب رغبته على الأرجح، سوى التدريس للصف الأول

الابتدائي، وكان كل ليلة يطلب من أمي أن تضع له الطبلية في الصالة إن كنا في بدايات الصيف، أو في الحجرة إن كنا في ليالي الشتاء، وعليها اللمبة (نمرة عشرة) تنزلها أمي من عرشها على الحائط، ويتربع وأمامه كراسة التحضير يرسم فيها الوزة أو البطة أو الدجاجة، حسب الدرس، وأراه يخطط رأسيًّا وأفقيًّا بالقلم والمسطرة ويكتب بالحبر الأزرق الغامق في عناية فائقة فأتعجب من صبره الدءوب. وعندما يكون منسجمًا كان يغني من كلمات ابن علوي الحداد:

الزمْ بابَ ربكْ واترك كلَّ دونْ

واسأله السلامهْ من دار الفتونْ

الله المقـــــدرْ والعالم شئونْ

ويظل يكررها وكأنه يستحلب قطعة سكر.

وفي المدرسة أتابعه وهو يبري الأقلام الرصاص للأولاد ويمسح على شعرهم بيده.

كنت أتساءل: "لماذا لا يفعل أبي مثل ذلك معي خارج المدرسة؟"

كان يقسو عليَّ كثيرًا. وأعترف أني كنت ضعيفًا في الحفظ. أفكر وأفهم لكني لا أجيد الاستظهار. وكان حريصًا على أن أحفظ القرآن. يقرأ لي السورة وأعيدُها خلفه آيةً آية. يقرؤها لي مرة أخرى كاملة ويأمرني أن أقرأ. أبحث عن ريقي وأبدأ متلعثمًا فينهرني:

- خذ بالك يا بَجَمْ!: حرف الجر يجر بلد بحالها! افتّح عينك!

في الكُتّاب يظل الشيخ يكرر لهم الآية عشر مرات أما أبي فمرة واحدة أو مرتين. في عصر اليوم التالي أُسمِّع له.

نتغدى بعد الظهر ثم ألاحظ انقضاض العصر فوق كاهلي سريعًا مريعًا. ما هذه السرعة يا زمن؟ "حفظت يا بني؟"

أبحث عن ريقي الذي صار كالحطب الجفاف. عند أول خطأٍ من جانبي يتذمر. تتدحرج الأخطاءُ فتنزل كفُّ يده على صدغي فأقفز من مكاني أكتم صرختي. لم أكن موقنًا آنذاك أن من حقي التأوُّه من الألم. هل أهرب وأترك له البلد وأرحل؟ لَمْ أجربْ بعدُ الهربَ من أمامه. لو أحد زملائي مكاني لفعل. لكني لا أجرؤ؟ أم لا أرى ذلك ملائمًا لي؟ أن أهربَ من مجال سطوته تعادل أن أمزحَ معه. هل بإمكاني أن أقول له نكتة؟ مستحيل. تبرق عيناه فأرتعدُ إلى أن ألحظَ نقطة دم أفرزتها لثتي فأريه إياها وأغادر المكان متثاقلًا ومعي رخصة.

أين أبي هذا من أبي الذي يحكي لي أحيانًا خبايا نفسه الذي قال لي ذات مرة وفي لحظة تجلٍّ: إنه قديمًا كان يعتقد أن كلب أهل الكهف اسمه باسط؟! فيضحكني قبل أن يعطيني معلومة لم أسمعها إلا منه عندما قال: وثامنهم كلبهم، أتعرف ماذا تسمى الواو هنا؟ إنها واو الثمانية! أصارحكم أني لم أقرأها في كتاب ولم أسمعها إلا منه لكنه الآن مخيف.

أُهرع إلى عمتي نفيسة التي (تطبطب) على كتفي وتشتري لي حلوى نبوت الخفير من دكان عم محمد مرعي، وتظل تهدئ من روعي وأنا مستكينٌ لحنانها الذي أفتقده. ينتهي الموقف المتوتر بأن تحكي لي واحدة من حكايات الناس الطيبين الصالحين. أو تقول لي: "اسمع، سأُضحِكك! لطفي ابن عمك كان مارًّا من هنا ولم يلتفت ناحيتي! ناديتُ عليه فجاء ووقف أمامي يهز رأسه مستفهمًا، فسألته: "هل يصح أن تمرَّ من أمام الباب وأنا جالسة وتراني ولا تقول لي صباح الخير يا عمتو؟" وتضحك عمتي مقدّمًا وتقول من بين الأسنان القلائل المتبقية في فمها مقلدة صوته: "لكني قلت لكِ ذلك بالأمس! هل سأعيدُها على مسامعك كل يوم؟!" وتتأملني لترى إن كنتُ قد ابتسمت فتراني على تجهمي. "أبوك يريدك حافظًا لكتاب الله فلا تزعل منه"!

– لطفي ابن عمي بيهزر معاكي يا عمتو! هيا! احكي لي حكاية أخرى!

فلا تبخل عليَّ بقصصها التي تكررها دائمًا لكني لا أمَلُّ سماعها والعيش فيها.

***

ورغم ضيق المكان في منزلنا كان أبي وأمي حريصين على تربية بعض الطيور الداجنة فتشاركنا معيشتنا. أذكر أن ديكًا روميًّا كبيرًا كان يتجول من الحجرة إلى الصالة إلى وسط الدار، وأني كنتُ أشمِّر جلبابي

وأنا صغير وأركب فوق ظهره فيمشي بي أحيانًا، وينخُّ أحيانًا أخرى ليوقعني!

ولا أذكر متى ذبحناه ولكني سمعتُ من أمي أن أبي كان يحب طبلة الديك الرومي، وهي أيضًا، أما أنا فمتأكد أني أكلتُ قطعة من كبده.

وأذكر في زمن آخر أنه كان عندنا ديك رومي صغير أطلقنا عليه اسم كركر، كان يحب السكر، يخطفه من أيدينا. لم يكن عندنا غيره، وكنا نسرف في تدليله، وعندما لا يكون في أيدينا سكر كان أيضًا يقفز وينقر أصابعنا ونحن نضحك. إلا أن أمي كانت تعشق تربية الحمام...

ولكيلا يطير كانت تقصُّ أجنحته بالمقص فلا تكبر سريعًا، ويظلُّ هكذا يتمشى في الصالة ووسط الدار كأنه دجاج.

لكن ريشًا جديدًا نبت لذكر الحمام فوجدناه ذات يوم عندما كان البابُ مواربًا، ينطلق إلى الشارع فجرينا خلفه، ولم تساعده جناحاه على الطيران فأمسكناه، وقصت أمي ريشه، لكن ريشًا جديدًا نبت له لا ندري كيف. وفي يوم من الأيام طار واختفى. وجعلنا نراقب حزنَ الحمامة الأنثى على إلفها الغائب. وقبل أن ننام، وكنا طبعًا ننامُ جميعًا في حجرة واحدة، كنتُ أسمع تنهيدة أمي وتساؤلها وكأنها تحمل أحزان العالم كله:

- يا ترى أنت فين يا حمامنا؟

فيرد عليها أبي: "ربما اقتنصه أحدهم وذبحه وأكله".

- يطفحه!

- حرام يا شيخة!

وفي الصباح أرى وجهها يتقلب في السماء وفوق الأسطح تتشوف فربما لمحت ظِلَّه يمرق فوق الجدران.

- لو كان حيًّا وله عمر سيعود!

وتطلب مني ومن أختي عزيزة أن ننتشر في المكان نسأل عنه الجيران وجيران الجيران، ولا حياة لمن تنادي. وفي اليوم الثالث تمكّنَ اليأس منا جميعًا.

لم نطاوعها حين طلبت منا استئناف البحث، وقلنا لها: "اشترِ غيره!"

وكان وجهها كظيمًا وهي تغمغم: "صعبان عليَّ، مستعدة أدفع ضعف ثمنه ويعود! يا ترى من أكله في بطنه؟"

وفي اليوم الرابع، بعد العصر لمحته وأنا قادم من الجامع فدخلت وبشرتُ أمي (فانتترت على حيلها) تسألني إن كنت واثقًا أنه هو!

وتتلفت حولها: فين؟ فين؟

ورأيناه! فـوق العـشة العلويـة لمنـزل الجـاج حمِّيـز. ظللنـا واقفـين مدهوشين، منتظرين. طار وحطَّ فوق منـزل الرويني. يتلفـتُ حواليـه كأنما ليتأكد من المكان ونحن نحبس أنفاسنا، ثم طـار. دار دورة كاملـة في الهواء ونحن نناديه وقلبنا مقطوع من الخوف. ارتسم ظِلُّه على الجدار لحظة ثم تلاشى.

فتحنا بابنا على الآخر: "تعال، تعال!"

حرَّك جناحيه الهواءُ في مدخل دارنـا وراح (يـبرجم) وكـأنما يقبّـلُ منقار أنثاه، وصارا يدوران الواحد حول الآخر.

أمي طائرة من الفرحة بعودة الغائـب قالـت لي: "سـتجد أبـاك في دكانة محمد مرعي، اذهب وبشره بالخبر السعيد".

كانت فرحتنا كبيرة. انطلقتُ كحمامةٍ ناسـيًا مـن فرحتـي أن أضـع شيئًا في قدمي. وعندما وصلت إلى الدكانة كان أبي هناك. واثـق أنـا أنـه سيفرح فرحة تنسيه كل شيء. رآني. وقبلَ أن أزفَّ إليه النبأ فاجأني:

- ماشي في الشارع حافي يا بن الكلب؟

***

وكنت ما أزال في العام الدراسي الأول عندما فوجئت به في إجـازة نصف السنة يبشرني: "سنسافر إلى القاهرة يا بطل!"

- من؟

- أنا وأنت!

ولمحت على وجه أمي فرحة غامرة، كأنها لا تصدق الخبر، قالت: والنبي يا كومي سنشتري راديو؟!

كان لنا أقارب يعيشون في منطقة المطرية، وسنذهب إليهم لنعود بالكنز الثمين الذي لا أحد في الشارع عنده مثله باستثناء عم مرسي الوحش، الخياط الذي يتركه (يلعلع) طول النهار حتى عندما تمرُّ جنازة أمام المحل لا يغلقه بل يُخفِضُ صوته دقيقة واحدة ليطلقه مُجلجلًا من جديد.

ولا أذكر من القاهرة تلك شيئًا، ولا من المطرية، لكن الذي بقي في الذهن صورة مشوشة لمكوثنا في منزل متواضع كمنزلنا لم نغادره ثلاثة أيام بلياليها، وربما غادرناه ولا أذكر، وربما خرجوا وزاروا وتركوني مع أطفال البيت. بَقِيَ في قعر الذاكرة بقايا أحاديث مسائية مطموسة وحوارات مع أقارب لنا لا أعرفهم، كل ذلك غيوم قاتمة بالنسبة لطفل مثلي، لكن فرحتي بالراديو لا شك كانت عظيمة.

ضخمَ الحجم كان، من طراز فيليبس الهولندي الأصلي، صوته يدوي حتى يكاد يهز الجدران، ويهزُّ القلب داخل الصدر. ماذا ستقول أمي عندما تراه؟ بكم اشتريناه؟ كل هذا ذاب من الذاكرة ذوبانًا. المهم أننا عدنا به راكبين القطار حتى دمنهور، وأذكر أن أبي كان يحمله على كتفه حتى يؤلمه فينقله إلى الكتف الأخرى، وكانت هناك قطارات أقل سرعة تصل عاصمة المديرية بالبندر تسمى الدلتا - هي الآن في رحمة الله

فقد تم الاستغناء عنها بقرار جهول واستولى الأهالي على مخصصاتها وأراضيها بوضع اليد وبنوا فوقها بيوتًا ومنشآت، وحُرمنا تمامًا السكة الحديدية التي هي من متطلبات الحضارة – لم نركب قطارَ الدلتا وقتها وجئنا بالأتوبيس الذي ربما انتظرناه طويلًا في محطته النائية في شبرا. ركبت إلى جوار أبي ووضعنا الراديو بيننا، بالطول، حشرناه حشرًا، وازدحم الأتوبيس ولم يحضر السائق إلا بعد أن تعالت صيحات النقمة من المسافرين.

القصد...

وصلنا بالراديو (التحفة) وفتحناه على عجلٍ فأضاءت لوحة مليئة بالأرقام كأنها عروس مجلوة، ابتهجنا برؤيتها وشهقت أمي: "اللهم صل على النبي!"

وأين المحطات؟ لا صوت إلا (وشيش) كصوت وابور الجاز. بحثنا عنها طويلًا وأبي يشهدني أننا استمعنا إليه هناك. ضرب يدًا بيد وصاح: "بس! تذكرت!"

– ماذا؟ بربك أخبرنا.

– الهوائي! نسينا تركيب الهوائي.

وصعد على السطح بعد أن دبر عِرقين متينين من عروق الخشب ثبتهما رأسيًّا على سطح الحجرة، وأوصل بينهما السلك العاري أفقيّا، ثم هبط بالسلك الرأسي حتى أوصله بالراديو فانطلق الصوت مُجلجلًا.

ولم نكن وحدنا المبتهجين. ابتهج الجيران أيضًا بهذا الجهاز الرائع وكانوا يجيئون إلينا للاستماع إليه، ويبدون إعجابهم الشديد بصوته المدوي، وكانت أمي فخورًا. ظللنا أيامًا نختال بكل هذا الجمال النادر حتى نفدَ الوقود. كان يعمل بالبطارية وفرغتْ فاشترينا غيرها بمبلغ أنهك الميزانية المتداعية أصلًا، وبعد أقل من شهر تطلَّب الأمر تغييرها.

وينزعج أبي. بدأ يتذمر، ويؤكد أن هذا الأمر وراء بيع أصحاب الراديو له حيث اشتراه بحُسن نية، لكن أحد أصدقائه نصحه أن يستبدل بهذه البطارية أخرى يمكن إعادة شحنها، غالية نوعًا ما لكنَّها موفرة على الزمن الطويل. اشتراها أبي وكانت كالتي تُستخدم للسيارات، وكنا نذهب إلى الورشة لإعادة شحنها ونلاقي مصاعب جمَّة، ونتحمل. فجأة تذكر أبي شيئًا فامتقع وجهه وسمعته يؤكد لأمي:

- لازم أدفع وإلا سيجيئون ويستولون على الراديو

- تدفع إيه يا كومي؟

- شيء كده زي الضريبة السنوية، عن كل شهر ريالين، يعني أدفع ٢٤ ريالًا سنويًّا عن طريق البوستة.

قالت له إن الضربَ في الميت حرام، لكنه، ومن لحم الحي، أرسل حوالة بالمبلغ المطلوب إلى الجهات المختصة، رغم أن الناس نصحوه ألا يفعلَ، ومرسي الوحش نفسه، الذي يظل مذياعه (يلعلع) في دكانته طوال النهار قال له: "عمري ما عملت كده يا شيخ"، لكنه كان ملتزمًا

باللوائح طوال عمره، لا يخالف بندًا من البنود ولا شرطًا من الشروط، دائمًا يمشي على الصراط المستقيم.

ودفع... وبعد أشهر سمعنا عن إلغاء هذه الضريبة رسميًّا... لكن.. من كان يجرؤ على التلفظ بذلك أمام أبي؟!

***

ونذهب لنشحن البطارية، ونحتار، لكن أحد معارفه قال له، وكان في زيارة لنا في العيد، تقدر يا عم الشيخ تستغني عن البطارية خالص!

فغر فاه وبرق بعينيه:

- إزاي؟ دلني أنا في عرضك!

قال له: "يلزمك عدد ثلاثين كوباية، حجم كبير، تضع فيها ميّة النار وأعمدة فحم وأعمدة زنك توصل بعضها ببعض بطريقة علمية. الدولاب الصغير ده تقدر تستخدمه، تملاه كوبايات وأرفف. العملية دي ممكن أعملهالك".

وهكذا صار عندنا معمل خاص بالراديو عبارة عن دولاب خشبي في حجم رجل قصير سمين، يقبع الراديو فوقه، مليء بالأرفف وعليها الأكواب يتوصل الموجب بالسالب بطريقة علمية، وأبي يحذرنا من فتح الدولاب أحسن مية النار تكوينا وتشوهنا.

- حاضر يابا.

وصرنا نرى أبي كل أسبوعين يقوم بتجديد ماء النار والأعمدة المتآكلة، ومشكلات الراديو تتزايد، لكن أبي لم يعد يتحمل أن يغيب عنه افتتاحية إذاعة صوت العرب "أمجاد يا عرب أمجاد"، ولا يمكنه أن يستغني بأي حال من الأحوال عن صوت الشيخ محمد رفعت، ولا رنين ساعة بج بن ثم نشرة أخبار القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية.

لم يكن يحب الشيخ رفعت في البداية لأن الصوت كان مصحوبًا بشوشرة كبيرة. ما إن يأتي صوت الشيخ مصحوبًا بهذا (الوشيش) كأنه وابور جاز حتى يسارع أبي إلى تغيير المحطة، إلى أن كان يوم واندفع أبي يدير المؤشر بسرعة فانقطعت الفتلة وتوقَّف الراديو عن الأداء.

هنا أدرك أبي أنها رسالة سماوية تحذره من محاربة هذا الصوت.

وقف عاجزًا معترفًا بذنبه، مقرًّا بما اقترفت يده، وحمل الراديو إلى من يُصْلِحُ له الفتلة المقطوعة، وعاهَدَ الله ألا يعودَ إلى معاداة الشيخ، وصار يتأمل رخامة الصوت ويتعجب من نفسه كيف كان غافلًا عن كل هذا الجمال وهذا التعبير الصادق الذي لا مثيل له!

ظل هذا الراديو في منزلنا ردحًا من الزمان تحفةً كلاسيكية فريدة إلى أن قامت حرب اليمن، وكان مختار ابن عمي يحارب فيها، وعندما وضعت أوزارها، أو جاء في إجازة، جاء ومعه راديو ترانزستور في حجم الكف أهداه لأبي وقال له: "تقدر يا عمي تستغني عن المعمل هذا بكوباياته وكراكيبه، سأجعلك توصل هذا الترانزستور بسماعة الراديو الكبير. سيخرج الصوت من السماعة الكبيرة".

وقام بالتجربة واضعًا الترانزستور فوق ظَهر الفيليبس الضخم، وأوصل بينهما بسلك وقال له: بحجرين قلم يشتغل. انظر!

قالت أمي وهي لا تداري فرحتها الغامرة:

– الراديو بيشتغل من غير مصارينه يا كومي!

***

قبل ذلك أو بعده لا أذكر، وضعتني أمي في (الطشت) وحممتني فلم أتضايق من الصابون الذي يتسرب إلى عيني مهما أطبق جفوني، ولا من قطعة اللوف الجديدة التي راحت تستثير بشرتي بحدة لم تنكسر بعد؛ وذلك لأن أمي أخبرتني أن أبي سيصحبني في مشوار مهم. لم يكن من عادته أن يأخذني معه. أسعدني هذا الخروج على المألوف وإن كنت لم أرضخ لأمي إلا بعد أن تأكدت من النيات، وأن الأمر ليس مجرد خدعة لإخضاعي لسطوة النظافة. اطمأنَّ قلبي عندما لمحت أبي يلبس جلبابه الصوفيَّ الذي مع الأسف كان يُبرز نحافة رقبته وإن كان يعطيه وقارًا يعجبني. وراح يُعيد تمشيط شعره الناعم الخفيف بتمرير أصابعه فيه كأنها مشط. لم يكن شعره محتاجًا لتسريح. وكان قد عاد لتوِّه من صالون المعلم ضرغام حالقًا ذقنه فغسل وجهه وتوضأ وصلى الضحى وأنا أرقبه في حركاته وسكناته عسى ينظر ناحيتي ويخبرني عن الوجهة التي ينتوي أن يأخذني إليها. تسأله أمي: تعرفها يا كومي؟

– عرفتها وهي صغيرة في الصف الأول الابتدائي وكنتُ أيامها معلمًا في تلك القرية التي سنذهب إليها الآن.

- وما زلتَ تذكرها؟

- كانت ابنة العمدة وكان شيخ الخفر يأتي أحيانًا ليأخذها عقب الدوام ويقف قليلًا ليثرثر معي قبل أن يصعد على ظهر الركوبة وأحمل البنت وأضعها أمامه. أيام!

وسمعنا عمي ينادي فخرجنا إليه. كان معه ابنه الأصغر ربيع الذي يقاربني في السِّنِّ، ففرحتُ لأنه سيكون رفيقي في تلك السفرية. ولا أذكر ماذا ركبنا إلى هناك إن كانت عربة مخصوصة أم تلك الحافلة التي كانت تسمى "الشركة" أو "الحلزونة" وكانت مزعجة إلى حَدٍّ كبير، ومع ذلك كنا نفرح بركوبها؛ فهي توصلنا إلى أماكن بعيدة، نحن المحرومين من السفر. المهم أنني أراني وربيع وأبي في ناحية من دوار العمدة بينما العمدة وعمي في مواجهتنا متجاورين على كنبة. كانا ضخمين عليهما الهيبة كُلٌّ بطريقته. العمدة عليه هيبة الحُكم والمكانة وعمي عليه هيبة الورع والتقوى والوعظ والإرشاد، ويتحدث عن ابنه محمد الذي جئنا في ذلك اليوم لنخطب له ابنة العمدة كبير ذاك البلد، ويؤكد عمي على الجو الدينيِّ والأخلاقيِّ الذي ستعيش فيه ابنته: "ألا يرضيك أن تصلي ابنتك الخمس في أوقاتها في ظلال بيت كله ورع وتقوى؟ ألا يرضيك أن يكون زوجها أستاذًا كبيرًا في الأزهر الشريف؟ وهو الآن في بعثة بشرق آسيا. هيا نقرأ الفاتحة!"

- علامَ؟

- على هذا الذي قلناه. اقرأ اقرأ!

يأمره أمرًا ويشرع في القراءة ونحن معه فإذا ما رأى أن العمدة لا يُحرِّكُ شفتيه عاود إصدار الأمر: "اقرأ يا شيخ، والله العظيم ثلاثًا ستكون ابنتك بإذن الله في خير حال دنيا وآخرة، اقرأ اقرأ!"

ويريه صورة العريس بطلعته البشوش، ونظرته الساجية، وعينيه الكحيلتين كحلًا ربانيًّا، وملامحه الطيبة وسيماه على وجهه. "اقرأ اقرأ. هو الآن في إندونيسيا، وبإذن الله سنعقد القِران ونقيم احتفالًا بسيطًا لنسعد قلب العروسة ثم نوصلها إلى المطار لتأخذ الطائرة في سلامة الله إلى عريسها. هل هناك أفضل من هذا؟"

ولم يتركه عمي إلا بعد أن انفرجت أساريره، وإذا اليد في اليد وترفرف موجة من الفرح على المكان، رزينة وواثقة.

في تلك العصرية عرفت قدرات عمي وإمكاناته.

ولم تمضِ أسابيع حتى تلكأ التوتر في بيتنا والحيرة الغامضة خيمت علينا وقالت أمي: "الضرب في الميت حرام".

- لكنه ابن أخي وأول فرحته وواجب عليَّ..

- لا اعتراض لي، ولكن من أين لنا بكل هذا؟

وكأن أبي يتلذذ بتعذيب نفسه، ويسعده أن يتحمل فوق طاقته فراح يتصرف. ووضعت أمي الطشت الكبير الذي نستحم فيه وفرشت بداخله ورق جرائد، ثم أخذت ترصُّ ما اشتراه أبي من لحم الحي: مكرونة. أرز. دقيق فاخر. سمن بلدي. أقماع سكر ضخمة. شعرية.

حلويات. لحوم. امتلأ الطشت عن آخره. ووقفت أمي على ركبتيها بعد أن وضعت فوق رأسها "حواية" من القماش المبروم. وتعاون أبي معنا ورفعنا (الطشت) بصعوبة ووضعناه على السرير أولًا قبل أن ننقله إلى رأسها في الخطوة الثانية، أما الثالثة فكانت نهوضها المتوازن بكل هذا، وكانت تمسك بعمود السرير وتجذبه ليجذبها حتى استقامت وأبي يحذرها من أن ينكسر العمود، وتحركتْ باتجاه الباب بعد أن فتحه أبي على وسعه ونزلتْ العتبة ودارتْ حول ناصية البيت لتدخل من الباب الآخر إلى بيت عمي وتعلو زغرودتها. وكان بينها وبين امرأة عمي بعض المشاحنات التي غالبًا ما تكون بين زوجات الأشقاء، لكن الزغاريد تمسح الشحناء إلى حين.

***

يهبُّ أبي من نومه قبل الفجر بمدة.

موقدُ الكحول مقصورٌ استخدامُه على عمل الشاي في تلك الساعة من السَّحر. وابور الجاز (سيهبب) الحجرة إذا أُشعل داخلها، ومن غير المعقول أن يقوم أحد بإشعاله في وسط الدار ثم الصبر عليه دقائق طويلة قبل العودة به إلى الحجرة، وقد يتعطل، وقد تحتاج الفونية إلى تسليك.

كلَّ ليلة، وقبل أن تنام أمي، تحضر صينية الشاي وعليها البراد والكوب، وكذلك الشاي الناشف، والسكر، وتتأكد أن السبرتاية بها ما يكفي من السبرتو فلا يوقظها أبي وعلى وجهه تكشيرته التي تخشاها.

عندنا الخبز الذي تصنعه أمي في فرن الدار بالاشتراك مع الجارات، وبالتناوب، يمدُّ يده ويستخرج شقة في طول الـذراع، ناشـفة مرقرقـة، فينقر عليها بأصبعه حتى تستجيب له، فيكسر منها لقمة يقربها من الملح والكمون أو الفلفل، ثم يجرشها بأسنانه مُحدِثًا صوتًا في سـكون الحجـرة كثيرًا ما صحونا عليه، لكننا سريعًا ما نخلـد إلى النـوم الـذي كنـا نكـاد نغادره، ويكون كوب الشاي قد خفَّـت حـدة حرارتـه قلـيلًا فيرتـشف رشفة بعد رشفة بـصوت مـسموع قبـل أن يـنهض ويتوضـأ اسـتعدادًا لصلاة الفجر، ويكون الشيخ حلمي قد مَرَّ في كل شـوارع البلـدة لينبـه النائمين، يستحثهم للنهوض بصوته الذي طالما أفزعنـا وجعلنـا نخفـي وجوهنا تحت الأغطية حتى يتلاشى بعيدًا..

لم نكن رأينا الشيخ حلمي بعد. ولن نـراه أبـدًا..انطبـع في ذاكرتنـا كرجل من مخلوقات الليل المتحركة كالظلال، لا زمن له، أو قل إنه مـن الزمن الماضي السحيق. كل زملائنا يقولون إنهم يدسون وجوههم تحت الأغطية كلما مرَّرَ في شارعهم صوتَه العتيق.

يؤدي أبي الفريضة في الجامع البحـري غالبًـا. يأخـذ طريقـه شرقًـا باتجاه النيل ثم مصعدًا جنوبًا ناحية المخبز البلدي الذي لا يكون مزدحمًا في تلك الساعة. يشتري عشرة أرغفة. ما تخبزه أمي لا يسدُّ احتياجاتنـا. في جيبه كيسًا يخرجه ويفرده ليجمع فيها الأرغفة بعد أن يعرضها قلـيلًا لهواء الصباح. يعود إلى المنـزل فيفـرد التـسعة أرغفـة مـن جديـد حتـى يضمن أنها جفت تمامًا مـن عرقهـا. تـسألونني عـن الرغيـف العـاشر؟

يكون أبي قد قسمه شطرين يلقيهما لأول كلبين يقابلانه. يقول: "كأنما ينتظراننـي! يعرفان الزمان والمكان. يجريان نحوي يهزَّان ذيليهما. يحاولان التمسح في جلبابي، أهشهما بالعصا. كل واحد ياخد نصيبه وينصرف".

يتهلل وجه شعبان بائع الفول عندما يلمح أبي قادمًا تجاهه. عليه زحمة. ليس مع أبي طبق. يكتفي بالطعمية الساخنة يلفها له صاحبه في قرطاسين متداخلين، وتكون أمي قد أيقظتني. أخرج من البيت على عجل. بعض المنازل ومدرسة الزمراني ثم الخرابة أمرق أمامها كلمح البرق خشية أن تكون بعض عفاريت الليل ما تزال تترقب المارة.

أتمهل مطمئنًّا بعد ذلك لا يهمني شيء. أشتري بعض أرغفة العيش الأفرنجي الطويل من عند جودة صباح أو أخيه حسن لزوم سندوتشات المدرسة. أتوجه والصحن في يدي لشراء الفول من جواهر التي تبيعه في منزلها. أجد بابها مواربًا فأدخل إلى الدفء الغامر. قِدرة المدمس راسخة في مربضها المتضرم. بيدها المعروقة ترفع غطاءها وتدخل الكبشة في جوفها وهي تكلمني:

- أمك ازيها؟ سلم لي عليها.

تصنع أمنا لنا سندوتشات فول وطعمية أنا وأختي عزيزة وأخي سعيد. بين كل منا والذي يليه قرابة عامين. أقول لها:

- الخالة جواهر تسلم عليكِ.

لا تملُّ أمي سرد حكاية بائعة الفول هذه التي قال لها الدكتور لويس: "هاتي الفلوس يا جواهر وأنا أغيرهم لك من البنك في دمنهور"

لكنها رفضت العرض بإصرار ذليل. حدث ذلك عندما قرر جمال عبد الناصر إلغاء الورقة المالية من فئة المئة جنيه.

كان مع جواهر بائعة النابت والمدمس خمسَ ورقاتٍ تخفيها. تحويشة العمر. قال لها: الساعة خمسة النهارده آخر معاد. بعد كده سيكون معاكي خمس ورقات مالهاش أي قيمة. طاوعيني. عندي العربية وهسافر عشان خاطرك. لكنها خافت. كان ذلك مبلغًا خرافيًّا بالنسبة لها. راتب أبي في ذلك الوقت كان في حدود عشرة جنيهات أو أقل.

- يا ستي اعملي معروف لا تظلمي روحك.

- أبدًا

وتهزُّ رأسها كأنما تبعد عنها الإغماء وإن كانت تتأهب لاستقباله.

تقول أمي إن الدكتور لويس كان من بين زبائن جواهر، يشتري منها الفول وهو في طريقه إلى الصيدلية، وقال يداعبها: بت يا جواهر، اوعي تكوني مدكنة ورقة بمية أحسن تضيع عليكي!

فتقول: منين يا حسرة؟!

قال لها "الموضوع جد لا هزار فيه، لو معاكي ورقة هاتيها أغيرها لك من البنك، آخر معاد بكرة". لم يعرف جفنها النوم في تلك الليلة،

وانتظرت أن يمر عليها الدكتور في اليوم التالي لكنها لم تَرَ وجهه. بطنها وجعتها. أصابها الإسهال. جرت إلى الصيدلية. دائمًا عنده دواء تركيب لكل داء. حنفية مفتوحة يا دكتور. قال: اوعي تكوني مرعوبة من شيء آخر يا جواهر!

- شيء زي إيه؟

- تكون معاكي ورقة ومدكناها.

نظرت له بعنيها الضيقة (زي ما يكونوا خرمين) وقالت له:

- خمس ورقات، خمس مصايب. إيه العمل؟

وهو مذهول: "هاتيهم، يخرب بيتك، أسافر بهم دلوقت حالًا، أقفل الصيدلية عشان خاطرك، هاتي..."

- والقِدر نصها فول أسيبها لمين؟

- كل الفول في القِدر مايجيش بتلاته جنيه، إيه العبط ده!

- وهدومي المقطعة دي أسافر بيها ازاي؟

- البسي غيرها

- ماعنديش أحسن منها.

- خليكي هنا وأما أسافر أغيرهم لك!

- ما ينفعش!

وتهز أمي رأسها:

- كان الله في عونها، لم يحدث لعقلها خلل.

***

وكم كنتُ أتضايَقُ من طريقة أمي في سرد الأحداث! كانت عندما تودُّ الحديث عن شيء تقول مثلًا: حدث ذلك يوم خميس، وكنا طابخين محشي كرنب، اشتريتُ الكرنبة من بائع متجول وقف بعربته أمام الباب وجعل ينادي فاجتمعت النسوة حوله، ولم أتردد رغم أني لم يكن معي سوى قرشين، والحمد لله لم تمضِ دقيقة حتى فرغت عربته. الله يحنن عليه. وجاء والدك من الشغل وما إن دخل من الباب حتى شم رائحة المحشي فقال قبل أن يخلع ملابسه: هاتيلي صوبعين اتنين سخنين أدفي بيهم بطني!

كل هذه المقدمة وأنا أصيح بها كل لحظة: ادخلي في الموضوع!

ولم تكن تغضب مني، لكنها كانت بكل تأكيد تلومني في قرارة نفسها لأني أقطع عنها استرسالها في السرد.

كلما سأتذكر ذلك في المستقبل سألوم نفسي على غبائي! سامحيني أيتها الساردة البارعة!

***

وكان عمري أقل من عامين عندما رزقنا الله بأختي عزيزة، وبعدها بأقل من عامين جاء أخي أحمد، ثم أختي زينب، ثم أخي سعيد، ثم أختي نفيسة، على اسم عمتي، أما أخي محمود فجاء وأنا أتأهب لدخول الجامعة. قال أبي:

- غلطة لم تكن مقصودة!

سمعتُ أن أبي أحضر لأمي بعد أن وضعت نفيسة مباشرة عشر حبات مُرة علقم من شجرة نسيت اسمها، وجعلها تبتلعها على الريق قائلًا:

- كل حبة يقابلها عام كامل بلا إنجاب.

وكادت أمي تهلك بسبب هذه الحبوب، لكن ربنا ستر وعاشت من أجلنا.

وبالفعل، بعد العشر سنوات جاء أخي محمود، آخر العنقود.

وتقول أمي إنها ظلت ترضعني حتى بعد إنجاب عزيزة. تجلس على الحصير في الصالة أو (الأودة) وتضع كلًّا منا تحت ثدي، وهات يا رضاعة. حتى قررتْ أن تفطمني وأنا أقارب الثلاثين شهرًا فدهنت حلمة الثدي بمسحوق المرّ فإذا ما تذوقتُهُ بكيت وناديت أبي:

- تعال يا كومي امسحه!

يشرق وجه أمي وهي تحكي لنا ذلك، وتقلد صوتي الطفولي ووجهها يبكي الدم من الفرحة. وكبرنا ودخلنا المدارس، أنا في الصف

السادس وعزيزة في الرابع وسعيد في الثاني وزينب تتأهب لدخول المدرسة، وتقول عمتي قبل ظهور النتائج:

- تعالوا أشوفكم حتعملوا إيه، وبإذن الله نجحانين!

وتأتي بمصحف عتيق، في أوراقه رائحة أبيها وفي جلده شبه المهترئ عَرَقُ يديه، تضع مسمارًا مربوطًا بخيط، بين الصفحات. تدور بالخيط حول المصحف بحيث يقسمه اثنين، وتعقد العقدة. الخيط بيدها مربوط بالمسمار المثبت في المصحف. تقول وهي تترقب حركته:

- شوفوا! إذا دار المصحف تجاه اليمين فأنتم نجحانين بإذن الله.

- وإذا دار ناحية الشمال يا عمتو؟

- بإذن الله سيدور يمين.

وتجيد هي إمالة المسمار بطريقة تجعله يدور كما نحب ونشتهي، وبعد ظهور النتيجة ننتظر منها أن تفعل معنا كالعادة كل عام.

نذهب إلى محلة بشر. هناك شيخ، تقول عمتي، صاحب مقام، سره باتع، نذهب إليه ونوقد له شمعتين. ننتظر ذاك اليوم طويلًا حتى يحول الحول وننجح، وفي الصباح تكون عمتي قد اشترت لنا الحلاوة الطحينية من دكان محمد مرعي، والعيش الطويل من دكان جودة صبّاح، والجبنة والعسلية، ونحمل الزاد معنا ونسير بين الحقول في رحلة تنحفر في أعماق الروح.

نمرُّ على مقابر بلدنا أولًا، ثم نواصل السير حتى صف النخيل، في منتصف المسافة بين البلدتين. نجتازه. ثم نتخير مكانًا معشوشبًا إلى جوار مجرى مائي رفيع. ما زلت أرى ماءه يترقرق أمام عيني حتى اليوم. نفترش الأرض. نفرد ملاءة ونفتح الصُّرة ونمد أيدينا المتلهفة.

تقع أعيننا على الماء المترقرق تحتنا ونلحظ ما يشبه الأسماك الصغيرة وما هي بأسماك. تقول عمتي: "اسمه أبو زبيدة"

- أبو زنيبة يا عمتو؟

ثم نستأنف السير كأنما في جوف أسطورة. وعندما ترى التعب يتبدى على خطواتنا المتكاسلة، والوهن يدبُّ فينا دبيبًا، تضرب بيديها على ساقيها بلطف وتصحصحنا:

- قولوا معايا!

وتغني بإيقاع سريع:

يا رجليَّه مدي شويَّه

إن مديتي لتغديتي

رز مفلفل وحمام بيتي

وتطلب منا أن نكرر خلفها فنترك أصواتنا الطفولية تنطلق على سجيتها. حتى تلوح مدافن محلة بشر، ونقترب منها فتنبهنا عمتي:

- ما أكثر اليمام هنا! أزواجًا أزواجًا. اسمعوا بكاء اليمام!

ونكون قد اجتزنا المكان الموحش وما زال النواح يترنح صداه. تقول عمتي: هذا الشيخ كان خادمًا لشيخ العرب السيد.

- من؟

- المدفون في طنطا، والذي استنجد به الأسرى في إحدى المعارك الإسلامية فمد يده وأنقذهم.

ونتخيل تلك اليد التي امتدت عشرات الكيلومترات حتى حطت في المكان الذي صدرت عنه استغاثة المستغيثين وحررتهم.

تقول عمتي نفيسة عن الشيخ الذي نحن قاصدوه:

- كان عنده كتب يقرأ فيها ليس لها أول ولا آخر، فيها العلم كله، وذات يوم رأى أنه استغنى عنها، فجاء بعربة يجرُّها حصان وحمل عليها الكتب، وتوجَّه إلى النهر وأغرقها!

- وما السبب؟

- الناس سألوه نفس السؤال فقال لهم: "كنت أقرؤها لأهتدي إلى الله، فلما اهتديتُ إليه استغنيتُ عنها".

قلتُ لعمتي: "أما كان الأجدر به أن يعطيها غيرَه ليهتدي بها هو الآخر؟" لا تريد عمتي أي اعتراض على أقوال الشيخ أو أفعاله.

أصابعها قفلت فمي.

- حاسب يا ضنايا! الشيخ سره باتع!

نصل إلى مشارف البلدة، نقترب من الحواري الضيقة.

أولاد يلعبون حفاة الأقدام. نسوة على عتبات البيوت الواطئة. تلقي عمتي عليهنَّ السلام فيسارعن بالرد الحنون. يتأملنها مليًّا فهن موقنات أنها غريبة، بل يكدن يجزمن أنها في الطريق إلى مقام الشيخ.

نخطو برفق إلى حيث الضريح المقصود وهي لا تنفكُّ تقرأ الأوراد وتدعو الله لنا بالنجاح لنجيء كل عام، وتكنس حصير المقام بمقشة تأخذها من وراء الباب الخشبي الأخضر الثقيل. تضع بعض ما تيسَّر من النقود في الصندوق. تقول وهي تخطو بنا لنخرج، ووجهها إلى الوراء:

- راجعين السنة الجاية بإذن الله، لما ينجحوا، خد بالك! لما ينجحوا، كل سنة نزورك.

وتلوح بيديها المعروقتين وتشرق بالدموع عيناها.

ولا تكتمل الرحلة إلا بالحكاية...فأنصتوا غَفَرَ الله لكم فعمتي ستحكي إحدى قصصها....

ركب جماعة من الناس سفينة من السفن التي تشقُّ عباب البحر، والبحر غالبًا ما يثور، والريح غالبًا ما تغدر. هبت الريح عاصفةً فزلزلت الركاب، وجعلت قلوبهم تنزل إلى أقدامهم، وجعلوا يتضرعون إلى الله أن ينقذهم كما أنقذ نبي الله يونس الذي كان من المسبحين. وعاهدوا الله أن يوفّي كلٌّ منهم بنذر نذره خصيصى بهذه

المناسبة. إلا واحدًا منهم لم يقدم نذرًا. كان صامتًا لا يتكلم إلا بدمع عينه فقط. قالوا له: "يا هذا، أما ترانا ندعو الله ونقدم النذور؟ فلماذا لا تفعل مثلنا؟".

لم يرد عليهم.

قالوا سنلقيك في البحر لأنك لا تدعو الله مثلنا.

قال: "علمه بحالي يغني عن سؤالي".

من صاحب هذه العبارة يا حبايبي؟

نقول: "أول من جهر بها سيدنا إبراهيم الخليل".

- تمام.

قالها الرجل فقالوا: "قدم نذرًا والتزم الوفاء".

فقال: "أنا متجرد من الدنيا فلا نذر لي".

هاجوا وماجوا ثم توعدوا:

- إنك سترهقنا وتتعبنا وتكون سبب ضياعنا في البحر فتأكلنا الحيتان.

رفع الرجل الطيب وجهه إلى السماء مناجيًا ربه:

- يا رب، إن خلصتني مما أنا فيه لن آكل لحم الفيل.

اندهشنا من هذا النذر العجيب، فقالت عمتي: هذا الرجل وليٌّ من أولياء الله الصالحين، وكلامهم جميعًا هكذا، غريب وعجيب.

- أكملي يا عمتي!

قالوا: "إنك تهزأ بنا ولا تقدر ما نحن فيه من ضياع. لحم الفيل؟ ومن ذا الذي يأكل لحم الفيل يا رجل؟"

قال: "هذا ما أجراه الله على لساني."

وتسكتُ عمتي دقيقة حتى نتمعن في القصة ونتشوق إلى تكملتها.

تسألنا: "جُعتم؟"

فنقول لها: "أكملي!"

- زيدوا النبي صلاة! كل هذا والريح تشتد. العاصفة تصمم على كسر السفينة بالاشتراك مع الموج الهادر.

خلاص، اتفق الاثنان على ذات الألواح والدثر!

الأمر لصاحب الأمر. سمعوا طقطقة الألواح التي تتكسر فانخلعت قلوبهم. انكسرت السفينة ومالت. تشبثوا ببعض أخشابها لينجوا من الغرق فحملتهم حتى ألقتهم على ساحل مجهول. كانوا متعبين منهكين. ناموا وقاموا ولم يجدوا ما يأكلون. مرَّ اليوم والذي يليه ولا يجدون ما يقتاتون به.

- سيموتون من الجوع يا عمتو!

- لهم رب اسمه الكريم.

وفي اليوم الرابع رأوا فيلا صغيرًا تائهًا عن أمه ففرحوا وقالوا رزقٌ ساقه الله إلينا لينقذنا من الموت جوعًا، فذبحوه وأشعلوا عليه النار حتى طاب لحمه وأكلوه. واحدٌ منهم فقط لم يأكل. "خذ هذه القطعة من اللحم يا رجل كي تبقى على قيد الحياة".

قال: "لقد نذرت ألا آكل لحم الفيل!"

– سبحان الله! هل كنت تعرف؟ ثم إنك مضطر ولا عليك إن فعلت.

قال: "أبدًا، لن أفعل". ثبتَ الرجل على العهد، أما هم فأكلوا وملؤوا بطونهم. وناموا. وجاءت أم الفيل تبحث عن ولدها فوجدت عظامًا تشممتها وعرفتها. التاعَتِ الفيلة الأم التياعًا لفقد ابنها وتأكدها أنه الآن في بطون كائنات مفترسة! كائنات آدمية متوحشة! اقتربت من النائمين وتشممتهم فوجدت ريح ابنها فجعلت تدوسهم حتى قتلتهم جميعًا ما عدا واحدًا لم تجد فيه رائحة ابنها.

لا بد من مكافأة هذا الرجل الذي رفض التهام الفيل الصغير!

قالت الفيلة لنفسها: سأحبه كأنه ابني!

استدارت له وحاولت أن تفهمه ليركب على ظهرها فلم يفهم، فحملته بخرطومها ووضعته على ظهرها وجعلت تجري به بأقصى سرعتها حتى أوصلته إلى مكان به طعام وشراب وأناس يأنس بهم ويسعد معهم.

- وبعدين؟

- توتة توتة خلصت الحدوتة يا حبايبي.

فنرجوها أن تحكي لنا غيرها.

لا أذكر بالضبط في أي رحلة من تلكم الرحلات السنوية تعكر وجهها مصدومة بكلامي عندما قلتُ لها عن رحلتنا للضريح وبصراحة موجعة:

- كل دي خرافات يا عمتي!

لكنها ردت بعفوية تامة: الله يسامحك.

كانت تحزن أحيانًا وحزنها كان نبيلًا.

***

وأذكر أيضًا أنها كانت تأخذنا إلى مدينة دسوق وتحكي لنا أسرار سيدي إبراهيم الدسوقي. تتفق مع صديقتها عريفة على يوم الزيارة، وكانت عريفة أرملة مات زوجها تاركًا لها طفلًا أفنت شبابها في تربيته.

- يتيم وغلبان، وقليل الحيلة، عيني عليك يا علوان!

- بكرة يكبر ويبقى عال.

- اللي تجيله مصيبة تشيله وتشيل أهله، أبو كرش، اللي راسه شمامة، قلت له خده معاك يتعلم صنعة، مش عايزين مليم أحمر. قال إيه... ياخد الولد يوقفه ساعة القيالة، في القيلولة، ويقول له لازم تملا

الكوز شمس! الولد جاني يا ضنايا دماغه سايحة. ابن المفضوحة أبو راس شمامة، رحت فرجت عليه أمة لا إله إلا الله.

- يستاهل.

ويتطرق الحديث إلى وجهة أخرى تاركًا الواد علوان وكوز الشمس. تبينت (طشاشَ) كلام عن ذلك الذي يقيم في دسوق ويدعى وزة.

سمعت الاسم يتردد مرات بين الفم والأذن وهما في الكرسي المزدوج الذي أمامنا في الأتوبيس. لكني أعرف عريفة أم علوان ولم أسمع بزواجها بهذا الرجل من قبل. أخبرتني عمتي بعد أن وصلنا وألححتُ عليها ونحن جلوس على مصطبة رخامية قريبًا من المقام الإبراهيمي، أن ذلك القهوجي الذي يضع ملاءة مقلمة على صدره وبطنه هو وزة.

- لا يحضر إليها أبدًا؟

- هي التي تحضر إليه كلما أوحشها.

أتجاهل إجابتها وأعاودها بالسؤال: "ألا يجيء إليها أبدًا؟"

بعد إلحاح تسرَّ إليَّ وكأنني كبير: "يأتي".

- كيف؟

- تبص تلاقيه داخل عليها وهي وحدها.

أتوقف عن ملاحقتها بالأسئلة فتفيض: "يدخل عليها من الشباك أو من فوق السطح أو من شق في الجدار! يجيء إليها طائرًا، أليس اسمه وزة؟ الله أعلم بأسرارهما".

فهمت الآن سر عدم قدوم علوان معنا في تلك الرحلات.

أتطلع إلى أمه عريفة وهي جالسة على كرسي جانبي في مدخل قهوة صغيرة، وأرى إحدى النسوة الشابات تحضر لها سندوتش فول أو فلافل، فتهمس لي عمتي: "تلك امرأته التي تعيش معه، ضرتها!"

وتشدُّني من يدي وهي تفرد ظهرها لتقوم قائلة وهي تسوق إخوتي أمامها: "تعالوا نقرأ الفاتحة لولي الله".

نسيت أن أقول لكم إننا ونحن ننزل من الأتوبيس كانت عمتي تمسك يد أخي سعيد ولا تفلتها عندما حاول رجلٌ شهم أن يساعدَها ويحمله عنها لينزله إلى الأرض. ظنت المسكينة أنه سيخطفه، وصار الناس يتفرجون عليه وعمتي وصديقتها عريفة تفضحانه على الملأ.

***

وكان الصحن في شمالي والقرش في يميني ذاهبًا إلى منزل الخالة جواهر لشراء المدمس، وقصتها لا تبرح خيالي مشهدًا بعد مشهدٍ أتخيلها، عندما لمحت في الوسعاية أمام المسجد من ناحية، والدوار من الناحية الأخرى، حشدًا من الناس رانَ عليهم سكوتٌ موحش.

ولمحت عربة سوداء قابعة أمام الدوار وأنا أحاول التسلل من بين الفُرَج حتى أتبين الأمر فهالني أن خشب الأرضية منزوع من مكانه، وكومة كبيرة من أشياء منزلية ملقاة في بؤس تكاد تسد الطريق. "يا حول الله يا ربي!"، هذا ما تتلفظ به كل الشفاه، وأسمع همسًا متقطعًا يمكن تجميعه: "العربة السوداء هنا من قبل الفجر، نزلوا وانقضوا على أهل الدار كالصاعقة، لم يتركوا شيئًا على حاله. كسروا، نزعوا، أفسدوا، قبضوا على الأخ وأخيه، هما الآن في البوكس مكبلين. ما زالوا يبحثون عن دليل اتهام. سلاح مثلا أو شيء من هذا القبيل".

- وإذا لم يجدوا؟

- وهل يعجزهم شيء؟

وكان للأخوين أخٌ ثالث، فيتيشي! مغرم بالتقاط توافه الأشياء من على الأرض في الطرقات والحواري، فمن يد ملعقة مكسورة، صدئة، إلى أعواد كبريت مطفأة، إلى أعقاب سجائر أو شريط كبسولات دواء فارغ. يجمع هذه الأشياء وغيرها كثير في ذيل جلبابه، فتظهر ساقاه العجفاوان ونعله الذي غالبًا ما تتنافر فردتاه، ويجلب أشياءه تلك إلى المنزل كأنما عثر على كنز لا يقدر بثمن.

وعندما لمحه الناس قادمًا أشفقوا عليه، وأرادوا أن يبعدوه عن طريق العودة إلى الدوار، لكنهم لم يفلحوا لأنه ظن أنهم طامعون في الكنز الذي في حجره فثار عليهم.

أخيرًا تمكن الفيتيشي من اجتياز الحشد، ودخل المنطقة الفارغة بين الناس والمنزل. اقترب من العربة السوداء وراح يتحسسها برفق. اتسعت ابتسامته وكاد لُعابه يسيل على صدره. توقَّف عند المرآة الصغيرة الخارجية وحرَّكها بانسجام تام ويده ترفع ذيل جلبابه الغاص بالكنوز. لمحه أحدهم فاقترب منه بوجه كظيم. تطوع البعض وراحوا يفهمونه أن هذا شقيق للمعتقلين لكنه من أهل الله، لا يدرك شيئًا ولا يعي أي شيء.

- اذهبوا بعيدًا!

يتراجعون أمتارًا. وأول لطمة على وجه الفتيشي ألقته على الأرض مع عواء مكتوم. تبعثر ما في ثوبه من أشياء، تمالك نفسه ويده مكان اللطمة. حاول النهوض فاختل توازنه، أقعى على مؤخرته وفرد ذيل ثوبه وراح يجمع حاجياته المبعثرة.

ركلةٌ في مؤخرته مسحت وجهه بتراب الشارع. أنفه كثمرةِ طماطم مهروسة. اقترب منه أحدهم وبحركة رياضية سحبه من رجله باتجاه الدوار. رآه يقاوم فرفصه في جنبه واستمر يسحله، ويرتفع الغبار!

الناس هلعون لا يجرؤون على فعل شيء، ليسوا في قدرة الحكومة.

حملتُ صورَ المسكين في عيني وقلبي وهُرعت إلى جواهر. الصحن في يساري يرتعد والقرش في يميني يكاد يضيع.

فوجئَتْ بدموعي تجري على خدي فراحت تسألني:

- ما لك؟ أبوك ضربك؟

***

وعندما نسمع من الإذاعة، وبعد الاحتفال المهيب، أن رؤية هلال شهر الصوم قد ثبتت، وأن غدًا أول الأيام (المفترجة)، نفرح فرحتين: الأولى بالشهر الكريم، والثانية بقدوم عمتي لتقيم معنا طيلة هذا الشهر حيث نتسحر معا وتجمعنا مائدة الإفطار معًا. تتهلل الوجوه بالبِشر، ويسارع الناس إلى محلات البقالة لشراء لوازم السحور. الليلة لن ننام قبل أن نتسحر. يقصد أبي السوق لإحضار الطلبات بينما نسارع نحن بتكليف منه إلى بيت العمة التي نجدها متهيئة تمامًا للرحلة السنوية إلى بيتنا، وعامرة بالانتظار.

وإن كانت قدماها تؤلمانها فإن الحيوية تدبُّ في روحها ونتذكر:" يا رجليه مدي شويه" فنغنيها لها. تزداد حماستها المقطوعة. تتخير ونحن في الطريق عتبة بيت تكون نظيفة لتستريح عليها دقائق.

تظل معنا طوال الشهر الكريم تؤنسنا صحبتها، وكل مساء بعد الفطور نفتح الراديو على "ألف ليلة وليلة" التي تنتظرها عمتي وأمي كل ليلة، فيعلن عنها المذيع بعد بدء الفطور بدقائق. ينتبهان انتباهة عظيمة ويبدأ الناي السحريُّ في عزف المقدمة الموسيقية المأخوذة من "شهرزاد" لكورساكوف، وتحذرنا أمي من الكلام أو الحركة في أثناء التمثيلية التي تبدؤها زوزو نبيل بصوتها الفخيم القاطع متوغلة بالسامعين في عوالم سحرية فتهمس أمي: "انظروا إلى صوتها العفيِّ في

البدء" فترد عمتي متعجلة قبل انبلاج الدراما: "وفي الآخر تتثاءب كأنها ستموت! بس هس! اسمعوا!".

وينفتح العالم السحري على مغاليقه السرِّية دقائقَ معدودات قبل أن تعود زوزو نبيل في جملة أو جملتين وأمي وعمتي تترقبان تثاؤبها النهائيّ: "هب هب آه! يخرب بيت الشيطان حرام عليكِ يا قاسية!". وتسألني أمي وعمتي معًا عن موعد برنامج "ساعة لقلبك" حيث تضحكان من القلب على فؤاد المهندس وعبد المنعم مدبولي وأبو لمعة والخواجا بيجو وخيرية أحمد التي تنادي زوجها بإصرار كاريكاتوري بينما هو منهمك في أعماله: "محمووووود!". مراتٍ ومراتٍ فيتعصب عليها ويكاد ينفجر كقنبلة ونداءاتها تتكرر دون انقطاع: "محمووووود! بتعمل إيه يا حبيبي؟!"

أجري لألحق صلاة العشاء في الجامع البحري فأجد أحيانًا الشيخ سيد محفوظ يلقي درسًا، وأحيانًا أجد عمي الحاج أحمد فأنضمُّ للسامعين.

تتكرر رحلة العودة السنوية مع رؤية هلال العيد حيث تودعنا عمتي. نصحبها حتى نوصلها إلى بيتها الذي لم تدخله منذ شهر فتقف على عتبته وتقرأ: قل أعوذ برب الفلق مرات قبل أن تطأ ثراه بقدمها صائحة: "دستور يا أسيادي!

تصرُّ أن يطلع فجر العيد عليها وهي في بيتها الذي تحنُّ إليه حنين المهاجر إلى وطنه البعيد.

وعلى جسر النيل، إن كنتَ قادمًا في قارب من الضفة الأخرى، سترى مقام سيدي شميل منتصبًا تحت الشمس، راسخًا متينًا، لكنه غارقٌ في وحشة الإهمال: لا ذكرى سنوية، ولا صندوق نذور يُعتد به، ولا أساطير تنسج حوله، ولا كرامات تظهر من ناحيته، ولا منام يزور فيه أحدًا ويخبره بشيء خبيء. إلى جواره محلات الفسيخ والسردين المملح، وحلقة السمك...

وهناك أمام الوسعاية ما كان يسمى بالخمارة! الخواجا اليوناني يبيع الروم والزبيب والبيرة والكينا الحديدية. لا أحد يسكر هنا ولا أحد يعربد. المحل لبيع هذه المشروبات فقط. وذات يوم فوجئت بأبي وقد ضربه مغصٌ حادٌّ جعل وجهه يضطرم نارًا، وعينيه تطقان شرارًا، أشار إلى أمي فجاءت بزجاجة فارغة وقال: "اذهب إلى الخواجا أنطوان وأعطه هذا الشلن وقل له: "زبيب"! آه يا بطني!"

تعجبت يومها لأن الزبيب الذي أسمع عنه لا يُباع في زجاجات. طلعت أجري. لم تكن هذه المرة الأولى التي يجأر فيها أبي من معاناته المغص، لكنها المرة الأولى التي يتداوى فيها بهذا الشيء بناءً على وصفة من مستشاره الطبي. نوعٌ من مغص البطن عجيبٌ كان يهاجم أبي فيظل ينفخ في راحة يده متألمًا، ويمتقع وجهه، ويظل حينًا بعد حين (مزرودًا) يقذف كراتٍ من الغازات من فمه، ويده يضغط بها على بطنه. تقوم أمي بإشعال وابور الجاز، ووضع الردة في الطاسة لتسخينها، ثم تلفها في قماشة فيضعها على بطنه ويضغط عليها، وهو يتلوى من الألم. وقد يبرأ،

أمـا عنـدما تطـول المعانـاة يفـرط أبي في الـشلن الثمـين، ويرسـلني إلى الخواجة أنطوان بالزجاجة الفارغة فأعود بها ممتلئة حتى ثلثيها، ويلفهـا لي الخواجة بورقة جرنان قديم للتمويه.

أنطلقُ كالحمامة لاهثًا، والحمام لا يلهث، حتـى أدخـل بهـا عـلى أبي الذي يعاني أشد المعاناة فيختطفها مني وينزع سدادتها الفلـين، ويرفعهـا إلى فمه فتلسعنا رائحتها الحادة، فأتعجب كيف يطيقها. ينتهي منها دفعة واحدة، أو دفعتين، فتنطلق غازاتٌ لا حصر لها من فمه، ويرتاااااح!

كان هذا المغص يطـارده ثـلاث مـرات أو أربـع في الأسـبوع، ولا يعرف حلًّا لهذه المعضلة سوى هذا المسكن.

في جلسات الصفاء أسمع أمي تسأله:

- لماذا لا تعرض نفسك على طبيب يا كومي؟

فيؤكد لها أن مَن يذهب إلى الدكاترة تزداد متاعبه، وتتفتق أمراضه، يفتح على نفسه أبواب جهنم، يدخل في متاهات، ولا علاج!

- لن يقدر أحدُهم على معالجتك؟

- الشافي هو الله.

ويؤكد لها أن أي طبيب في العالم لن يستطيع تعرُّف حالته تلك:

- أنا أمراضي عجيبة لا يصلح معها سوى تذكرة داود.

- وهل هذا المخروب الذي تشربه في تذكرة داود؟

- قومي من قدامي!

ويقذف أي شيء يجده أمامه في الهواء.

نادرًا ما تحدث بينهما مشاحنات، ومتى حدثت فإنها سريعًا ما تتلاشى ولا تترك أثرًا يُذكر. الحجرة الوحيدة الكبيرة في بيتنا تغمرها أنفاسنا في الليالي الشتوية فلا نحس بالبرد. تُحمِّص أمي الفولَ السوداني على نار الوابور فهو فاكهة السهرات. مراتٍ تعَدُّ على أصابع اليد الواحدة اشترى أبي "أبو فروة" الذي حين لسعته النار تفتقت رائحته المميزة ودخلت صدورنا، وتذوقنا نكهته. ربما كان ذلك أيامَ الوحدة بين مصر وسوريا. صرت فيما بعد كلما قرأت أشعار محمود درويش ولمحت كلمة "كستناء" تهبُّ على صدري الأنسام الدافئة لتلك الليالي ودندنات أبي بالأشعار القديمة. ولا أذكر في أي ليلة من تلك الليالي كنا والراديو يصهلل بالأغاني عندما توقف البث فجأة فانتبهنا على أبي يفرد كفيه في وجوهنا بمعنى: اصمتوا!

فصمتنا.

وقال المذيع: أيها المواطنون جاءنا البيان التالي من الأرصاد الفلكية داخليًّا ودوليًّا: يقترب أحدُ النجوم أو المذنبات الضخمة من الأرض بسرعة مذهلة ومن المحتمل أن يرتطم بها في غضون ساعات قلائل.

- يا منجي يا رب!

بل من شبه المؤكد أنه سيرتطم بهـا. أيهـا المواطنـون، فليأخـذ كـل منكم حذره...

صرخ أبي: يعني إيه؟ نهرب على كوكب تاني يا غبي؟ لا رادَّ لقضاء الله. اللهم أحسِن خاتمتنا.

- يعني حنموت النهارده؟

- هسسسسس! سكوت!

أيها المواطنون، الخطر محدق! لم يبق إلا ساعة أو بعض الساعة! أيها المواطنون، أرى من النافذة برج القاهرة يترنح! أيها الـ...

- يعني إيه الكلام ده يا با؟

- يعني القيامة هتقوم النهارده، سينفخ في الصور حالا! لكل أجل كتاب. صدق الله العظيييييمممم!

فزعين، أحدقت جميع العيـون بـأبي الـذي نهـض واقفًـا فأمـسكنا بجلبابه. أمي قالت: لا يعلم الغيب إلا الله. لكـن أبي قـال لهـا: إن بـرج القاهرة يترنح! لا أدري مَن مِنا نحن الأطفال هو الـذي بكـى بـصوت مسموع، لكن أبي قام ليغادر الحجرة.

- رايح فين وسايبنا؟

- افتكرت الخروف اللي مربيينـه في وسـط الـدار. المـسكين رجلـه مربوطة بحبل. سيبوني أفكه!

- تفكه ليه؟

- عشان يعرف يجري لما تحصل الكارثة!

- يا با الكرة الأرضية كلها هتتدمر يبقى الخروف يجري على فين؟

- خايف يا بني ربنا يسألني عنه بصفتي راعي ومسئول عن رعيته أقول لربنا إيه؟

وامتدت يده فجأة إلى مؤشر الراديو فإذا ببقية المحطات تضجُّ بالأغاني والأحاديث والموسيقى، فانطلق أبي إلى وسط الدار فرأى السماء الصافية فعاد إلى الراديو ومحطة القاهرة فوجدهم يضحكون قائلين إنها كانت مزحة وأن الأرض بخير، فانهال بالشتائم والسباب والحمد لله أنه لم يكسر الراديو.

***

تندلع حرب ٥٦، ويغادر الأجانب المقيمون في بلدنا، فيرجع اليونانيون إلى بلادهم فيمن غادروا، ومنهم الخواجا أنطوان الذي أغلق ما كنا نسميه الخمارة بقفلين وراح ولم يعد.

ويظل أبي في معاناته من المغص اللعين الذي يفاجئه أحيانًا وهو يتمشى على الجسر في ساعة العصاري فيهرول عائدًا إلى البيت ينفخ كقطار من قطارات زمان، فتسارع أمي بإعداد الردة السخنة، وذات يوم كانت اضطرت أن تستخدمها في شي السمك ونسيت أن تشتري غيرها وفوجئت به يعود من مشواره مُثقلًا بالألم ينفخ كالمرجل ووجهه

مكظـوم مـن شـدة الألم ويـده تـضغط عـلى جنبـه، فـصكت صـدرها وصاحت:

- يا مصيبتي! ليس عندنا ردة!

فأشار إلى كومة رمل في الشارع وكان أحد جيراننا يبني جدارًا...

وراح يفـحُّ لي مـن بـين أسـنانه المطبقـة مـن الألم: "امـلأ الكـوز بالرمل".

في أي سنة دراسية تباعدت فترات إصابة أبي المسكين بهذا المغص؟

لعله شفي بعد غلق الخـمارة بعـامين أو ثلاثـة، لكـن المغـص كـان يعاوده متقطعًا فيصرخ من المعاناة، بل أكاد أقول إنه لم يَنْسَه بتاتًا!

وإلا لماذا لم ألتحـق بالقـسم العلمـي في تعليمـي الثـانوي؟ لمـاذا لم أطمح في الالتحاق بكلية الطب مـستقبلًا؟ اسـتحييت أن أكـون طبيبًـا وأبي مريض وأعجز عن فعل شيء له! أمَا قال أمامي أكثـر مـن مـرة إن داءه لا ينجح طبيب في إبرائه منـه؟ سـتكون تلـك كارثـة عنـدما يغمـز الناس ويلمزون قائلين إن الطبيب لم يفلح في تطبيب والـده، فـما بـالكم بالأغراب؟!

دار هذا في خلدي ونام في عقلي الباطن وعللت لنفـسي سـببًا آخـر جاء في المرتبة الثانية:

- منظري ليس منظر طبيب! فالأطباء أكثر وسامة مني!

ويجيء المهَجَّرون...

فرضت عليهم الحربُ ترك ديارهم فهجروها إلى قرى بعيدة آمنة ليحلوا ضيوفًا على أقارب لهم ولو من بعيد. ولأن منزلنا ضيق، حجرة وصالة وحوش في حجم حجرتين، فقد رأى أقارب لنا نزلوا بلدتنا ألا يثقلوا علينا.

سيتركون عندنا ثلاث مراتب سرير لا مكان لها في المنزل الذي سينزلون فيه، وأيضًا بعض الأثاث. فقط. قامت أمي بكنس الحوش وتنظيفه وفرشت كليمًا قديمًا على أرضيته، وضعوا عليه المراتب ملفوفة ومربوطة بحبال، وإلى جوارها وفوقها تكدس الأثاث الخشبي.

وكانت أمي على ما أذكر قد حاولت الاعتراض محذرة أصحاب المراتب من أن الفئران قد تفترس القماش وتُعشش في القطن:

- ليس عندكم فكرة عن فئران الريف، الواحد في حجم أرنب!

سمعت امرأة ترد عليها:

- سنبحث لهم عن قط يعلمهم الأدب.

والله ما حد يعرف مين اللي يعلم التاني!

وتقول أمي لأبي: "المراتب صعبانة عليّ يا كومي! مرمية في الحوش. لماذا لا نضع إحداها فوق مرتبة سريرنا ينام عليها الأولاد ونفرش واحدة على الحصير لنا أنا وأنت بدلا من أن يعلِّم الحصير في جلدنا؟" فيحتد عليها: "هذه أمانة ولا يمكننا العبث بها".

- لكننا بذلك نصونها من التلف والفئران.

- ألم تسمعيها وهي تتحدث عن استجلاب قط؟ هم أحرار في ممتلكاتهم.

ويهزُّ رأسه متضايقًا من حوار لا طائل من ورائه قبل أن يصدر الفرمان: "ستبقى المراتب مطرح ما حطوها!"

ويأتون لزيارتنا فأجد أبي يرحب بهم كأنما يتودد إليهم. محبة زائدة.

وكان من بينهم مَن يدعى عبد المجيد. أذكرُه في بالطو كاكي كالمخبرين، دماغه كبير مستدير وابتسامته دائمة. يلقي بالنكتة بعد النكتة ضاربًا فخذيه كلما ضحك، صائحًا في أبي: "اضحك يا خال!"

فيضحك أبي.

بل نضحك كلنا سواء فهمنا النكتة أو لم نفهم. وكان (يفشر وكأنه أبو لمعة مع الخواجا بيجو في الراديو)، ويدعي أنه يعرف جمال عبد الناصر معرفة شخصية، ويؤكد أن ريسنا سينتصر على أعدائه ببركة دعاء الوالدين، وأنه شخصيًّا استدعاه عندما كان يعيد تنجيد مراتب الأَسِرَّة والكنب قبل رمضان الماضي وقال له: "فتح عينك يا عبد المجيد على الصنايعية فلا يأكلوا القطن!"

وتدوي الضحكات في منزلنا المحروم من الضحك، ويكمل: "رغم ذلك غضب عبد الناصر على المنجدين فحلف بالطلاق أن يستورد مراتب إسفنجية من تشيكوسلوفاكيا، ويعطل عليهم ويوقف حالهم!"

وتخيلت بخيالي الطفوليّ الإسفنج الـذي كنـا نعرفـه قطعًـا صـغيرة كيف يتم تجميعها في أكياس لتعبأ في مراتب وتعجبت لذلك وأبو لمعة ما يزال يحكي ولم أرَ أبي يضحك كما رأيته يفعل في تلك الأيام.

بين الفينة والفينة يصيح: "الله يجازي شيطانك يا عبد المجيد!"

فيرد عليه: "ربنا يعطيك الصحة يا خال، اضحك يا خال واضرب الدنيا صرمة!".

***

وفوجئت بأناس غرباء عن البلدة يجوبون الشوارع ويتسكعون على النيل. كل من له أقارب في مدن القناة أتوا إليه. لمحـت فتيـات جمـيلات يخطـرن في الـدروب الترابيـة، يرتـدين ثيابًـا قـصيرة غـير مألوفـة لنـا، ويضحكن بعفوية. وفي إحدى الحارات فوجئت بيد تمتد إلى صدرٍ ناهـدٍ وتمسك بالثمرة البارزة على نغمات ضحكة رنانة مفعمة ببواكير الأنوثة. وقفت مشدوها عندما لمحت الولد!

كان زميلًا لي في الفصل والفرحة تغمر وجهـه وكأنـه طـال القمـر وأنزله من عليائه. سمعته يناديني: "تعال امسك!"

فارتعدتُ!

***

أما الوجه الأكثر جمالًا فتعرفتُ إليه بعد ذلك، وكان لصبية قاهريَّـة نزلت تزور أقاربها وتقضي عندهم أيامًا أو أسابيع، هي وأمها.

انقلب الشارع رأسًا على عقب فبرزت النسوة مشدوهات يرقبن هذا اللون من الجمال، بينما سال لعاب الرجال، أما الشبان الصغار فقد أشعل الغرام في أفئدتهم الصغيرة المتفتحة حديثا.

كان اسمها لوزة.

- هل رأيت لوزة؟ فاتك نصف عمرك إن لم تكن رأيتها!

وحيكت عنها الأساطير! وقالوا إنها ذهبت إلى سوريا وعادت، وركبت الطائرة مرتين، فشط بنا الخيال وركبنا الجو معها.

وتفسير ذلك أنها كانت تخدم في القاهرة بعضَ ضباط الجيش غير المتزوجين، وعندما انتقلوا للعمل في الإقليم الشمالي الذي كان اسمه سوريا أخذوها معهم لتخدمهم هناك.

وتأسفنا على الجمال الخادم!

وأكدنا لأنفسنا: "كيف يطيقون هجرها؟ كيف يتركونها ويذهبون دونها؟ لا بد من أن يأخذوها معهم!"

ولا ندري السر في كونهم تركوها بعد ذلك لتأتي إلى هنا، لكننا علمنا أنها تعيش الآن في منزل زيزو الأسمر، الكواء.

عجيبة؟! الأعجب سيأتي!

فأخيرًا دوت القنبلة. أكثر حدة وشراسة من القنابل التي أصابت مدن القناة: تم عقد قران لوزة على زيزو! وبعد يومين اختفت البنت الحلوة من شوارع البلدة فلم يعد يراها أحد.

وظل الشبان يحومون في الطرقات علَّهم يصادفونها، ويتجولون بالقرب من بيت زيزو عسى تهب عليهم نسائمها. أين اختفت لوزة؟

لكنهم علموا أن أمها أخذتها وعادت بها إلى القاهرة.

وتأكدت أن أحداثا كونية هائلة تقع دون أن يدرك عقلي الصغير لها تفسيرًا.

ومرّ عام على هذه الواقعة ولا أحد ينسى لوزة حتى فوجئت بها عندنا في البيت، في ليلة صيفية. هي والله في بيتنا، في الصالة!

ها هو عطرها الذي ميزها في تلك اللحظة يطاردني بعد كل هذه السنين.

وشهقت أمي: حرام!

وصاح فيها أبي: "اعملي لنا الشاي!"

وجيء بـ زيزو الأسمر مصحوبًا بأخيه الكبير الحاج مرسال، وكانت أم لوزة متربعة على شلتة بحجم عجيزتها فلم تنهض عندما نهض الجميع لمصافحة المأذون الذي قال إن أبغض الحلال عند الله الطلاق، محاولًا إثناء الطرفين عما ينتويان فعله.

وأذكر أن زيزو احتبس صوته مرات فلم تخرج من فمه كلمة الطلاق إلا بالعافية وقد أجهش بالبكاء، بينما نكست هي وجهها السماوي مخفية دموعها بمنديل قماش مطرز. وبعد أن خرج زيزو وأخوه

منكسي الرأس لمحت أم لوزة تقبل ظاهر يدها وتتمتم: "أحمدك يا رب". ويهيأ إليَّ أن بوادر فرحة سريَّة رفرفت على شفتي الفتاة وتقاطيع وجهها الجميل بعد لحظات.

ولم أفهم شيئًا في ذلك الزمن. لكني كنت فخورًا بكون لوزة في بيتنا نحن دون سوانا من الناس. يمكنني رؤيتها رأي العين. تمنيت لو جاء أصدقائي ومعارفي ولمسوا ما أنا فيه من الهناء، لكني إن حاولت محادثتها هي بكلمات انحبسَ صوتي.

وراح الوجه السماوي يطاردني وأنا ذاهب لأشتري المكرونة إكرامًا للضيفتين، بينما لم تنتظر أمي أن تضع الدجاجة الراقدة بيضتها، بل أمسكتها وذبحتها وأخرجت مجموعة من البيض الأصفر الصغير من داخلها.

***

عند أبي ثلاثة بنطلونات، جميعها من الصوف الإنجليزي الثقيل، وقميصان أو ثلاثة، وحمالة ترفع البنطلون لا غنى له عنها لأن أبي كان نحيلًا جدًّا فإذا لم يستخدمها انزلق بنطاله وتبقى كارثة.

لا يظهر من البنطلون سوى الجزء السفلي الذي يعلو الحذاء لأن أبي يستخدم بالطو أبيض طوال العام، كالذي يستخدمه الأطباء والباحثون في المعامل، أما القميص فلا يظهر منه شيء.

من المؤكد أن أبي كان الوحيد في بلدنا الذي يخرج من بيته إلى مقر عمله بالبالطو الأبيض. أمي سألته مرة أن يستبدل به بالطو سمنيًّا أو كاكيًّا فقال لها: "أعوذ بالله، تريدينني مثل المخبرين؟"

يعود مُنهكًا، هكذا يُخيَّل إليَّ، من العمل كل يوم، لأن أمي تضع لقدميه وعاء به الماء والملح يرتاحان فيه، وتكون قد أعدت لنا الغداء، وأيضًا جهزت بعض الشكوى منا بسبب مشاغباتنا حتمًا ستحكيها لأبي بعد الغداء. فلان ضرب فلانة، فلانة شتمت فلان، وأحيانًا تلاحظ أن بوزه مقلوب فلا تستطيع أن تشكونا إليه. وأذكر أنني كنتُ في الصف الأول الثانوي في تلك الفترة، ومن ثم فأختي عزيزة في الثاني الإعدادي، وسعيد في السادس الابتدائي. إذن زينب في الرابع بينما أحمد في الثاني، ونفيسة تتأهب لدخول المدرسة أما آخر العنقود محمود فلم يكن قد جاء إلى الدنيا بعد.

كانت بعض الشكاوى من جانب المدرسين قد جاءت في حق أخي سعيد الذي أجمع الجميع على أنه ضعيف في كل المواد الدراسية.

وأراد أبي أن يقوم بمجهود مضاعف معه لكن الصبر نفد فكان يثور عليه ويضربه، وأحيانًا يقلب الطبلية بما عليها من كراسات وكتب...

– قم يا بن الكلب من قدامي! مفيش فايدة فيك!

ووعدنا أبي إن نجح أخونا سعيد أن نذبح ذكر البط ليتربع محمَّرًا فوق صينية المكرونة متوجًا وجبة شهية، لكن أخي رسب بجدارة في الشهادة الابتدائية، رغم ذلك لانت أسارير أبي وهمس لأمي:

- ادبحي، واعملي لنا مكرونة على العشاء!

- أدبح الدكر؟

- لا، البطة الناشفة اللي انقطع بيضها!

كانت هذه الوجبة مرتبطة ارتباطًا مقدسًا في أذهاننا بالنجاح؛ حيث كانت صينية المكرونة وعليها الفرخة أو البطة المشوية أو الاثنتان معًا قمة الترف الغذائي في نظرنا. تستوثق منه: "مكرونة يا كومي؟"

- كي لا يزعل الولد.

فتطبطب على كتف أخي سعيد تخفف عنه:

- شايف أبوك لا يريد أن يقهرك، شد حيلك وانجح السنة الجاية.

لكنه يرسب أيضًا في العام التالي. ما العمل؟ اقترح المستشار الثقافي لأبي، الأستاذ عبد العليم، أن يُلحِق أخي بفصول الاتحاد الاشتراكي.

هكذا كانت تسمى، وهي غالية حبتين، رسومها فوق طاقة ميزانيتنا، لكنهم يتركون الطلبة ينجحون حتى الصف الثالث الإعدادي، وبعد ذلك كل تلميذ وشطارته. هيصة! غش في غش!

والدراسة بعد الظهر، أي أننا نغادر المبنى المدرسي فيدخل تلاميذ الاتحاد الاشتراكي بعدنا نفس فصولنا، وأذكر أننا كنا نعاني هؤلاء التلاميذ معاناة هائلة.

كيف؟

اللوحات التي نقضي الوقت الثمين في إعدادها ثم نعلقها على الجدران حتى يأتي المفتشون ويرون ما أبدعناه، نأتي في الصباح فنجدها ممزقة فنتأكد أن الفاشلين من تلاميذ الاتحاد الاشتراكي هم من جعلها فتافيت.

الدراسة بهذه الفصول لا تسمن ولا تغني من جوع، مع ذلك فنسبة النجاح بها مرتفعة. كيف؟ لأن المدرسين يتقاضون منها أجرًا إضافيًّا ويودون استمرارها. كل من ينقل أي كلام في كراسة الإجابة ينجح.

المهم ألا يترك الأوراق فاضية. اطمئنوا!

- معقولة؟

فيؤكد المستشار لأبي أنه يعرف تلميذًا لا يفرق بين الألف وكوز الذرة ينجح كل عام. ناوله أبي القسط الأول من الرسوم ورجاه أن يدفع:

- هو كابنك يا أخي، أنا خلاص زهقت!

نرجع من المدرسة فيكون أخي سعيد قد حمل مخلاته وخرج إلى المدرسة. تقول عمتي إنها رأته يشيل الطوب مع البنائين في الشارع المجاور لبيتها. كانت لحظتها تشتري شيئًا من دكانة عم بهنسي وشافته يحمل قوالب الطوب على كتفه.

شهقت أمي: "الآن وجدت تفسيرًا لتمزق القميص قرب الياقة".

وعلمنا أنه وهو ذاهب إلى المدرسة إن رأى أحدًا يبني منزلا أو جدارًا يضع كتبه جانبًا ويساعد البنائين في نقل الطوب.

صاروا يعرفونه وينادونه: "بركاتك يا شيخ سعيد!"

وجاء إلى البيت بقطة مريضة، وصار يحضر لها اللبن في ملعقة ويظل أمامها وهي تلعق وهو يحنو عليها كأنما يقوم بإرضاعها من ثديه. لكنها لم تتمالك عافيتها رغم مرور أسبوع على ذلك.

وأحس بها تحتضر فلم ينم ثلاث ليالٍ بطولها يقرأ لها القرآن ويدعو الله أن ينقذها من محنتها، ويبتهل إليه أن يغفر لها إن كانت اقترفت ذنبًا أو إثمًا وخربشت أحدًا دون قصد. وتسيل دموعه ساخنة على خده. وعندما ماتت القطة ظل يومين لا يأكل رغم محاولاتنا الدائبة للتسرية عنه.

وحان موعد الامتحان، وقيل له انقل السؤال في ورقة الإجابة دون زيادة إن لم تعرف كيف تجيب عنه وستنجح. لكنه ظل طوال فترة الامتحان يحدق إلى زملائه الذين يغشون من بعضهم البعض دون

خجل من المراقبين، بل الذي أدهشه أكثر أن أحد هؤلاء المراقبين أحضر له ورقة بها بعض الإجابات قائلًا له: "والدك كان أستاذي، سلم لي عليه!" فأزاحها برفق وابتسامته تملأ وجهه:

- من غشنا فليس منا.

- ماذا تقول يا فالح؟

وظهرت النتيجة وحزن أبي حزنًا شديدًا لأن أخي سعيد كان من الراسبين ولا أمل في أن يكمل دراسته.

وسألته أمي: "أأنت أشد بلادة من فلان وفلان؟"

فقال ببساطة شديدة: "هؤلاء يغشون وأنا لا أغش!"

- يا فرحتي بك!

ثم بعد أن هدأت قليلا: "لعله خير. نشوف لك حرفة تتعلمها".

وأصابه المرض. دوسنتاريا حادة. لم نكن نعلم لها اسمًا في حينه. ولم نكن في يوم من الأيام ممن يسارعون إلى الأطباء. واقترح الذي صنع لي الحقيبة الخشب:

- الشيح يا عم الشيخ ولا شيء غير الشيح. نغليه، وعندما يبرد نسقيه منه كوبًا كبيرًا ثلاث مرات في اليوم.

ويظل أخي ينزف الدم من الخلف كلما تبرز. نقطة حمراء كبيرة ثم نقطتين ثلاثا...وتقول أمي وهي ترجوه ليشرب الشيح المغلي بينما هو متأفِّفٌ منه، بالغ الاشمئزاز: "اصبر يا سعيد، غدًا ستشفى بإذن الله".

ويزورنا المستشار الطبي، النجار الألمعي، ويؤكد لأبي: "لا تقلق، المسألة مسألة وقت وسيبرأ بإذن مولاه".

وبعد معاناة طويلة، وشحوب شديد، وضعف وهزال، وبعد أن يكون أبي قد اقتصد مبلغًا من ميزانية البيت ليتصدق به كعادته كلما مرض أحدنا، استرد أخي عافيته شيئًا فشيئًا فحمد الله أبي كثيرًا، وصرخ في وجه أمي التي سألته: "أما كان الأجدر بنا أن نعرضه على طبيب؟"

– الآن تقولين هذا بعد أن شفاه الله؟ لماذا كنت تبلعين لسانك طيلة هذه الشهور؟ أنا لا أثق بأدوية الأجزخانات؛ كلها لا تخلو من الأعراض الجانبية. تذكرة داود التي لم تسمعي بها هي الأصل.

وعندما رآها صامتة لا ترد قام وصالحها وأعطى أخي سعيد قرشًا ليشتري حلوى نبوت الخفير له ولنا.

***

وكان في عائلتنا من يطلقون عليه الشيخ أحمد الكبير.

رأيته مراتٍ يدب بعصاه الغليظة على الدروب، يهز رأسه الضخم بالتحية لأناس جالسين على قارعة الطريق فيهبون واقفين احترامًا له. لم يكن يعرفني ولذلك لم أحاول التقرب منه.

ويأتي العيد فألمحه في الجبانة يرافقه العريف زكريا، مسندًا ظهره لجذع نخلة يتلو: (هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر....) بينما رأسه الضخم مكلل بعمامته الفخمة يتأرجح يمينًا ويسارًا وبسرعة فائقة. همس لي أبي: "أتعرفه؟"

- أهو من العائلة؟

- يعتبر ابن عمي.

تركت أبي منكسًا هامته أمام مقبرتنا، كان يناجي أمه وأباه وعيناه في حِجره قبل أن يقرأ لهما (يس والقرآن الحكيم...) حتى ينتهي منها فيدلف إلى الصافات. أتسحب إلى حيث عم أحمد الكبير فأجد امرأة مكللة بالسواد تهَبُ العريفَ زكريا أقراصًا شهية تفوح منها بظَفَرٍ رائحة السمن البلديِّ يلقيها الصبي في الشوال ويلفعه على ظهره بينما عصا الشيخ الغليظة تضرب في الدروب الضيقة بين المقابر. نادته امرأة أخرى فصاح: "السلام عليكم يا أمة الله!"

وانتقَى له العريفُ مكانًا ملائمًا ليجلس فيه ويتهيأ للقراءة بينما تكبش المرأة أقراصَ الرحمة وتناولُ الصبيَّ فيضع في الشوال. يتحلب ريقي وأكادُ أقتربُ منها لأقول إن ذلك الشيخَ يُعتبر عمي لكي تعطيني ولو قرصة واحدة، لكني لم أجرؤ.

نازعتني نفسي أن أتقدَّم من الصبي وأخبره أنني ابن ابن عم الشيخ، لكني تراجعت في الوقت المناسب: من أدراني أن الصبي يعرف أبي؟

أما الشيخ أحمد الكبير فمنهمك في هز رأسه وقراءة (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين)

أعود أدراجي لأبي وأحمد الله أنه لم ينتبه لغيابي فأجده ما زال في (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) فألمح أطفالًا يجمعون البلح

(الرامخ) من تحت النخلة التي كـأنما تحـرس مقـبرة عائلتنـا. تمنيـت لـو تذوقته لكني جزعت؛ فالنخلة السامقة تلك ربما تقتات بأجساد موتانا!

قلت لأبي ونحن قافلان من المقابر:

- قريبك الشيخ أحمد الكبير هايص في القُرَص والبكاكين!

- هذا موسمه!

ثم وكأنما يحقد عليه (أؤكد عـلى "وكـأنما): "بـل مواسـمه عديـدة وممتدة! التي تريد أن تحبل تذهب إليه، والتي تتوحم تذهب إليه، والتـي تود أن يحبها زوجها ولا (يبصبص) لغيرها تذهب إليـه، والتـي لا ينـام طفلها ويسهدها تقصده، والتي ينبو رضـيعها عـن ثـديها تـذهب إليـه. يكتب لها الحجاب التمام بماء الورد وبأحرف غير منقوطة ويلفه في قماشة نظيفة من عنده ويتمتم ويدعو ولا أحد يفهم ما يقول، ويقدمه لهـا بعـد أن يأخذ ريالات الفضة فتتلقفه كأنما انفتحت لها أبـواب الـسماء. الخـير عنده كثير، القرص التي تقول عنها، فضلًا عن الـوز والـبط والأرانـب وزغاليل الحمام".

ثم توقف فجأة: "لو لم يكن اليوم هو العيد لطلبت من أمـك تخبـز لـك مثـل هـذه القـرَص. وعمومًـا ملحوقـة: عنـدك الكعـك والبسكويت...."

هززتُ رأسي مصممًا على القرَص، ولاحظ أبي ذلك فأردف:

- انتظر يومًا أو يومين!

لكنه في المساء استجاب لي: "تعال نزور عمك الشيخ!"

- أحمد الكبير؟

- على فكرة كل الناس الكبار في البلد تعلموا القرآن وجدول الضرب على يديه، وتذوقوا مقرعته! كلهم بلا استثناء!

اصطحبني في دهاليز المعيصرة الضيقة. مررنا على دكان مغلق فقال: "هذا دكانه وله غيره كثير! وهذا هو الكتاب الذي يشهد صولات الشيخ وجولاته في تحفيظ أعداد بلا حصر، يقرؤون كدوي النحل ثم يصيح من يصيح خوفًا وهلعًا من المد على الرجلين الحافيتين!"

توقف. "هذا بيت الشيخ".

نادى: "يا أهل الله!"

برزت لنا امرأة عجفاء، حدقت في وجه أبي قبل أن تصيح:

- الشيخ كومي؟ يا ألف وتلتميت مرحبا! تفضل! مين دا الِّي معاك؟ ابنك كبر يا فضيلة الشيخ!

وأدخلتنا المنظرة شبه المعتمة، ثم عادت إلينا بمصباح وكنا ما نزال واقفين فجلسنا وسألناها عن فضيلة الشيخ.

- معه ناس!

فهمنا أنه في شغل. حلف أبي عليها ألا تستعجله. لمحت كتابًا قديمًا حائل اللون فسألت أبي إن كان الشيخ ما يزال قادرًا على رؤية الحـروف وهو في هذه السن.

– ليس عنده سوى كتب عن الجن والعفاريت.

فاقشعر بدني.

– تشرب قرفة يا شيخ؟

– أشرب.

– والمحروس؟

فحاول أبي إقناعي بشرب القرفة كي لا نثقل على ربة البيت بطلب صنفين فلم أنطق.

عادت وفي يدها صينية عليها طبق كبير مليء بالقرَص والبكـاكين، وآخر به السوداني المحمص والترمس.

قلت لأبي: "اشرب أنت القرفتين ودع لي ما أشتهيه".

ولم أكد أقضم القضمة الأولى حتى دوت صرخة حادة فانكمـشت في حضن أبي الذي طمأنني: "لا تخشَ شيئا فالأمر بسيط. الـشيخ يطـرد عفريتًا من جسد امرأة مسكينة".

وعندما ظهر الشيخ وقبل أن يسلم علينا قدم لنا هذا التفسير:

– إنه بلا شك عفريت غير مسلم لأنه تلبَّس جسد المرأة يـوم عيـد الفطر.

وجدتني أتكلم: "وربما يكون مسلمًا وفعل مـا فعـل لأنهـا لم تـصم رمضان!"

– ما شاء الله! ابنك نبيه يا ابن عمي، هذه الفكرة لم تخطر ببالي.

دقت الباب ودخلت علينا طفلة تخب في جلبابهـا الطويـل، كانـت أصغر مني قليلًا، وسلمت علينا وكأنما تضربنا فنبتت ابتـسامة في وجـه أبي الذي داعبها: "ما شاء الله! أية رجولة تتمتعين بها يا رقية!"

ووجدتها تجلس إلى جانبي كقطة متحفزة، قبـل أن تطلـب منـي أن نخرج لنلعب معًا أمام الباب.

– اذهب معها!

لكني ظللتُ مكاني وكأنما التصقت بالكنبة. لم آكـل سـوى نـصف قرصة يا من لا تفهمون.

– اذهب معها، لا تنكسف!

وأمسكتني من يدي، وجذبتني إلى هواء الشارع. همست لها:

– عندكم قرَص كثير؟

ولعبنا فانضم إلينا أبناء الحارات العديدة هناك إلى أن لمحنا الـشيخ وزوجته وأبي فتيقنت أننا مغادرون الآن، وناولتني أم رقية جعبة ورقيـة غاصة بالقرَص التي خشيت لحظة ألَّا أراها ثانية.

فرق كبير بين هذه القرَص التي تصنعها الفلاحات في أفران القرى والقرَص التي تصنعها أمي ولا أدري لماذا.

ومشينا والبنت رقية من بين دموعها تستحلف أمها لتؤكد على أبي أن يسمح لي بزيارتهم للعب معها.

- لا يعرف كيف يأتي وحده إلى هنا

- يعرف يعرف!

وعندما قلت لأبي إن ابنة الشيخ تكاد تشبه الصبيان في حركاتها لم يقل سوى أنها ليست ابنته وإنما ابنة زوجته.

***

نحن الآن أيها السادة في اليوم الذي كنا انتظرناه طويلا....

اليوم الذي سيؤدي فيه الابن البكري الذي هو أنا، امتحان القبول الذي يحين في نهاية الصف السادس الابتدائي.

إذن أخي سعيد لم يزل في الثاني الابتدائي لم يرسب ولم يعرف بعد شيئًا عن فصول الاتحاد الاشتراكي، فسامحوني لأني سبقت الأحداث قليلًا.

عن بعد، في غبشة البكور، لاح لي مبنى المدرسة ضخمًا شامخًا غيرَ واضح الملامح، يفصله شارع الشهيد أحمد عبد العزيز عن الملعب الكبير الذي ستُقام عليه بعد عشرات الأعوام عشرات المنازل...

لن يكون ثمة ملعب، ولن تذكره الأجيال الجديدة.

لكن الذي استرعى انتباهي في ذلك الصباح الباكر هو الضجة!

كل هذا العدد من الأولاد والبنات يلهون ويتقافزون كأننا صبيحة أحد الأعياد، مُلئ الملعب الكبير المخطط بالجير، ومُلئ الشارع المتصل به، كل هؤلاء غارقون في صخبهم، يقذفون مساطرهم الخشبية في الهواء فتئزُّ طويلًا في العلالي قبل أن تسقط بعيدًا فيجري كل صاحب مسطرة لاستعادتها.

يد أبي تقبض على يدي الواهية ونحن نقتحم المشهد.

الصباح مبهم، مغبش بشبورة تبلل الأرضية الترابية والولد الذي يقع قد تتسخ ثيابه فيسخرون منه، وقد يضربونه بمساطرهم التي قد تنكسر عليه، ولا يزعل.

لن يخرج من ذاكرتي انفتاح المشهد أمام عيني، هائلًا، مفعمًا بالبهجة ويد أبي لا تتركني، كان ما يزال يسترجع لي بعض أبيات الشعر وقواعد اللغة ونحن في الطريق لأداء الامتحان، مؤكدًا على أهميتها، وتوقعاته التي لا تخيب، لكن المساطر التي تملأ الجو أزيزًا أدهشتني، هؤلاء الذين يتراكلون بالأقدام في بهجة أحسدهم عليها، وأولئك الذين يلطع الواحد منهم الآخر على قفاه ويهرب، كلهم سيؤدون الامتحان مثلي، لكنهم ليسوا مضغوطين...

إنهم أحرار!

قال أبي: "سيسلمون لك كراسة إجابة على غلافها ورقة صغيرة تكتب عليها اسمك واسم مدرستك اللي جيت منها، مدرسة النصر، والعام الدراسي انت عارفه، الورقة الصغيرة سينزعونها عن الكراسة بعد كتابة الرقم السري، فإياك ثم إياك تكتب اسمك أو شيء من بياناتك داخل الكراسة... اكتب على الورقة الصغيرة بس، ولا تضغط بالقلم وأنت تكتب رقم الجلوس فينطبع على كراسة الإجابة فيكون هذا بمثابة علامة مميزة وتكون العاقبة وخيمة... لا تنسَ قراءة الفاتحة قبلما تبص في ورقة الأسئلة، حطها مقلوبة على وشها وإيدك عليها واقرا الفاتحة بتمعن. اجلس في مقعدك ولا تلتفت يمين ولا شمال، وإذا سألك حد من زمايلك إجابة سؤال اوعى تلتفتله أحسن ياخذوك بجريرته وتسقطوا سوا، المراقبون أغراب ما يعرفوش حد ولا يعرفهم حد... بص! المدرسة الفخمة دي ستكون مدرستك بإذن الله من العام القادم تقضي فيها المرحلة الإعدادية ثم الثانوية. الله معك، شد حيلك!".

المساطر في السماء لها أزيزها الجميل المبهج، وأزيز تعليمات أبي الثقيل يحيط بي.

كان قد بذل جهدًا خرافيًّا في تجهيزي لهذا اليوم من أيام الله..

- لو جاب درجات أعلى من حمدي الرويني حيفرحني!

قال ذلك لأمي متمنيًا، وهي بدورها أسرَّته لي، قلت لها كأني أحدث نفسي: "كل من ينجح سيدخل الإعدادي". لكن أبي يريدني

متفوقًا على ابن الجيران الذي يواجه بابهم بابنا وندخل عندهم ويدخلون عندنا باستمرار. تمتمت مؤكدًا أن الرسالة وصلت:" حاضر يا با!"

المرة الوحيدة التي قربني منه فيها على استحياء، ليعرض عليَّ أمرًا يخشى أن أرفضَه، كانت في بداية العام الدراسي السادس ذاك، أعطاني مليمين لأشتري عسلية وربت على كتفي وابتسم عن أسنان سوَّدها الشاي والسجائر الفلوريدا" "من النهارده العصر حتروح تاخد درس!"

- لا! أنا مش بليد!

لم يكن يذهب عادة لمدرس خارج المدرسة سوى البلداء من التلاميذ، لكن أبي أكدَ لي أن التنافس على المجموع يجعل ذلك ضروريًّا وليس عيبًا.

- وبالليل إن شاء الله سأذاكر معك أيضًا!

لاحت أمام عيني متخفية في نورها الدامس، اللمبة الجاز، التي كانت أمي تجتهد قبل المغرب في دعك زجاجتها من الداخل بورقة جريدة، تخرج الورقة بعد الدعك سوداء كالقار، وكانت عيناي في خصام أزلي مع رائحة الجاز المؤذية، وما كان يحلو لأبي أن يذاكر معي سوى ليلًا، عندما يلاحظ أني بدأت أستسلم للنعاس كان يصحصحني قائلًا: "اقرأ وأسمعني!"

أنا الذي أقرأ وهو يهز رأسه موافقًا. أقرأ وأعاني التهابًا أزليًّا في الحلق، أما هو فيعلق كل مدة بكلمات لا أكاد أتبينها والنوم يدب في جسدي المنهك دبيبًا.

- الأستاذ أحمد أمين سيعمل معاك اللازم.

لم أعد أناقش هذا الأمر ورضخت له وإن كنت قد أخفيته عن العديد من أصحابي. ذهبتُ إلى المنزل البعيد، أبعد من الوسعاية التي تنصب فيها المراجيح في الأعياد، وبجهتها الشمالية تتراكم مواسير ضخمة يمكن للصبيان المشي في جوفها واقفين، مواسير عديدة مرصوصة بعضها فوق بعض كنا في العيد الفائت نتقافز فوقها ونلعب استغماية عندما لاحظنا في أعماقها بعض الشبان في أوضاع جنسية اقشعرت لها أبداننا فأخذنا ذيلنا في أسناننا وطرنا بعيدًا. كل يوم سأرمح أمام هذه المواسير وأنا ذاهب إلى منزل الأستاذ.

اتفق والدي معه فاستقبلني بترحاب أسفرت عنه ابتسامته اللامعة، وعرَّف الأولاد والبنات الذين كانوا عنده ساعتها أنني ابن الأستاذ الكومي خير الأساتذة، وأن والدي اختاره هو دون بقية أساتذة المدرسة ليقوم بهذه المهمة. كانوا قد قطعوا شوطًا بسيطًا في الدراسة قبل انضمامي إليهم فأراد أن يستعرض أمامي تفوقهم فأخذ يسألهم ليفجر ذاكرتهم بالإجابة، لكن الدهشة أصابت الجميع لأن الأستاذ ما كاد يلفظ نصف السؤال حتى وجدني قد أجبت عنه.

- لا يا حمادة لا، ماينفعش كده، إدي فرصة لغيرك يا حبيبي!

وبمرور الأيام تعلمت أن أتأنَّى قليلًا حتى يتحرك غيري، فإذا ما عجز الجميع رفعت أصبعي وأجبت. صار الأستاذ يأخذ موضوع الإنشاء الذي أكتبه في الواجب المنزلي، ويقرؤه على مسامع الجميع مدققًا على مخارج الألفاظ كأنما يلقي خطبة، ثم يقول وابتسامته تفترش وجوهنا:

- أستأذنكم لحظات أقرا الموضوع ده لبابا!

يتركنا في حركة رياضية مغادرًا الحجرة ونظرات الأولاد تحاصرني، ليعود بعد دقائق وطلعته أكثر إشراقًا:

- ما شاء الله! بابا منبهر بأسلوبك يا حمادة!

فيرمقني زملائي بإعجاب أو حسد.

كان الأستاذ أحمد مدرسًا لمادة التربية الزراعية بالمدرسة، مجتهدًا بطريقته الخاصة حيث أتقن منهج الصف السادس في المواد الأربع الرئيسية، وكوَّنَ بعض مجموعات الطلبة يقضي معهم بعد العصاري ويحسن دخله، كان على قدر من الوجاهة، يرجِّلُ شعره الأسود الفاحم الطويل، ويعتني بأسنانه البيضاء ولا يتوقف عن الابتسام. وذات يوم وأنا أجمع أدواتي وأهم بالانصراف من عنده قال لي: "ابسط يا عم! أنا اخترتك معنا في رحلة اسكندرية".

- لن يوافق أبي!

لكن أبي وافق بعد إلحاح الأستاذ أحمد الذي قال له: "أنا المشرف على الرحلة، والدرس سيتعطل طبيعي ثلاثة أيام!"

وفي الليلة السابقة على السفر لم أنم إلا تقاطيع، ونهضنا مع الفجر فأشعلت أمي لمبة الجاز وعلقتها على جدار الحجرة، وأخذت تعد لي حاجياتي، ثم سمعتها تتعجب:

- طيب، وأين سنضع تلك الحاجات؟ لو فيه حاجة أحسن شوية من مخلاة القماش!

لم يكن السفر من بلدتنا إلى الإسكندرية سهلا ميسورًا كما هو الحال الآن حيث صارت المواصلات مباشرة؛ ولذلك كان يتوجب على المسافر الذهاب إلى دمنهور في الأتوبيس ثم الانتقال من موقف الأتوبيسات في شبرا إلى محطة السكة الحديد. سيكون واجبًا علينا قطع مسافةٍ مشيًا على الأقدام في طابور اثنين اثنين، ثم ركوب قطار غير مزدحم ليتمكن التلاميذ الزغب من دخول العربات بسلام...

ولذلك قال الأستاذ أحمد لزميله المكلف مثله بالإشراف على الرحلة:

- ليس أمامنا غير قطار الركاب!

- القشاش؟! سنصل بعد أسبوع!

- لا يا أخي، كلها ساعتين ونوصل.

وركبنا القطار الذي كان مركونًا في جانب قصي من المحطة، يشبه الزائدة الدودية بالنسبة للبطن. مفتَّح الأبواب محطَّم النوافذ، ومرَّ بنا مشرف الرحلة ووزع علينا سندوتشات كنا نتوق إليها لجوعنا، وأيضًا أعطى كل واحد منا بلوك نوت نظيفًا جميلًا.

وقف الأستاذ أحمد في الممر بين كراسي عربة القطار وقال: اسمع يا شاطر أنت وهو، كل واحد منكم سيكتب تقريرًا عن الرحلة، إيه اللي شافه، إيه اللي عجبه، كده يعني، وأحسن كاتب سيأخد هدية قيمة في الحفل الختامي للرحلة.

لمحت حمدي الرويني يبتسم لي ثم اقترب مني قائلا:

- مش عايزين الجايزة تطلع بره، إما أنا أو أنت!

وكنت واثقا أنه صادق المشاعر.

لا أنكر أنه كان ممتازًا في الدراسة لكني لم أضع نفسي في مقارنة معه ولا مع غيره. لم أكن أحب الدخول في صراعات من أي نوع.

لم يكن معي قلم فاستلفتُ قلم الأستاذ أحمد أمين الذي شجعني:

- والدك سيفرح لو نلت الجائزة، شد حيلك!

أمسكت بالقلم وفتحت البلوك نوت وبدأت هكذا:

- أخيرًا تحرك القطار من دمنهور!

وكان يجلس إلى جواري على الكرسي الخشبي البارد رجل متقدم في السن، يكبس في رأسه طاقية بيضاء مزيتة بعرقِهِ اللامع تحت الشمس

المندفقة من النافذة، لم يرفع عينه عن البلوك نوت كأنه منبهر به، اتسعت ابتسامته الوديعة قبل أن يقول:

-الكراسة دي محندقة خالص!

حمدت الله أنه بدأ الكلام معي فشجعني.

تحرك القطار فسألته عن أسماء بعض البلاد التي نمرُّ بها وراح يجيبني. رحت أدون ما يروقني من المعلومات، وتوقف القطار في محطات كثيرة، وبعد قرية اسمها البيضا سمعنا من يقول:

- سيطول الوقوف، انزلوا العبوا يا ولاد لغاية السريع ما يعدي، واللي بعده يعدي كمان!

وبالفعل غادر مشرفا الرحلةِ فانحدر وراءَهما التلاميذ مبتهجين يلهون على الرصيف القديم، أما أنا فلم أنزل إلا بعد أن سجلتُ ما قاله الرجل عن القطارين وخضوع قطارنا لجبروتهما، وعندما التقيت بزملائي سألت العديد منهم عما كتبوه فأفزعهم سؤالي.

- وهل الرحلة ابتدأت حتى نكتب عنها؟

وسخر مني بعض زملائي لأني بدأت كتابتي بكلمة: "أخيرًا"!

- وأين كلمة "أولا"؟ هل أكلتها؟

***

أدهشتنا الإسكندرية التي كنا نرى بحرَها للمرة الأولى، عماراتها العالية التي اجتهدنا لنحصي أدوارها، الأضواء الليلية التي تجري صعودًا وهبوطًا فوق المسارح والسينمات، الأحياء المائية وحديقة الحيوان، القلعة والكورنيش الحجري الطويل، وكانت إقامتنا في مبنى مخصص للمغتربين، مع شبان كبار من سوريا، كنا أيامها في عهد الوحدة، وكانوا يلاطفوننا، وقالوا إنهم على وشك العودة إلى الإقليم الشمالي وسيقيمون حفلًا رأيناهم يستعدون له، وعندما علموا أننا سنُقيم معهم أكثر من يومين فرحوا لأننا سنتفرج على الحفل بالتأكيد، كانت لهجتنا الريفية (الجلفة) تروقهم، ولهجتهم الشامية تسحرنا.

وجاء الحفل بسيطًا أدوا فيه رقصات من الشام، وبعض الاسكتشات الظريفة، وكان مدير الدار موجودًا لأنه قدَّم لهم بعض الهدايا التذكارية، وكان الأستاذ أحمد أمين لامعًا كعادته، فألقى كلمة عن عبد الناصر موحد الأمة العربية الذي بفضله نحن جميعًا هنا إخوة متحابون، فالتهبت حماسةُ الجميع، وصفَّقنا له حتى دمعت أعيننا، ثم تطرق إلى مسابقة الرحلة، وقدم لمدير الدار بلوك نوت تناوله منه وتصفحه: كم أنا سعيد بقراءة ما كتبه أحد تلاميذ الرحلة، ما شاء الله!

ورفع البلوك نوت وناداني، فدهمتني المفاجأة حتى تعثرت مرتين وأنا أصعد الدرج إلى المنصة.

مُبتلًا بالعرق صرتُ وأنا أخطو تجاه بسمته التي تملأ وجهه. أمسك يدي الصغيرة وجعل يقرأ فقرات مما كتبت، وجعل صوته من كلامي

كلامًا آخر أكثر تعبيرًا وأبهى رواءً، ووجدت جرمي الصغير بين عديد من المتحلقين حولي يصافحونني بحرارة ويقرصون خدي، وكنت أقبض بيدي على القلم الحبر الهدية الذي كافأني به مدير الدار.

اعترض أحد زملائنا بعد الحفل على الاستهلال الذي بدأت به التقرير:

- بدأ التقرير بكلمة أخيرًا وحصل على الجائزة!

لكن حمدي الرويني سخر منه:

- فهمك على قدك!

***

أعود إلى الملعب والمساطر التي تئزُّ في السماء، وانطلاق التلاميذ كالمِهار العرابيد لأقول إن امتحانات اليوم الأول انتهت بفترتيها، وخرجت فوجدت أبي في انتظاري، هو الذي لمحني فراحت يده تقبض على يدي الصغيرة:

- جاوبت كويس؟

صداع ثقيل يضغط على رأسي. لو كان النوم يحملني إلى الغيبوبة!

قلت:

- امتحان تافه مثل هذا لم يكن يستحق كل ذلك التعب الذي تعبناه، سنة بطولها نذاكر ونحل خمسين امتحان علشان إيه؟!

قطعنا شارع البطل الشهيد أحمد عبد العزيز حتى منتصفه ثم انحرفنا إلى شارع الإخلاص حيث بيتنا. ابتسامة أمي مسحت عني التعب قليلًا، لكني بمجرد أن تناولت غدائي ملأ النعاس رأسي بالرمل! قال أبي: صحصح يا بطل! قدامنا مراجعة امتحانات مادتين تانيين!

لكني كنتُ أتطوَّح فرأى أن يأخذني في جولة سريعة حول البلد لأستعيد صحوتي، وخرجنا نمشي في ظلال البيوت والحيطان، وبقايا الحر كانت تناوشني وأكاد أنكفئ من التعب.

أرق الليلة الماضية، والصحوة المبكرة، و(تمقيق) العيون في صحبة اللمبة الجاز، والتفاجؤ بامتحان لا يستحق ما بذلناه من أجله...

كل ذلك التعب والكدح من أجل يوم كهذا؟

وهؤلاء الفرحون السعداء اللامبالون، الضاربون بالمساطر في خاصرة الشبورة الثقيلة المفترشة للمكان، سيكونون معنا في العام القادم وبأقل مجهود! حرام والله!

***

لم يكن ما بذلته من جهد هو الذي أثر فيَّ أكثر، بل الحرمان من اللعب في الإجازة الصيفية العام الماضي؛ حيث كان أبي قد أصدر فرمانَهُ، وكنا أيامها نستعد للمتعة الصيفية بإعداد الكور الشراب، والأولاد الكبار ابتكروا طرائق شتى من بينها نفخ بالونه ويظلون

يديرون الخيط حولها حتى تختفي تحته، ثم يدهنونها بالكولة حتى يختفي الخيط، ثم يضعونها في شراب قطني يخيطونه عليها فتصبح متماسكة تنطلق كالصاروخ بمجرد لمسها. كنت أحلم باللعب بها وإدارة حوار جامح بينها وبين قدمي الحافية عندما قال أبي: السنة الجاية سنة ستة، امتحان القبول يا بطل، عشان كده ما فيش لعب الإجازة دي!

- ليه؟!

- لازم تنسى اللعب وتنتبه لمذاكرتك!

- المذاكرة لسه بدري عليها

- لازم تنسى اللعب وتلتفت لدروسك، تدخل المدرسة ودماغك خالية من اللعب.

- يعني مش حالعب خالص الصيف ده؟

- الصيف الجاي تكون نجحت، والعب زي ما انت عاوز!

لم يعجب أمي هذا الكلام، خصوصًا وقد رأت شحوب وجهي، ودموعي التي تكاد تترقرق، اقترحت أن يتركني ألعب قليلًا بعد العصاري يوم بعد يوم، لكنه لوى بوزه وغمغم: إيش فهمك انتي في المسائل دي؟ لازم يتعود على عدم اللعب!

صرت أجلس على عتبة المنزل محرومًا مقهورًا، والأولاد في شارعنا يركلون الكرة التي اخترعوها ويجرون كالأحصنة، ولا أجد تفسيرًا لما يفعله أبي معي.

ظللنا نمشي، عصاه في يمناه بينما يدي الصغيرة معلقة في كفِّه، واصطدمتُ بطوبة كبيرة وبصيحته: بص قدامك! انت نايم ولا إيه؟!

وكنت قد فوجئت به يقول لي وقد رآني ذبلتُ لعدم اللعب: "النهارده أعمل لك طيارة على كيفك!"

ويجلب البوص وورق الزبدة الملون، ويقوم بتسوية النشا على النار ليلصق به الورق، ويشتري خيط الغزل، ويقول كأنه سيفعل معجزة:

- سأسوي لك طيارة لم يسبق لأحد تسوية مثلها!

- أنت!

وفعلًا، كانت على هيئة صندوق عجيب، لم يصنع لها ذيلا ورقيًّا، ورأيت الوزان في نصفها العلوي عجيبًا.

قال: "أول طيارة من غير ذيل في البلد!"

كنتُ منبهرًا بها ونحن فوق السطح، فوق أكداس القش والحطب الذي كنا نشتريه ونخزنه كوقود للطهي طوال العام.

هو الذي سيطيرها خشية أن تسحبني معها فأقع من على السطح. انبهر بها كل زملائي في الشارع الذين توقفوا عن اللعب ووجوههم إليها. لم يروا شيئًا مثلها من قبل، لكنهم عندما استأنفوا اللعب غير عابئين، كنت على وشك أن ألقي نفسي من فوق لألعب معهم. أريد أن أجري، أن أقع وأقوم، أن أركل الكرة بكل طاقتي.

هل كان ذلك عسيرًا عليك إدراكه يا أبي؟

***

انتهت الامتحانات بعد ظهر اليوم الثاني. دق جرس النهاية فتعالى هتافُ التلاميذ المتقافزون يتموجون في البهجة الطاغية: مافيش مذاكرة بعد اليوم! ويطبلون على أي شيء يقابلونه في طريقهم. سألت أبي وقلبي بين قدمي: يا ترى الإجازة دي فيها لعب ولا إيه؟!

- عاوز تلعب؟ عمومًا أنا محضر لك مفاجأة!

لم أكن أصدق أن أبي هو الذي يتكلم، لم أسأله مستفسرًا خشية أن يتمخض الأمر عن لا شيء. كان أبي كبيرًا جدًّا جدًّا بالنسبة لي. تركت له الوقت الكافي ليمتد صمته ما شاء ثم يبشرني:

- النهارده بعد العصر سنصطاد يا سيدي!

- سمك؟!

وكانت المفاجأة كبيرة لأن الأستاذ أحمد أمين نفسه كان ضمن الفريق وأيضًا الأستاذ محمد جيكار زميل أبي في التدريس.

ولم يكن ثمة أطفال غيري. قالوا: "احمل أنت البوص"

وأسعدني ذلك. أخذناها مشيًا حتى وصلنا إلى مصرف الأصلاب. تخيروا مكانًا ظليلًا، وبدؤوا يصطادون البلطي. كل دقيقة يسقط غماز وترتفع سمكة. كان معنا وعاء نضع فيه ما نصطاد وأحافظ أنا عليه فلا يقفز منه شيء.

وفجأة! سقط غماز فارتفعت بوصة أبي، وإذا بثعبان مائي طويل يلفُّ جسده حول الخيط قبل أن يرتمي وراءنا على الطريق فيزحف ونحن وراءه نهرول حتى أمسكنا به.

الفرحة تقفز من عيني، ولكن كيف نحافظ عليه فلا يضيع؟ إذا وضعناه في الوعاء سيهرب.

قال الأستاذ جيكار: "الدنيا حر ولبس الشراب ليس ضروريًّا".

وخلع جوربه وحبس الثعبان في فردة منه وعقدها عليه فلا يستطيع منها فِكاكًا، ثم طلب مني أن أفتح عيني عليه. تناولته منه، فكأنني أقبض على كنز، وأي كنز؟ كان الجسم اللولبي يتحرك كالأمعاء ساعة المغص، وكنتُ أقبض على عنق الجورب وأدعو الله ألا يخذلني فلا يتشتت ذهني عن حراسته. تخيلت أمي عندما تراه، هل ستخاف منه وتجفل؟ وأي مفاجأة سارة ستطير بها لأن أبي هو الذي اصطاده!

بدأ الغروب يهبط وأسراب الجواميس تعود إلى ديارها خلف حُمُر على ظهورها أصحابُها. "كفاية كده!" ، قال أبي بأريحية، "قسِّموا السمك بينكم انتم الاتنين!"

- وأنت؟

- لا. أنا متنازل عن نصيبي!

متنازل؟! صارت الجواميس تطحنني بأقدامها الغلاظ. تنطحني بقرونها السود الغلاظ. ماذا أسمع؟ أشم (الزفارة) في يدي التي لن

ترجع بسمكة واحدة. سيأخذان السمك كله، وحدهما، والثعبان لن تراه أمي.

الغروب يتكدس فوق روحي أحمرَ قانيًا، ثم أسودَ داجيًا، وأشمُّ (الزفارة) في يدي، وجلبابي، وجسدي كله.

رحلة العودة مليئة بنعيق غربان لا مأوى لها، وعندما طالعني وجه أمي، وسألتني بعينيها إن كنا قد اصطدنا شيئًا، بدأت الدموع تتدحرج من عينيَّ الذابلتين وأنا أرتمي (بزفارتي) وزفراتي على السرير!

***

قبل أن يرفع المؤذن عقيرته بالنداء وهو في الريح فوق المئذنة العالية، يمرُّ أحمد الحلواني علينا ويصيح مناديًا، أو يدقُّ الباب بالعصفورة الحديد، فأخرج إليه، ويكون حمدي الروينى قد تنبَّه له فيوارب باب دارهم ويخرج، ومن السرب المواجه يكون أنور الطحان أو فكري الأوسطة قد جاء متهللًا لمرآنا واقفين كأننا ننتظره. تتفشى فينا لحظات فرح طفولي حتى يظللنا النداء فنتوجه معا إلى المسجد البحري للصلاة.

يتكرر هذا في الأوقات الأربعة من الظهر حتى العشاء.

أحيانًا نتفق على التبكير في الذهاب، أو نبقى بعد صلاة الظهر حتى صلاة العصر ندير الطلمبة حين يكون خزان المياه موشكًا على الجفاف. يمسك اثنان يد الطلمبة ويعملان بنشاط مبالغ فيه والماء يندفق إلى

الماسورة فنسمع ارتطامه بالخزان الإسمنتي الضخم، المليء بالصنابير. كنا ننظف هذا الخزان مرة واحدة في الشهر على الأقل؛ وذلك بأن نرفع سقفه الصاج ثم ننزل فيه كأنه حمام سباحة ويشجعنا خادم المسجد وابتسامة تتدلى إلى أسفل وجهه: "عشتم يا رجالة!"

يحاول أن يساعد معنا، لكن شهامتنا كانت له بالمرصاد، وكانت تأتي معه أحيانًا بنت صغيرة هي إحدى قريباته، تمسح أنفها بكم جلبابها، وأذكر أن أحد أصدقائنا أفضى إلينا ذات مرة أنه ينوي الزواج بها عندما يكبر حبًّا في أبيها الطيب!

وكنا نبتهج ابتهاجًا عظيمًا ونحن نهيئ المسجد لاستقبال شهر الصوم: نغسل الحُصر، ونمسح البلاط، ونرش الماء في الشوارع المحيطة، ونعلق بعض الزينات، ورغم حداثة أعمارنا كنا نصوم ونطرد التعب والكسل والجوع ولا نلتفت للماء السلسبيل الذي نتوضأ منه، وعندما نتشكك في صوم أحدنا كنا نتحداه أن يرينا لسانه، ونصر على ذلك حتى يمتثل ويخرجه، فإذا كان لونه أحمر تأكدنا من صدقه وصومه وإلا ظللنا نسخر منه حتى يرتدع.

وبعد صلاة العشاء نحتفل بالتراويح نصليها خلف الشيخ أحمد الذي كان يتحفنا بخطبة قصيرة قبل ذلك، ونسعد لأن الملائكة تحفُّنا. كان يقرأ في الركعة آية أو آيتين لا يزيد، وعندما قالوا ثبتت الرؤية وغدًا أول أيام العيد وليس الثلاثين المكمل لرمضان انهمرت دموعي لأني لن أصلي التراويح تلك الليلة؛ بل سأنتظر عامًا كاملًا حتى أصليها.

وأذكر في أحد أيام رمضان، عندما ذهبنا لصلاة العصر وجدنا خادم المسجد كأنما مات له أحد أبنائه. لا يكاد يصدق أن الذمم خربت إلى هذه الدرجة، وصاح بعض المصلين بعد أن دقوا كفًّا بكفٍّ:

- علامة من علامات الساعة.

عرفنا أن حصيرًا من حصر المسجد تم سرقته! يسرقون من بيت الله ولا حياء! عليه العوض!

وقبل أن تقام الصلاة وصل عمي الحاج أحمد شيخ المسجد، ظننت أنه سيعطل الصلاة ليلقي محاضرة عن السرقة وخيانة الأمانة، ونهب بيوت الله، لكنه هدأ من روع المصلين الناقمين، بل وصاح في الخادم الذي كان كأنما يريد أن يشعل حريقًا...

وقال للناس: "لماذا سرق الرجل الحصير؟ لأنه لم يجد في بيته حصيرًا ينام عليه هو وأولاده. هل سرقه ليبيعه؟ لا، فالحصير قديم، والرجل لم يجد ملجأ من الفقر إلا بيت الله، لو كُلُّ واحدٍ منا دفع قرشًا لاشترينا حصيرًا جديدًا. لا تصبوا لعناتِكم على المضطر المُعوز!"

أعجبني الكلام، وتأكدت أنني تعلمت في ذلك اليوم درسًا غاليًا.

ويكون أبي قد اشترى لكل منا شيئًا جديدًا بمناسبة العيد، إما بيجاما أو حذاءً، أو قماشةً بسيطة تقوم أم مديحة الخياطة بتفصيلها، وأذكر قطعة قماش ناعمة بيضاء مخططة بالأحمر الزاهي كان أبي قد اشتراها لي، والسعادة في عينيه لأنه استطاع أن يقتنص لي ذلك، وسمعته

يطلب من أمي أن تأخذني لأم مديحة لتفصلها لي بيجاما، لكنـي قابلـت سعادته بتبويزة عجيبة فلم أكن أريد لونًا زاهيًا، وأقسمت أني لن ألبسها ولن أخرج بها، وحذرتهم أن يرسـلوها إلى الخياطـة لأنهـم سيخـسرون ثمن تفصيلها كما سبق وخسروا ثمن شرائها.

وفي صباح العيد، قامت أمي بمحاولات مضنية لكني ما خـضعت لتوسلاتها ولا وضعت على جسدي مـا لا أشـتهي. ذهبـت إلى الجـامع ببيجاما قديمة لكنها نظيفة، أما الأخرى الجديدة اللامعـة الناعمـة فلـم ألبسها سوى بعد مرور أيام!

بعـد التكبـيرات الـصباحية التـي تـسحر الوجـدان، والـصلاة والخطبتين، نعود معًا إلى البيت، ويأتي عم شعبان بائع الفول والطعميـة ليعيِّد علينا. ربما كان الوحيد الذي يفعل ذلك من أصـدقاء أبي. يعطـي كل واحد منا شلنًا تسعد أيدينا بنعومة ملمـسه دقـائق، ومـا إن يغادرنـا بعد أن يأكل كعكتين على الريق ويشرب كوب الشاي التمام حتى يجمـع أبي أرباع الريالات من أيدينا ويفرد محفظته ويضع في يد كـل منـا قرشًـا واحدًا على قد الحال، ويتوجه إلى عـم محمـد البقـال طالبًـا منـه تحويـل الشلنات الفضة إلى عملات ورقية، ويذهب بهـا إلى منـزل مـن أعطانـا إياها ليعيِّد عليه ويعطي أولاده أرباع الريالات في صـورتها المغـايرة، لا شك أنهم سينفقونها على مسراتهم.

كان لأبي أصدقاء آخرون لكـنهم لم يكونـوا يزورونـا في الأعيـاد، وإذا حدث وزارونا لم يكن أحد منا ينتظر منهم شيئًا لأنهم لـن يفعلـوا،

حتى محمد ابن عمي الذي كان أيامها قادمًا من بعثة طويلة في إندونيسيا عندما زارنا صباح العيد أخرج من جيبه قرطاسًا صغيرًا قدمه إلينا وهو يبتسم قائلا: "شوية أم الخلول!"

فتحناه فوجدنا به عشرين قرش صاغ فكة.

وأيضًا يزورنا الأستاذ عبد العليم الذي كان يعدُّ المستشار الثقافي لأبي. كان يقرأ طه حسين ويحتفظ بكتبه في مكتبته وقد جرى قلمه الرصاص الأحمر تحت خطوطها وكتب في الهامش تعليقاته على ما قرأ وكان أبي أحيانًا يستعير منه شيئًا منها. على سبيل المثال أذكر شجرة البؤس لأن عنوانها صدمني كطفل. ثم بعد أن لملم الصيف سخونته ليرحل باح أبي لصديقه المستشار عن المعضلة التي تؤرقه: "انت عارف أن كتب الإعدادي وكراساته كثيرة، وليس لابني شيء مناسب يحملها فيه. المخلاة القماش التي كان يستخدمها في الابتدائي لم تعد ملائمة".

***

نسيت أن أحدثكم عن ظهور النتيجة...سأحدثكم عنها ثم أعود للحديث عن الحقيبة الخشب! جاء أبي من الجامع بعد صلاة الظهر والتوتر بادٍ عليه وكان يفرك في يده شيئًا ثمينًا تبينت أنه شلن فضة. قال: "يوم الامتحان يكرم المرء أو يهان!"

ومدَّ المسافة بين الهاء والنون مدًّا طويلًا قبل أن يسلمني الشلنَ محذرًا إياي أن أسهو فيضيع مني. ثم قال: "النتيجة بانت يا بطل! كل زمايلك بيجروا ناحية بياعة الجرايد. معاها كشف بالنتيجة."

وكان المعروف أن سميرة بائعة الجرائد تسافر إلى دمنهور وبطريقة أو بأخرى تتحصل على النتيجة قبل أن تذيعها المدرسة وتبيعها مقابل خمسة قروش من كل ناجح.

ذهبت وأنا أتساءل: لماذا لا أنتظر ساعتين أو ثلاثًا حتى تكون المدرسة قد أذاعت النتيجة، وآخذ الشلن لنفسي؟

لكني دهشت عندما شارفت المكان! كل هذا الزحام وذلك الصخب. أولياء أمور يغادرون المكان وقد توردت وجناتهم من الفرح، وآخرون، وما أدراك ما حالهم عندما يدفعون الشلن ثم تعيده إليهم سميرة لتتناول غيره من غيرهم. يغادرون المكان منكسي الرؤوس كأنهم الذين رسبوا وليس أبناؤهم. بعد مجهود تمكنت من ولوج الزحام، وعرفت مجموعي: "تسعون في المئة. هل سيعجب ذلك أبي؟"

قال واحد من الناس لا يعرفني ورأى قلقي: "آدي واحد باين عليه ساقط!"

وأنا عائد قابلت حمدي الروينى، مجموعه ثلاثة وتسعون. حتمًا سيسألونني عنه عندما أعود، وبالفعل قال أبي: ثلاث درجات كتير!

مع ذلك لم يفسد علينا الفرحة، لقد أشرق وجه أمي وزغردت عاليًا، سرت عدوى الفرح فينا، قال أبي: "هيصوا يا ولاد! النهارده نتعشى مكرونة!".

وظلت المكرونة باللحم أو الدجاج عشاءنا الذي نكمل به فرحتنا طقسًا من طقوس نجاحنا.

أعود إلى ما كنتُ فيه، أعني الحديث عن الحقيبة، فقد تمخَّض الحوار عن فكرة جهنمية عششت في نافوخ أبي حيث دلَّهُ صديقه:

- إيه رأيك في شنطة زي شنطة الأسطى ضرغام الحلاق؟!

- خشب؟

- وما المانع؟ وسيصنعها لك بنفسه، عم ضرغام أجدع من أجدعها نجار!

وكان الأستاذ عبد العليم عندنا عندما دَقَّ الباب ودخل الأسطى متهلل الوجه وفي يده حقيبته الخشبية التي يجمع فيها لوازم الحلاقة ليحلق لأبي ولزميله عندنا.

عندما هلَّ وجهه تذكرت ما كان منه في اليوم العصيب...هذا الأسطى هو المستشار الطبي لأبي، والذي "عالج" أخي سعيد من الدوسنتاريا بالشيح البائس!

وهو الذي "عالج" ساق عمتي بدس الفولة الناشفة في تجويفها الدامي!

هل حكيت لكم هذه الحكاية؟ لم أحْكِها بعد! ثم إنه هو أيضًا الذي أجرى لي عملية الختان. كان ذلك يومًا لا ينسى...

قبله بيومين اشتروا لي جلبابًا أبيض ووصفوني بالعريس الصغير.

لم أتوقع أن يكون ذلك تدليلًا لي، فلم يسبق أن دللني أحد منهم لكني أردت أن أجربه فقالوا: "غدًا تلبسه فلا تتعجل!" وأذكر أن بعض

الجيران توافدوا على بيتنا وكلهم يربت على كتفي أو يقرص خدي وجميعهم يبتسمون وكأنما يتهيئون لشيء سعيد مقبل، ويصفني بعضهم بالعريس الصغير.

إلى أن جاء عم ضرغام ومعه الحقيبة الخشبية، الصغيرة نسبيًا، فنهض الجميع مرحبين به كأنه سيفتح عكا، وأمسكوا بي. "لا تخف أنت رجل!"

وعندما وجدت نفسي منقولًا كريشة من يد ليد أكدتُ لنفسي أن في العالم أقوياء جبارين! أجلسوني على كرسي وقف أحدهم وراءه وعبطني فلم أستطع أن أهرب!

وربما تسللت يدان من خلف الكرسي فقبضتا على قدمي أيضًا.

وبدؤوا في إنزال سروالي الداخلي، وأمسك الأسطى ضرغام شيئي الصغير بعد أن أخرج ريشة بطة أو وزة لا أدري وأدخل قصبتها في فتحة الشيء المسالم المنكمش.

يبدو أن كفين ضخمتين التصقتا بعيني كيلا أرى الموسى وهو يقطع كأنما يكوي بالنار فصرخت صرخة واحدة ذابت في فرحة من حولي.

- خلاص! تمام كده!

تركوا عيني لأرى. كان الدم في القطن الكثير، والألم الصارخ تحت القطن، والمعلم يرفع القطن ويبحلق في القطع ويمد الموسى من جديد ليسويه! "مبروك يا عريس!"

أنزلوني من فوق الكرسي، وأمروني أن أرفع الجلباب قليلًا كيلا يجرحني، وأن أباعِدُ بين قدمي وأنا أمشي.

وارتفع صوت: "وأخوه سعيد؟"

- سعيد؟

- هاتوه بالمرَّة!

- لكننا لم نشتر له ثوبا أبيض!

- معلهش، هاتوه، تعال يا حبيبي!

ورأيتهم يقبلون به ليجلس على الكرسي فصرخت:

- حرام عليكم اتركوه! لا تذهب معهم يا سعيد!

لكن صراخه دوَّى فتجدد ألمي مرة ثانية من أجله.

***

هو إذن الأسطى ضرغام فما الذي جاء به؟ طلب مني أبي أن أبدي رأيي في حقيبة المعلم فهززت كتفي لا أدري ماذا أقول.

الأستاذ عبد العليم هو الذي تكلم: "عاوزينك يا أسطى ضرغام تعمل شنطة للأستاذ الصغير ده تَسَعُ كل كتبه وكراساته لأنه منقول للمرحلة الإعدادية".

- ما شاء الله، ما شاء الله.

جعل يمصمصها في فمه بطريقة أشعرتني بالفخر، وظَلَّ أبي على صمته تاركًا المجال للأستاذ عبد العليم: "بس تكون كبيرة عن شنطتك دي، وعريضة، علشان تفضل معاه لغاية ما يروح الثانوي بإذن الله، كتبُ الثانوي كتيرة. على البركة، اشتري لوح أبلكاش وعوارض متينة..."

- مفهوم مفهوم..

وبعد أسبوع جاء الأسطى ضرغام وجلس في الصالة، وبمنديله المحلاوي الكاروهات مسح جبينه ومرره على رقبته ثم نهض إلى الباب وهو يغمغم: الواد الشيال نسيناه واقف عالباب.

لمحته يقدم له قرشًا ويدخل بها متباهيًا: "حاجة آخر ألسطة يا مولانا!

وكان المستشار الثقافي قد اتفق معه على ثمنها بعد ليلة طويلة من الجدال والفصال. تأملتها فظننت أن بإمكاني أن أتقوقع داخلها. وفتحها أمام أبي بعد أن حرَّك مفتاحًا كبيرًا في فتحتيها محدثًا تكات مزعجة، وما إن فتحت فمها كفم تمساح حتى تعبق المكان برائحة جبن قديم متعفن. لم أكن الوحيد الذي صدمته الرائحة لكن الأسطى ضرغام فسرها بأن ذلك ناتج عن الدهان الداخلي للحقيبة وسيزول مع الزمن.

ولأول مرة يتكلم أبي. بدأ بالثناء على الأسطى الموهوب في هذه الصنعة أيضًا"، ثم غمغم على استحياء: "متهيأ لي إنها كبيرة شوية يا حاج ضرغام!"

- حسب طلبكم يا مولانا، يا جارية اطبخي يا سيدي كلف!

أدار أبي وجهه تجاهي:

- خد شنطتك مبروكة عليك!

وقفت إلى جوارها وأمسكت مقبضها المعدني وهي رابضة على الأرض. لكي أحملها أو أسير بها يجب أن أثني ذراعي حتى ترتفع هي عن الأرض ولا تسحب سحبًا.

كانت ثقيلة ومتكبرة لا تفتأ تسخر مني!

***

وفي المدرسة وجدت الحقيبة من يسخر منها إذ تصايح الزملاء بعفوية تامة: صحارة عيش! فيها كام رغيف؟

استلمت الكتب وبدأت أرصُّها في الحقيبة، لكني لم أتمكن من ثني ذراعي لرفعها عن الأرض، تركتها جاثمة إلى جواري حتى يفرجها ربنا، وبعد الظهر عندما غادر كل التلاميذ ونسوني رآني عم محمد البشتامي غارقًا في حيرتي، وكان يعرف أبي، وكنتُ أعرف أباه الشيخ الذي يحفظنا القرآن في الجامع. قال لي: "ما تقلقش، أخلص اللي فإيدي وأوصلك".

وبالفعل حملها من يدها فارتفعت عـن الأرض؛ فهـو أطـول منـي بطبيعة الحال. سرتُ إلى جانبه لا أدري هل أضحك أم أبكي؟ وحـاول هو التسرية عني. سألته عن عمله في المدرسة قال إنه استلم وظيفة عامل مؤقتًا حتى يخلو مكان؛ فهو من أصحاب الشهادات، هكذا قـال، لكـن أحد أقرباء والدته من الواصلين طلب منه قبول هذه الوظيفة ريثما يخلـو مكان.

ما زلتُ مكتئبًا في عينيه فقال يضاحكني: "قريبي ده كرشه برميـل، وبيحب فتة الكوارع، بالتوم. كل مدة أمـي تبعتنـي بـأنجر الفتـة الـتمام لغاية عندة، وياكل زي ما يكون جمل، لغاية مايقول: خلاص مش قـادر أنهض أغسل إيدي اللي بتتلزق كأني واكل صمغ".

ويضحك وأنا أضحك معه.

يتثاءب: بكرة تتعدّل!

قلت له: "عندما دخلت علينا الفـصل الحـصة الأولى كـان عنـدنا مدرس المواد الاجتماعية، قام الواد حمدي أبو قورة بص لك وللمـدرس وقال لي: بذمتك مين فيهم المدرس ومين الفراش؟"

ضحك كطفل، وعندما وصـلنا وجـدنا أبي يغـادر البيـت مـتجهمًا ليبحث عني ففوجئ بالحقيبة على الرصيف وبجانبها عم محمد البشتامي الذي كان على وشك أن يثور لأجلي: حرام عليكم يا شيخ كومي، طفل يشيل صحارة عيش يا مولانا؟!

سلم عليه أبي بحرارة وحلف أن يتغدى عندنا لكنه قال: "لـو فتـة كوارع بالتوم موافق، غير كده لا!"

بعد العصر هُرع أبي إلى المستشار الثقافي والحقيبة في يده. فوجئ بهما الأسـطى ضرغـام يقـتحمان عليـه الـصالون وطلبـا منـه أن يجـد حـلًّا للمعضلة، باختصار أن يقوم (بتقييفها) فهي أكبر حجمًا من اللازم. قال متضررًا إن عملية الفك والتصغير ثم إعادة التركيب أصعب ألـف مـرة من الصنع أول مـرة، مـا تنـسوش الغـراء الـلي ماسـك زي الحديـد في الخشب!

لكن المستشار الثقافي كان داهية في الحديث وذكره بآيات كثيرة من القرآن الكريم تفيد أن إعادة الخلق أسهل من الخلق أول مـرة، "إيـه يـا راجل، انت ما بتقراش في المصحف ولا إيه؟!". أخيرًا تمخـض الحـوار عن نتيجة مفادها أن يتنازل الأسطى ضرغام عن حقيبته هـو، الأصـغر حجمًا، لي؛ أضع فيها كتبي ويأخذ هو هذه الصحارة الكبيرة...

- أعمل بيها إيه دي يا مولانا؟

- دبر نفسك يا أخي، إن شا الله تربي فيها فراخ!

لكني صممت على الرفض التام لهذه الأفكار وهـددت أن أهـرب من المدرسة إن أجبروني على وضع كتبي في حقيبة الحلاق. كنـت أختـبر جدوى تصميمي، صرختُ:

- مالها المخلاة القماش؟! كل زُملائي يستخدمونها.

عالمٌ جديدٌ ورائعٌ ذلك الـذي دلفـتُ إليـه بـدخولي تلـك المدرسـة العتيقة.

مبنى ضخمٌ يرتفع ثلاثة طوابق، كل طابق بارتفاع طابقين من أبنية هذه الأيام، الشبابيك عالية، ثقيلة الخشب، وللمبنى جناحان، وملحـق بـه مبنـى صـغير نـسبيًّا بـه المعمـل، ودورات الميـاه التـي لا أذكـر أني استخدمتها طيلة تلك السنوات.

وفي الصباح يكون الطابور الفخم في حوش المدرسـة حيـث طلبـة الثـانوي يـستولون عـلى الإذاعـة المدرسـية الرائعـة، إنهـم يتحـدثون الإنجليزية بطلاقة ونحن لم نعرف منها حرفًا واحدًا بعد، وعندما ينادي الأستاذ صابر جويد مدرس التربية الرياضية: "صفا!" يتعالى صـياحنا: "مصر وسوريا"، فإذا ما قال: "انتباه!" نجأر: "بلدٌ واحد!"

- صفا

- مصر وسوريا

- انتباه

- بلد واحد

وفي نهاية الطابور نتحرك اثنين اثنين إلى فصولنا على دقـات مـارش عسكري يدوي في الصدور وفي جنبات المكان، وكان فصلنا في الطـابق العلوي، سنصعد كل هذا السلم الحلزوني العجيب الذي كأنه معلـق في الهواء!

ولم يكن الطابور قد بدأ بعد في صبيحة اليوم الأول عندما ظهر على المنصة رجلٌ ضخم التكوين يرتدي بدلة بيضاء بنصف كم تلتصق بجسده، ويرتسم العرقُ جليًّا في أماكن واضحة منها، أمسك المايك بيده وجأر فيه يدعونا للسكوت فسمعتُ تلميذًا قديمًا يعرفنا به: هذا اسمه الأستاذ حسن مدرس أول العربي، ثانوي مش إعدادي، قلت الحمد لله مالوش دعوة بينا.

– لا، ده اللي بيحط امتحانات المدرسة كلها يا حلو، وبيجيب موضوعات إنشا صعبة. جاب لنا السنة اللي فاتت:

كن كالنخيل عن الأحقاد مرتفعًا

يُرمى بصخر فيُؤتي أطيب الثمر

– يا نهار اسود! شهق زميل بينما أكمل الآخر: امال أنا سقطت في اللغة العربية ليه!

وظللتُ ساعاتٍ طويلة في الليلة التالية أفكر في العبرة من الجُود بالثمر بعد التعرض لوابل الأحجار.. وعلى أي حال فقد انحفر هذا البيت الشعري في ذاكرتي.

وتعرفنا إلى الأستاذ عوض، مدرس اللغة الإنجليزية، قصيرًا كان، ووسيمًا، لكن زميلًا لنا كان يسبقنا بسنة ورسب ويعيد السنة، قال:

– الويل لمن لا يقصده للدرس الخصوصي!

الرجل والحق يقال، يعمل بهمة ونشاط، يرسم الحروف اللاتينية بخط جميل على السبورة ويؤكِّد ضرورة الالتزام بطريقة رسمها، ويردد كل لحظة: "انتبهوا يا شطار!"

بعد حصتين أعطانا الدرس الأول وقرأه لنا عشر مرات وجعلنا نقرؤه خلفه ثم فرادى، ويصحح الأخطاء لمن يخطئ، وفي نهاية الحصة قال:

- اكتبوه عشرين مرة بخط واضح وجميل!

- عشرين مرة؟

- وأراه غدًا.

كنا نراه كلَّ يوم من الأيام الثلاثة الماضية يأتي مبتسمًا، واليوم أيضًا جاء وعلى شفتيه ابتسامة، ولكن شتان بين ابتسامتين. قال:

- كل واحد يحط كراسته قدامه ويقعد مربعًا يديه!

وأخرج كشف الأسماء ونادى تلميذًا: "هات كراستك وتعالَ!" فيذهب إليه. "عملت الواجب؟". فيناوله الكراسة فيحصى المرات فإذا كان العدد تسع عشرة مرة لطم التلميذ على وجهه بكفه القصيرة القاسية. وكنت في الليلة الماضية حاورت أبي في أهمية كتابة عشرين مرة لشيء واحد وسألته: أليست كتابة ثلاث مرات بخط واضح جميل أفضل وأجدى، قال أبي: "نفذ الأوامر واعمل اللي هو عاوزه!"

والآن وأنا أرى زملائي الصغار مثلي، يبكون ويتضرعون غارقين في الرعب والدموع، جعلت أتمتم بلا صوت:

- شكرًا يا أبي ولا حرمني الله من حكمتك! أنت تفهم عقلية هؤلاء!

بعد أن اشتعلت خدود الصغار من اللطمات وأمسك أحدهم أذنه التي سقط عليها القلم وجعل يتلوى، وقف الأستاذ عوض متباهيًا بقصر قامته وفحّ: "من الآن كلامي يُسمع وإلا سيحدث لكم أكتر من ذلك! خدوا بالكو يا شطار!"

وعندما حمل حقيبته خارجًا بعد رنين الجرس سارع في ذيله ثلاثة أرباع الفصل يرجونه أن يحدد لهم موعدًا لدرس خصوصي.

والدرس الخصوصي في بلدنا نطلق عليه: الدرس، فتقول الأمهات: الولد يا ضنايا خرج من المدرسة عالدرس طوالي على لحم بطنه!

عادت الابتسامة تحتل مكانها على وجه الأستاذ عوض الذي عودنا أن يكون مشرقًا. شعره الأسود القصير، اللامع بالفازلين. قميصه النظيف، المكوي دائمًا. يعطينا ظهره ويشب على السبورة ليكتب عنوان الدرس أعلاها في المنتصف، بخطه الجميل، ثم يلتفت إلينا قائلًا: "خلوا بالكو يا شطار!"

وفي أثناء الشرح صار يلقي بعض النكات بين الحين والحين (ليصحصحنا) ويُضفي على الشرح مسحة من التفاؤل. صار ينادي الكثيرين بأسمائهم حتى الضعاف منهم عرفهم عن طريق الدرس، أما أنا فهو ككل المدرسين يعرف اسمي منذ أول حصة.

تمكنت من تقليد خَطِّه وصرتُ أكتب على السبورة غير متهيب بينما بعض زملائنا حين يخرج ويعطينا ظهره ليكتب يحس أن العالم الذي صار خاويًا ينسحب من ورائه ليسقطه في بئر سحيقة، هكذا قال لي بدوي كامل. كان الأستاذ يتابعني وأنا أكتب الكلمات التي يمليها علي، وسألني عن اسمي بالإنجليزية فأجبته، وعن عمري فأجبته، وعن وظيفة والدي وقال مُشجعًا: "فري فري جود!"

بعد قرابة شهرين من الدراسة سألني أبي إن كنتُ محتاجًا لدرس في اللغة الإنجليزية فقلت: "لا"، وتعجبت من السؤال. لكن يبدو أنه كان مصرًّا.

- زمايلك في الفصل ما بيخدوش دروس؟

- كلهم بيخدوا.

- طيب امال إيه؟

وأخبرني أن أحد معارفه ويدعى الأستاذ زكي، يعمل في الشئون الإدارية بالمدرسة، قال له: ابعت ابنك أذاكر له يا عم الشيخ!

كان زكي هذا يهدف إلى جذب بعض التلاميذ كخميرة ولو ببلاش؛ فربما استطاع عن طريقهم جذب زملائهم إلى حظيرته ويغدو مشهورًا أو على الأقل يُحسِّن دخله.

- جرب! حتخسر إيه؟

وذهبتُ حسب الموعد المحدد فوجدت ثلاثة تلاميذ لا أعرف أسماءهم يجلسون على كراسي سفرة قديمة عليها مفرش مهترئ وعلى الأرض هناك لوحة فيها صورة فاكهة في آنية كبيرة يبدو أنها تخلت عن مكانها لسبورة صغيرة سوداء على المسمار نفسه، عليها خط رديء فتعجبت لأن أحدًا من الثلاثة لا يمكنه الوصول إلى هذا الارتفاع فتأكدت أن الخط هذا ينتمي إلى الأستاذ زكي الذي رحب بي وهو يسحب كرسيًّا: "اجلس يا بني، أبوك حبيبي!"

لا مجال للمقارنة بينه وبين الأستاذ عوض، في جلباب قصير، وثدياه كانا كبيرين، وصوته خفيضًا ربما لأن العدد أمامه قليل، يسأل فأسارع بالإجابة والثلاثة الباقون كأنهم الكراسي التي يجلسون عليها.

لم يرتح الأستاذ زكي لوجودي بين هؤلاء، وطلب مني ألا أتكلم حتى أترك الفرصة لغيري، لكنني عندما أغلقت فمي بالضبة والمفتاح وانتظرتُ أن أسمع إجاباتهم لم ينطقوا. ظل يُعيد ويكرر وهم يرددون وراءه ثم يتبسط ويسألهم فلا يجيبون.

- ابنك مش محتاج درس يا عم الشيخ!

كان أبي مبتهجًا وهو يردد ما قاله له الأستاذ زكي. واضح أن نيته كانت التخلص مني كيلا أحبط الآخرين، وكان رأي أبي أن أذهب وأقعد ساكتًا وأسمع وسأستفيد، لكنني لم أقتنع بهذا وقلتُ له يا أبي الأستاذ عوض يشرح بما يرضي الله فقال: طيب روح النهارده بس وشوف حيقول لك إيه!

ذهبت وأنا متضايق، وقفت خارج الشقة مترددًا، ثم صممت على عدم الدخول، ثم غادرت المنزل كأني أنفد بجلدي، ورآني أحد زملائي وأنا أغادر المكان، وفي يدي كتاب اللغة الإنجليزية فسألني ماذا أفعل هنا، ويبدو أن زميلي هذا الذي كان يحتضن كتابه إلى صدره كان ذاهبًا في تلك الساعة إلى منزل الأستاذ عوض، ومن المؤكد أنه هو الذي وشى بي!

ففي اليوم التالي دخل الأستاذ عوض الفصل وقمنا كالعادة لتحيته لكن قلمي سقط على الأرض فانحنيت والتقطته ثم وقفت، كنت في (التختة) الأخيرة، وضع الأستاذ حقيبته على الطاولة الصغيرة التي أمامه ولم يتوجه إلى السبورة كعادته، ولم يُلقِ علينا تحية الصباح فظللنا وقوفًا، وجدته يخطو ناحية (تختتنا) ولم يخطر ببالي أنه يقصدني.

- ست داون!

شرع الجميع يجلسون في أماكنهم وأنا مثلهم بطبيعة الحال لكنه أمرني: خليك انت واقف!

الـصفوف الأربعـة التـي يتكـون منهـا الفـصل اسـتدارت وجـوه تلاميذها لتعرف ما سيحدث. هو الآن أمامي ووجهـه يـشع بالغـضب كأني قتلت أحـد أبنائـه. قـال: مـش عيـب كـل زمايلـك يقفـوا وانـت سكران!

وتطاير الشرر مـن وجهـي عنـدما لطمنـي لطمتـين فكـدت أفقـد الوعي، كانت المفاجأة أقسى من اللطم! أنا الذي أعجب بـه وأحترمـه، بعـد لحظـات تبينـت أن لثتـي وأنفـي تنزفـان. سـقطت نقطـة دم عـلى (التختة) فمسحتها بيدي (فانعاص) كم قميصي. لاحقني بصياحه:

- وكمان بتوسخ الدرج؟ امشي اطلع بره!

لا أصدق ما أسمع، مع ذلك جررت ساقي وخرجـت ذلـيلًا مـن الفصل.

تسمرت إلى جوار البـاب. أسـندتُ ظهـري إلى الحـائط. الـسكون القاتل في الطرقة الموحشة. أصوات بعض الفصول توحي بالعمـل وأنـا غارق في ظلام الرهبة والألم.

"امشي اطلع بره!".

كأنني كلب تبرأ منه صاحبه.

خائف أن يمر حضرة الناظر ويراني منبوذًا هكذا فيلهبني بعصاه.

استدرت مستعطفًا:

- والنبي يا أستاذ!

- أنت قليل الأدب!

- والنبي يا أستاذ!

- بتخاف يعني؟

- والنبي!

كأن كل آلامي زالت وجفت. كان هنالك سؤال مكتوب على السبورة لا أحد يعرف إجابته، صاح فيهم متجاهلا توسلاتي: مفيش حمار فيكم يجاوب؟ فلم ينطقوا. قلت: "أنا أعرف الإجابة؟"

وابتلعت دموعي، ولم أنتظر الإذن منه بل دخلت وأمسكت الطباشيرة وكتبت ما أعرف بخط جميل، دعاني لأقترب منه ففعلت. أمسكني من قفاي ثم من كتفي ثم سألني: "مين إذن لك تدخل؟"

- والنبي!

- بتاخد درس عند مين؟

- ما بخدش درس.

- بتكدب؟

- عمري ما كدبت.

- امال عرفت تجاوب ازاي؟

- انت اللي شرحته الحصة اللي قبل اللي فاتت

- شاطر ياله!، وربت على كتفي، سقفوا له يا ولاد الكلب!

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل وجدت يده تقبض على ذراعي في اليوم التالي، في الفسحة، وجذبني إلى جوف أحد الفصول، وكان ثمة تلاميذ لم يغادروا الحجرة بعد ففروا هاربين عندما رأوه داخلًا عليهم. جلس في (التختة) الأولى وأجلسني إلى جواره وقال:

- بص يا حمادة!

فنظرت. "أنا عمري ما ضربت حد علشان ما بياخدش درس عندي، وكمان أنا بيجيني عيال غلابة بديهم درس ببلاش، وعيال تانيين باصرف عليهم من جيبي، مستورة والحمد لله، لكن اللي زعلني إنك تلميذ ممتاز وبلغني إنك رحت عند واحد مالوش في الطور ولا الطحين، وحيقول للناس شوفوا! فلان تلميذي! ويفتخر بك مع إنك تلميذي أنا!"

- والله يا أستاذ عوض أنا ما باخد درس عنده ولا عند غيره.

- أنا عارف، وإذا عزت درس ومامعكش فلوس أنا تحت أمرك أديك ببلاش! أنا مستخسرك. على فكرة المدرسين التانيين ما بيعرفوش ينطقوا صح، فما بالك باللي ماهوش مدرس من أساسه؟ استنى!

وخرج ثم عاد بتلميذ من الفصل الثاني وسأله:

- قل لي يا حبيبي المدرس بتاعكم بينطق لكم الكلمة دي إزاي؟

قال الولد:

- مشانيكال إنجنير!

- شايف! النطق الصحيح بتاعها مكانيكال وليس مشانيكال!

وكنا في الحصة الرابعة عندما سمعنا الأستاذ خيري ينطقها هكذا بصوته الجهوري لفصل ثانية أول فخرج الأستاذ عوض من فصلنا بعد أن جلجلت ضحكته الساخرة، متوجهًا إلى حيث تُرتكب الجرائم بحق اللغة الإنجليزية، ويبدو أنه تطاول على زميله في المهنة بعد أن أحرجه أمام تلامذته، وانتظرناه لكنه لم يعد إلينا في ذلك اليوم ولا اليوم التالي لأن لكمة كرفصة الحصان دكَّت له وجهه.

بعد العصر كنا نخرج إلى النيل ومعنا الكتاب الذي سنذاكر فيه. غالبًا كان يصاحبني حمدي الروينى. يقول لي: "سمّع لي الكلمات بالإسبلنج!".

ذاكرته من حديد، قوية. يجيد حفظ الكلمات. وأعطيه الكتاب وأقول له: "اسأل!".

نظلُّ نتمشى حتى المغرب فوق الطريق الترابية المحاذية للنيل، الممتدة باتجاه محلة بشر، نذاكر ونتأمل. ويومًا قال لي أو قلت له لا أذكر من منا صاحب الفكرة:

- يللا بنا نخترع لغة!

- لغة جديدة؟

واقترحنا الآتي:

- كلمة أنا مثلًا سنقولها بَش، رسنت معناها أذهب، ري رنِيه فولكس أي إلى الأهرام، بي كرفت أي في القاهرة.

ورددناها معا. [**وما زلتُ أحفظها حتى اليوم**]: "بش رسنت ري رنيه فولكس بي كرفت!". ورحنا ننثرها على الحقول ومجاري الماء والنيل القريب والطريق الترابية والغروب والغيوم المتسكعة في الفضاء.

لكننا لم نخترع سوى هذه الجملة التي بقيت معششة في الذاكرة.

وفي المدرسة كنا نعمل ألف حساب للطلبة الذين يكبروننا بخمسة أعوام أو ستة وربما بسبعة. كانوا في الثانوية العامة ونحن في الأول الإعدادي، ولا نميزهم عن المدرسين الجدد حديثي التخرج الذين كانوا يضطرون للعمل في بلدة بعيدة منعزلة كبلدتنا تلك. أحد الطلبة الكبار ويدعى زين أبو شلوع كان حين يخطر متباهيًا بمشيته يُثير الرعب في أكباد أمثالنا من الكتاكيت الصغيرة فنفر خشية أن يشوطنا بقدمه إن تقابل معنا في الطرقة الخالية.

وفي الفسحة نراهم – الكبار- يلعبون الكرة الطائرة في الفناء ويرتفع تشجيعنا لهم وخصوصًا عندما يفلحون في عمل حائط الصد، ويقفز أحد المدرسين يضرب الكرة بكل عزمهِ لكنها لا تتجاوز الشبكة

فيتعالى صياحنا وينهزم فريق المدرسين شَرَّ هزيمة. وعلى امتداد السور الأوسط والعلوي للمدرسة، أعني الشرفات الممتدة أمام حجرات الدراسة، كانت الطالبات أيضًا يتفرجن على المباريات، وعندما يتعالى تصفيقهن ترتفع الوجوه إليهن ويملأ الصفير أجواء المدرسة، لكني في الحقيقة كنت أخجل فلا أرفع عيني.

أما كرة القدم فكانت مبارياتها تُقام في الملعب الكبير المواجه للمدرسة، ولأنه كان يتحتم أن يفوز أحد الفريقين ابتدعوا قانونًا خاصًّا يحتسب الركنية بربع هدف.

***

كل فصل من الفصول به صَفٌّ للإناث وصفان أو ثلاثة للذكور، ولا أذكر وجهًا من وجوه الفتيات في فصلنا خلال السنة الأولى بطولها ولا الثانية ولا الثالثة، لكني أذكر أن إحداهن كان اسمها ابتسام محمود، لم يبقَ في الذاكرة سوى اسمها فقط؛ لأنها كانت رقم واحد في الكشف، وكلما أراد أحد المدرسين اختبارنا شفهيًّا كان يبدأ بها مناديًا: ابتسام محمود! حدث هذا في الثلاثة أعوام الأولى لنا في تلك المدرسة.

ولأن معظم المدرسين كانوا يأتون من القاهرة أو الإسكندرية ويستقرون فترة من الزمن في بلدنا، فقد أضفى ذلك ثراءً رائعًا على المستوى الحضاري للطلبة، وعلى سبيل المثال مدرس العلوم الذي لم أعد أذكر اسمه ولا شكله لأنه لم يمكث معنا سوى أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر وغادرنا ونحن أشد ما نكون تعلقًا به. اتفق معنا نحن

الصغار أن تكون الخمس دقائق الأولى من الحصة إعدادًا ذهنيًّا وتنشيطًا فكريًّا وتهيئة للنفوس لتَقبُّل الدروس الجافة من المنهج.

كيف؟

قال:

سأحكي لكم حكاية من الخيال العلمي على حلقات.

وها هو يحلق بنا في أجواء كالسحر حيث نهبط معًا على سطح القمر في الكبسولة الفضائية التي وصفها لنا، ونخرج منها متوجسين نمشي على سطح الكوكب العجيب، المجهول، المخيف، والليل يزحف تجاهنا، ثم فجأة نلحظ كائنًا عجيبًا، مستديرًا يتدحرج تجاهنا، يا رب! ما هذا؟ إنه يقبل علينا بدحرجاته المتقطعة، المتعثرة في الأحجار الضخمة، ولا ندري إن كان يرى فينا أصدقاء أم أعداء.

يقترب أكثر وأكثر، ونبحث عن شجرة نحتمي بجذعها فلا نجد، و... الحصة الجاية نكمل يا رجال!

كأنما أضيئت أنوار السينما فجأة معلنة انتهاء العرض.

ينهض ليمسك الطباشيرة ويكتب عنوان درس اليوم.

- والنبي والنبي!

- احنا اتفقنا على إيه؟ الحصة الجاية نكمل! خلاص!

لم يمكث معنا إلا قليلًا وغادرنا محزونين على فراقه.

لكن المدرس الذي انحفر اسمه في ذاكرة الجميع، ونُقش على جدران القلوب بأحرف من محبة، كان الأستاذ أمير فؤاد، مدرس التربية الفنية.

جاء على الأرجح من القاهرة، مدرسًا جديدًا، أنيقًا في مظهره، يدخن البايب، وينتعل حذاء من جلد الماعز لم نَرَ مثله في قدم أحد غيره. وفجأة ظهر نشاطه جليًّا، صرنا نرى مجلات الحائط في ثوب جديد، هو الذي يُضفي عليها الروعة، يرسم مدرسي المدرسة في خطوط كاريكاتورية مذهلة، ويلون ذقن الأستاذ الجبالي الحليقة بالأخضر الخفيف فيدهشنا، والشعر الذي في ساقه المدملجة، وهو يشوط الكرة، كما الشوك في لوح التين الشوكي، نرى المنظر فنضحك. كان الأستاذ الجبالي هداف فريق المدرسين بلا منازع، وهو أستاذ الرياضيات في الثانوي.

بدأنا نرى لمسات فنية من نوع جديد: تمثالًا ضخمًا لجمال عبد الناصر، وتمثالين صغيرين نسبيًّا لفلاحة مصرية وللإمام محمد عبده.

ثم جاءت المفاجأة: جدارية ضخمة تمثل حربًا قديمة بين الفرنسيس وأهالي رشيد، وأحد الرجال يمسك بالتِّرس يتقي به الضربات، مصنوعًا من الحديد الثقيل، لذلك برزت عروق يده الممسكة به، بينما تمكن أحد الأهالي من إنزال جندي أجنبي عن صهوة جواده وبدأ يفتك به بينما عين الحصان كأنها مُدمَّاة، وهناك في البعيد بعض الجنود الغزاة ما زالوا يتوافدون على ساحة المعركة.

تلك اللوحة الكبيرة عاصرنا رسمها، وكان عم بيومي يدخل عليه بالقهوة مرتين وثلاثة في الحصة الواحد ويهمس له:

- حرام يا أستاذ، أنت تظلم روحك كده!

فيتناولها منه شاكرًا إياه. الأثر الذي تركه فينا هذا الفنان لا يمحى، وكذلك البورتريهات التي أبدعها لأدباء ومشاهير مثل مي زيادة والجيوكندا وغيرهما ستظل عشرات السنين باقية على جدران مكتبة المدرسة إلى أن يغتالها المغتالون. وكان يطيب لنا آخر اليوم الدراسي أن ننتظره لنمشي في صحبته حتى تتفرق بنا السبل فيمضي كلٌّ إلى حيث يقيم.

***

في غبشة المساء ألمح أبي وعمي، يدًا في يد، قادمَين من جهة جسر النيل لكنهما لا يتوقفان أمام بيتنا.

أُهرع إليهما. "إلى أين؟ أريد الذهاب معكما"

- هدومك نظيفة؟

يتفحصني أبي مليًّا قبل أن يأتي الجواب من فم عمي الحاج أحمد:

- دعه يأتِ معنا يا شيخ كومي!

وأغتنمُها فرصة فأمشي إلى جوارهما وأنا أخمن إلى أين هما ذاهبان في مثل هذا الوقت من المساء. يجتازان منزل عمتي، إذن فهما لا يقصدانها.

يعبران الشارع العمومي إلى شارع....تذكرت! الشيخ محمد رمضان! إذن هما ذاهبان إلى الحضرة الشاذلية! منذ زمن لم أحضر في حلقة الذكر الخاصة بالشيخ محمد رمضان. الباب يُفتح بعد نداءٍ واهٍ. نجتاز صالة ضيقة. يكون الشيخ قد هُرع تجاهنا. في الحجرة يفتح ذراعيه على اتساعهما، ويعانق عمي أولا ثم أبي قبل أن يواجهني:

- أهلا بالهرَّاب! أهكذا تغيب عن أحبابك يا سي حمادة؟

أتعجب لكونه ما زال يذكر اسمي. قبلتُهُ على خدي دافئة. يكون الجميع قد نهضوا لاستقبالنا بعفوية، ومحبة. رائحة القرفة تعبق المكان.

"اللهم صل وسلم دائما أبدًا... على حبيبك خير الخلق كلهمِ"

ننشد ذلك بين كل بيت والذي يليه من نهج البردة. سنبدأ حالًا:

أمن تذكر جيران بذي سلمِ... أرقت دمعا جرى من مقلة بدمِ

على بساطٍ أخضر كنا جالسين متربعين. الجذوع تميل جميعها جهة اليمين قبل أن تميل في الاتجاه المعاكس، والشيخ يضبط الإيقاع بكفيه، وبصوته الندي ينشد في خشوع والجميع معه: "أم هبت الريح من تلقاء كاظمةٍ... وأومض البرق في الظلماء من إضمِ".

***

وتسأل أمي أبي لماذا هو متضايق. يجيبها: "أختي نفيسة! تؤلمها ساقها، تتوجع وأنا لا أتحمل توجعها، ولا أدري ماذا أفعل!"

- اسأل الأسطى ضرغام!

- لا أريد أن أثقل عليه!

- أم إنك أصبحت لا تثق به؟

يطلب منها إحضار الطاقية البيضاء والعصا.

- سأذهب إليه والأمر لله.

وأتوق لرؤية ما سيحدث فاستعطفه له لأذهب معه. يلينُ أخيرًا ويأمرني أن أنتعل حذائي. ننتظره حتى يحلق ذقن الزبون الوحيد في صالون الحلاقة القريب من مقام سيدي شميل، ونأتي به إلى بيت العمة التي تؤلمها ساقها، تحديدًا فوق عضلة السمانة جهة اليمين. ظَلَّ يُحدِّق باهتمام العالم اللوذعي. ران الصمتُ علينا احترامًا لسكوت الأسطى الذي يراجع الآن في مُخيخهِ تذكرة داود من الجلدة إلى الجلدة.

لاحت على وجهه تباشير انفراجة، وراح يسألها بضع أسئلة ثم كأنما عثر على التائهة: "حبة فول ناشفة هي الحل!"

- عندنا الفول.

- ناشفة كالحصوة.

انتقاها من بين عدد من حبات الفـول ناولتـه إياهـا عمتـي. ثبتهـا مكان الألم وراح يُحكِمُ الرباط الأبيض حول الساق حتى غاصـت حبـة الفول في اللحم، وعمتي تتوجع.

- بالشفا إن شاء الله.

ويخرج فتجذب عمتي جلباب أبي:

- لقد زاد الألم يا كومي!

- ما ضاقت إلا وفرجت بإذنه الله، تحملي يا أختي!

- ستظل هذه المصيبة مكانها طويلًا؟

- إنه يقول خمسة أيام وبعدها نرى.

وبعد الأيام الخمسة يتم كشف ساق عمتي فنجد الفولة الناشفة قد حفرت أخدودًا في اللحم وأنها لم تعد ناشـفة. لقـد نبتـت! يُهـرع أبي إلى صالون ضرغام الذي يقول له: "ضع غيرها مكانها!"

- ناشفة أيضًا؟

- كالحصوة!

وأوصاه أن يغطي حبة الفول بورقة خضراء طرية من شجرة جبَّاد! أخذني أبي في طراوة العصاري نبحث عن الشجرة المذكورة حتى عثرنـا عليها في آخر الجسر مهجـورة لا يكـاد أحـد يحـس بوجودهـا. لا أحـد يزرعها. تنمو حـرة خـضراء مـستحية متفـردة، نقطـف وريقـات منهـا ونمضي على أمل العودة إليها كل يومين أو ثلاثة لنسلبها غيرها.

وسمعنا أن عمتي تبيع منزلها لتشتري غيره أصغر حجمًا، ساعدها أبي في اختيار الزبون. لم نهتم ولم نسأل عن السبب لكننا فوجئنا بأبي يشتري "شاب بقر" ويحضره من السوق إلى منزلنا قائلًا إنه اشتراه بأربعين جنيهًا هي فارق السعر بين المنزلين. العجل إذن يخص العمة وسيربيه أبي لها. ولكن أين؟ لم تكن أمي مسرورة بذلك لكنها لم تنطق حرفًا. المكان بصعوبةٍ يكفينا، فما بالكم بمقاسمة هذا الكائن لنا؟

سيحتل ما يسمى بوسط الدار. ومن المُحتَّم على أمي أن تعتني به وتنظف له المكان وتجمع الروث من خلفه، ولا تتأفف! وإذا سألتموني عن مشاعري فاعلموا أنني كنت مسرورًا وطائرًا من الفرح، أشعر بالفخر والعِجل يتخطى عتبة منزلنا خارجًا في طريقه إلى جسر النيل، وأبي يقبض على غاربه وأنا أتبعه كظله أُخبُّ في جلبابي. كل يوم ينزهه ساعة العصاري. وحدث أن أبي كان متغيبًا لسبب من الأسباب، وكادت العصرية تنقضي دون أن يحظى العجل بنصيبه في التنزه. كل لحظة أُهرع إلى الشارع علِّي أرى أبي قادمًا دون جدوى فاتخذت قراري: "سأخرج بالعِجل أنزهه!"

- إياك!

ووجدتني أفكُّ الحبل ضاربًا باحتجاجات أمي عرض حائط بيتنا، وأخرج بهذا الكائن الجميل الضخم الممشوق الهضيم، وزملائي الذين يلعبون الكرة الشراب أمام منزلنا توقفوا عن اللعب مندهشين يرمقونني!

واستمرَّ يسير خلفي وادعًا إلى أن وصلنا للبراح على جسر النيل والدنيا لا تسعني من الفرحة. طرفُ الحبل في يدي لففته حول معصمي. لم أكن أعلم أن تطويلَ الحبل كارثة إلا بعد أن بدأ العجل يسلم قوائمه للريح وأنا خلفه كقشة في مهبها! دقيقة وبدأت ساقاي تنهاران. استسلمت للسحل!

سحلني المجرم! التراب يملأ أنفي، والتسلخات تكوي جلدي، لكني أجلت إحساسي بالألم ولم أترك الحيوان ينفلت من عقاله. بَعَثَ الله لي من حلَّقَ عليه وأوقفه وراح يُؤنِّبني: "لماذا لم تتركه؟ كاد يقتلك، هل كانت الأرض ستنشق وستبتلعه؟ كنا سنعثر عليه حتمًا"

وعندما مثلتُ أمام أبي الغاضب قال لي على عكس المتوقع، نفسَ الشيء: كنتُ أتركه يجري!

وبعد أشهر بيعَ العجل باثنين وسبعين جنيهًا، وبيعت الدار، واشترى أبي لعمتي دارًا أرحب، وتخلصت أمي من عبءٍ ثقيل.

***

ونعلم أن عم شعبان بائع الفول اشترى مسدسًا صغيرًا ليحمي أرضه التي اشتراها، ورخَّصَهُ، وجاء إلينا ذات مساء وأراه لنا فخفنا أن تنطلق منه رصاصة طائشة.

- لا تفزعوا هكذا فهو في وضع الأمان!

وفي اليوم التالي ذهب أبي معه إلى الغيطان، وكنتُ معهما، وانطلقت رصاصتان استقرتا في جذع توتة. تأكد وجودهما في لحائها. "كويس كده النهارده. بكره بإذن الله نحدد هدفًا أصغر!"

ويجيء العيد ويزورنا عم شعبان فتسعد أيادينا بملمس الشلنات الفضية، لكن عتمة المساء جاءت بما يعكر الصفو ويبذر الخشية.

وكان ما كان...

لم يكن أبي موجودًا بالبيت ساعتها عندما فتحنا له باب الدار فدخل مندفعًا فعبر الصالة ودلف إلى الفسحة. كان واضحَ الاضطراب، مذهولًا من صدمة فادحة، عيناه الزائغتان تبحثان عن شيء، وفي جيبه شيءٌ يقبض عليه بقوة ويخفيه عن عيوننا. سأل إن كان عندنا شيء يساعد على الحفر، منقرة، أو حديدة أو سكين كبيرة. كان يود أن يحفر إلى جوار الجدار ليخفي شيئًا.

استشعرنا الرهبة. لكنه أمسك بالسلم الخشبي وصعد إلى السطح ثم عاد سريعًا... يبدو أنه لم يجد ضالته أو ربما طرأت على باله فكرة، نزل ودخل الكنيف ولم يغلق بابه...

وقال لأمي:

- هاتي جلابية قديمة ألفُّ بها المسدس يا أم حمادة.

صكت صدرها.

- أنا قتلت واحد غصب عني، استري عليَّ!

- يا مصيبتي، واحد إيه؟ بني آدم؟

- إوعي حد يتكلم أحسن أروح في مصيبة!

وكنتُ مضطربًا لدرجة أني لم أدرك ما دار بعد ذلك ولا أين قام بإخفاء آلة الجريمة، وهُرع مغادرًا المكان وهو يطلب منا أن نستر عليه. "والنبي أمانة عليكم تقولوا للشيخ ما يزعلش مني!" وكانت ليلة ليلاء، فلم يكد يمر ربع ساعة، وقبل أن يحضر أبي حتى طرق المخبرون وعلى رأسهم عم أمين الشاذلي، بابَ بيتنا بأكفٍّ غلاظ. خرجتُ إليهم ثم استنجدت بأمي التي كانت ترتعد وهم يسألونها إن كان شعبان بائع الفول مختبئًا عندنا.

- يا ست أم حمادة، اعملي معروف بدلًا من البهدلة! انتي عارفاني؟

- ايوه يا عم أمين.

- ايوه إيه؟ مستخبي؟

- لا، يستخبا ليه؟

- شوفي يا ست، احنا عارفين إنه صاحب الشيخ، ولو كان عندكم والا شفتوه قولولوا يسلم نفسه أحسن له! الراجل ما متش، عايش وموجود في المستشفى، اخلوا مسئوليتكم، انتم مش وش بهدلة.

ومضوا إلى حال سبيلهم وأمي تبحث عن ريقها فلا تجده.

جاء أبي من الخارج فشتمها:

- يدخل هنا إزاي وأنا مش موجود؟

- الباب خبط، فتحنا، بصينا لقيناه في وسطنا، نكرشوه؟ وابنك الكبير كان هنا.

لكنه أقسم عليها ألا تبيت في البيت، فجمعت ما تيسر وبقايا دموعها وخرجت ونحن نبكي. قالت: "ما تعيطوش راح آجي الصبح".

ولم تذهب إلى أمها بل قضت الليل عند عمتي نفيسة.

وتوترت العلاقات بين أبي وشعبان بسبب هذا، ولم يقصر الجاني في حق الجريح، داوم على زيارته في المستشفى واشترى له الأدوية التي يحتاجها، تكفل بنفقات علاجه، وأعطى امرأته وأولاده بسخاء، وتنازلوا عن المحضر، وكان المسدس مرخصًا فهانت المسألة، لكنه ذهب إلى زيارة الرجل في صبيحة أحد الأيام فقالوا له: "تعيش انت!"

تكفل بنفقات الدفن، وناول امرأته مبلغًا من المال جعلها تتمتم:

- الأعمار بيد الله، لا أحد يموت ناقص عمر.

وبعد أشهر سألتُ أمي لماذا انقطع عم شعبان عن زيارتنا؟ فأخبرتني أن السبب كما قال أبي أن صديقًا ثالثًا لهما يُدعى الحاج عم أحمد فاضل تم اعتقاله ضمن الإخوان المسلمين، وأنهم من يومها لا

يلتقيان خشية أن يظن أحدُ المخبرين أن بينهما والمعتقل علاقة ولو واهية، وعندما أفرجوا عن عم فاضل لم يذهب أحد لرؤيته لأن العيون كانت تترصدُ مَن سيزوره ويبلغون عنه، لكن أبي استطاع بعد شهر من الإفراج أن يستخلصه لنفسه دقائق معدودات في المسجد قبل صلاة الجمعة، وسأله عما فعلوه به، فقال: "أقل شيء يا مولانا، أقل شيء النفخ كالذبيحة التي على وشك أن تسلخ". ورفع يديه وصوته: "الله أكبر".

تركه ووقف يتركع قبل صعود الإمام درجات المنبر الخشبية العتيقة.

***

كان أبي في جولته بعد صلاة الفجر يشتري لنا الخبز اليوميَّ من الفرن البلدي عندما دَقَّ علينا الباب فأيقظنا من أحلاها نومة من يقول:

- البقاء لله، الشيخ أحمد الكبير مات.

أمي هي التي تلقت النبأ من الرجل الذي أردف:

- أنتم أهله وناسه ولا أحد له في البلد غيركم.

ولمحت رغم غبشة الصباح على وجهها صفرة الموت. كانت تتأثر تمامًا لمجرد ذكره أو التلويح به، فما بالك وأحد أقاربنا قد توفاه الله توًّا. وأكاد أتذكر رأي أبي في الشيخ وأفعاله: "عاش ما يقرب من الثمانين عامًا يُحفِّظ الناس القرآن". تسأله أمي:

- والأحجبة والرُّقى؟

- لم يعمل قط ما يفرق بين المرء وزوجه. أنا واثق بهذا.

وأذكر أن الجنازة كانت مهيبة.

أحباب الشيخ كُثُر وبلا عدد، فكل أهل البلد حفظوا القرآن على يديه حتى الشيخ كشك ومحمد عبد المطلب! وتواترت الأنباء عن كرامات وإن كانت قليلة؛ فالنعش يمرق سريعًا بمن يحملونه، ويتوقف أمام الكُتَّاب فيتعالى نحيب الأطفال مختلطًا بنهنهات العريف زكريا، والأطفال لا شك مصدومون بقدرة الموت الذي تمكن من صرع شيخهم الذي كان يزلزلهم كزلزلة الساعة للأرض البائسة. وبعد أقل من دقيقة يستأنف النعش الطيران.

عيون كثيرة دمعت، ونفوس كثيرة انفطرت حزنًا على وداعه، ونسوة بلا عدد دعونَ الله أن يجزي الشيخ خير الجزاء على ما فعله من أجلهن من خير وفير.

وجاء إلينا قبل منتصف الليل من أراد الجلوس إلى أبي ليُسارِرَه.

- اعملوا شايًا للضيف.

وتربع الرجل في الصالة على مخدة بينما مدد أبي قدميه على الحصير.

- أحلف بالله يا عم الشيخ أني رأيت بعيني رأسي مساء أمس حمارًا يقف أمام باب بيت المرحوم الذي كان ساعتها يغط في موته، وقام

أقارب زوجته بوضع زكيبة ثقيلة جدًّا فوق ظهر الحمار نخ لها فوقع شيء من محتوياتها على الأرض فجمعوا ما عثروا عليه وقاموا بإحكام الربط، وبعد أن انصرفوا مددت يدي والتقطت هذا!

وأخرج من جيبه ثلاثة ريالات فضية، وأردف وكأنما يجلس على الجمر:

– زكيبة مليانة بالفلوس يا مولانا، ذهبوا بها إلى قرية الزوجة. هذا المال لا حق لها وحدها فيه، البنت ابنتها وليست ابنته، والشرع أنت تعرف ما يقول. أنتم أهله وناسه....

وأبي لا ينطق.

– سامعني؟

– سامعك.

– أنتم أهله وورثته، عنده البيت والكتَّاب، وأربع محلات مغلقة، أتعرف ذلك؟ دكاكين يمكن تأجيرها أو بيعها أو استغلالها بطريقة مفيدة، سامعني؟

– سامعك. اشرب الشاي؟

– ما قولك يا فضيلة الشيخ؟

– اشرب الشاي.

وشرب الضيف الشاي وخرج.

بعد أسبوع أو عشرة أيام سمعنا أن فلانًا اشترى الكتَّاب، وفلانًا اشترى أحد المحلات.

- يا عم الشيخ، أنا قابلت أخاك وقال لي أن أذهب إليك فما قولك؟

- قلت: لا إله إلا الله.

- تبيعني أحد الدكاكين؟

كنا في تلك الفترة نعاني ضائقة مالية حتى إن أمي لم تجد قطعة سكر لتحلية كوب الشاي للضيف فوضعت قطعة من الكراملة في الكوب وظلت تعالجها بالملعقة لتذيبها.

- وحد الله يا شيخ

- لا إله إلا الله

- أنا أشتري منك الدكاكين الباقية جميعًا، وقِّع على هذه الورقة وخذ ما شئت.

- حد الله بيني وهذا الموضوع....

وأخرج الرجل رزمة من الأوراق الحمراء سال لها لعابي وضربت أمي على صدرها من وراء الباب عندما رفض أبي العرض والرجل يسأله:

- يتبيع لغيري؟

- لا لغيرك ولا لك. لن أبيع لأحد.

- ستستغلها لنفسك؟

- ولا لنفسي

- يا عم الشيخ، أرملة المرحوم باعت المنزل والكتاب كما استولت على ريالات الفضة واكتفت بذلك وغادرت البلد إلى عزبتها بلا رجعة. وقع على هذه الأوراق وخذ من المال ما تريد.

فيهز أبي رأسه:

- أبدًا

- لا أنت تريد ولا أخوك يريد؟ نذهب إلى من لنبتاع منه؟

وخرج الرجل كما دخل.

وتذكرتُ القرَص والبكاكين التي لم يمد أبي إليها يده مكتفيًا بشرب القرفة ونحن في زيارتنا اليتيمة لبيت الشيخ، ولم يكن يريد من امرأته أن تعطيني الجعبة الورقية المتخمة.

هل كان يستحرم أموال الشيخ فرفض أن يرث مليمًا واحدًا؟

ورغم شظف العيش وبؤس الحال تمكن أبي من إغراء المال؟

***

كان مـدرس اللغـة العربيـة غائبًـا عنـدما اصـطاد مـشرفُ الـدور العلوي أحدَ المدرسين وطلب منه أن يشغل لنا الحصة مكانه:

- خذهم احتياطي يا شاكر أفندي!

- وديهم الورشة يا أخي عند الأستاذ أديب ودعني أسترح قليلا!

مُتعلِّلًا بأنه أخذ حصة فوق نصابه القـانوني في ذلـك اليـوم، لكـن المشرف أصر وهدده أن يبلغ الناظر.

- الضرب في الميت حرام. خـلاص يـا سـيدي سـآخدهم أوديهـم المكتبة، قراءة حرة يعني! عندك مانع؟

- بشرط تقعد معهم في المكتبة.

ونزلنا اثنين اثنين.

كانت المكتبة وما تزال في الدور الأرضي.

جلسنا على كراسي خشبية متينـة، عريـضة، تظـل ثابتـة إن تقلقلنـا فوقها.

وزعوا علينا مجموعة كتب، كل واحد كتابًا، يبـدو أنهـم يوزعونهـا هي عينها في كل الحصص المملة. تأملت بعض عناوينها السخيفة وهـي في أيدي زملائي. ضرب الأستاذ شاكر يده على المنـضدة العريـضة بعـد أن شدّ نفسًا عميقًا من سيجارته، وقال:

- اسمع يا حمار انت وهو! كل لطخ منكم معاه كتاب يقراه ويلخصه في ورقة ويترك الورقة داخل الكتاب وعليها اسمه، ده اسمه نشاط مدرسي، وأحسن ملخص حياخد جايزة.

لم يأمل أحد بطبيعة الحال أن يتمخض مثل هذا العفن عن أريج وخصوصًا بعد أن سأله تلميذ: "ممكن نعرف الجايزة إيه؟"

- قلم يطرقع عل عنقفة سيادتك!

ضحك الجميع واشمأززتُ، أما التلميذ المتسائل فاحمر وجهه كثمرة طماطم، بعد دقائق بدأ الأولاد يهمهمون ويلغطون فصرخ فيهم:

- اخرس يا ابن القديمة انت وهو أحسن أبلَّعك المداس!

وكان أمين المكتبة قد غادرها عندما دخلنا في صحبة الأستاذ شاكر، لكنه عاد في منتصف الحصة ومعه الأستاذ أمير فؤاد الذي نحبه جميعًا ونعجب به، ومعهما أحد العمال ممسكا بلوحتين مبروزتين، وفي اليد الأخرى شاكوش.

اتجهت عيوننا إلى من نحب، وصعد العامل على كرسي من كراسي المكتبة وناوله الأستاذ أمير اللوحة الأولى ليعلقها. أشرق من داخل إطارها البني الأدكن وجه سيدة جميلة شعرها بني قصير وصدرها رحب بينما راحت تتعاجب في عنقها سلسلة ذهبية تنتهي بقلادة لا يظهر منها سوى طرفها العلوي فقط.

وفي الحال، خشعنا أمام الجمال.

العينان العسليتان سحرتا العيون التي بلا عدد.

قال الأستاذ بسيوني: "اشكروا يا حبايبي الأستاذ أمير اللي أهدى المكتبة مجموعة كبيرة من اللوحات!"

توقف العامل الذي كان يدق مسمار اللوحة الثانية عندما انفجرت المكتبة بالتصفيق. من هذه يا أستاذ؟

قال: "مي زيادة، الأديبة العظيمة".

انحفر اسمها في عقولنا، ووجهها في قلوبنا، وظللنا نحدق إلى جمالها الهادئ مسحورين بالفن الراقي، وسألت نفسي: متى سأقرأ لها؟ إن كانت هي بهذا الجمال فكيف يكون الكلام الذي يخرج من بين شفتيها؟ لكن سؤالا آخر تحفز في الوعي المشتت: هل صاحبة الصورة، لو رأيناها الآن أمامنا، ستوصلنا إلى نفس الدرجة من الانبهار؟

وكنت واثقًا أن الفنان هو الذي لمس قلوبنا بريشته فأسكرنا. لم أعبأ بالمدرس الذي يصيحُ ويشتم كمن يتعامل مع بهائم، وانسربت إلى الأستاذ بسيوني كحيل العين أمين المكتبة، وسألته إن كان يوجد لهذه السيدة كتاب أستعيره.

- أتحب الكتبَ يا شاطر؟

- قوي قوي يا أستاذ.

- ما شاء الله، ستنضم إلى جماعة أصدقاء المكتبة، ما رأيك؟

لم أسامح من قلبي الأستاذَ عوض على القلمين اللذين أطار بهما الشرر من عيني إلا بعد مرور عامين على حدوث ذلك...

كنا قد انتقلنا إلى الصف الثالث الإعدادي، وانتظرنا دخوله علينا في حصة اللغة الإنجليزية كما كان الحال في العامين السابقين، لكننا فوجئنا بمدرس آخر، كشر الوجه، فارع الطول، والعصا في يده يدفع بها الباب ويدخل، وتصادف أن كان تلميذان يتشاجران خلف الباب الموارب قبل دخوله لكنه لمحهما فاحتجزهما بينما هرع الباقون إلى أماكنهم.

- افتح ايدك يا كتكوت انت وهو..

ويظل العود الطري يتأرجح أمام أزيز الخيزرانة اللاهبة، والمدرس الجديد ينتقل بالعصا من يد هذا إلى يد ذاك مصرًّا على أن ينتزع الآهات الثقيلة من قمقمها السحيق. "افتح!" وما زال يتلوى التلميذان، ويكاد أحدهما يركع على ركبتيه متوسلا: "أبوس جزمتك!" بينما "افتح ايدك" تزلزلنا نحن الجالسين في أماكننا، وتجعلنا نتضاءل منكمشين متشرنقين.

وبعد رفصةٍ حازمةٍ في مؤخرة كل منهما دخلا ينفخان في أكفهما المُدمَّاة. قال لنا:

- سنتكم أسود من قرون الخروب يا كتاكيت، كل يوم راح اسمَّع لكم الكلمات الجديدة بالاسبلنج بتاعها، وأي واحد يغلط في حرف نهار أبوه سخام.

وهذا ما فعله طول العام: قوم يا كتكوت! اسبلّ! تعال افتح ايدك!

وينظر إلينا: "أنا يا كتاكيتي، محدش كاسر عيني والحمد لله، مبديش دروس خصوصية، أقعد واحط رجلي في وش أجعص ولي أمر يقول بتضربهم ليه. عشان أعلم البقر لازم العصا.

وكلما مر أسبوع أفتقدُ الأستاذ عوض، كنا نستفيد منه، كان يشرح بإخلاص في المدرسة كما في الدرس، هكذا يقول الأولاد الذين يذهبون إليه في بيته، أما أنا فقررت أن أمتحن اللغة الإنجليزية في الشهادة الإعدادية بحصيلة العامين السابقين، وبشيء مما استطعت بمجهودي الفردي أن ألتقطه من ملخص كتاب الصف الثالث والأمر لله.

ولا أنكر الجانب المضيء في ذلك العام والمتمثل في بعض الوجوه القديمة، الجديدة علينا، من المدرسين الفطاحل، وقد نقشوا ملامحهم على جدار القلب، ومنهم الأستاذ عبد الرحمن جاب الله مدرس اللغة العربية. كان ضخمًا، يملأ الباب، طولًا وعرضًا، جاكيت بدلته طويل كأنه بالطو، مهندم، أحمر الوجه، رقيق البشرة، فخم العبارة، يبتسم بين الحين والآخر خصوصًا بعد أن يغضب من جهلنا، أذكره وهو يردد أبيات شعر الحكمة بكل فخامة ورصانة، ولا سيما بيت من قصيدة دمشق لأمير الشعراء: "وللحرية الحمراء بابٌ..."

ويعطينا ظهره متجها نحو باب الفصل، المرتفع كأنه باب حصن، ويدق عليه بكفِّه الغليظة دقات توقظ الموتى من سباتهم، مكملًا: "بكل يد مضرجة يدق!"

فيزلزل جدارًا مبنيًّا بداخلنا ونحن نتابعه، بل نسترق النظر إلى يده لنرى إن كانت مضرجة!

يقول: "أنا أعاملكم بما يؤسس شخصياتكم، ستذكرون هذا. لا أحبطكم ولا أزرع فيكم الخوف".

ويحكي لنا حكاية سيدة أجنبية رآها لا ندري أين، وكان معها طفلها، ومَرَّ أمامهما جمل على ظهره صاحبه، فأجفل الطفل لرؤية ذلك الكائن الغريب. لم تقل له أمه: ينيلك يا بعيد! بتخاف من إيه يا جبان يا رعديد!، ولكنها أعطت الرجل قطعة نقدية بسيطة ووقفت إلى جوار الجمل تمسح على عنقه الطويل بيدها، وطفلها يرقبها، ثم طلبت منه بابتسامتها العذبة أن يقلدها. في البداية كان خائفا لكنه شيئًا فشيئًا اقترب من الجمل وبدأ يمرُّ على قوائمه بيده الصغيرة...

هذه هي التربية وهكذا أربيكم، أنتم أبنائي، كيف يمكن أن ننسى مثل ذلك الوجه النبيل؟

***

المدرسة الابتدائية التي تربيت فيها صغيرًا لم أعد أذكر اسم ناظرها، وإن كنت حين أدقق التمحيص في الذاكرة أستحضره في جبة وقفطان. ملامحه انمحت وإن كانت الطِّيبة الوادعة ما تزال تقطر من عينيه كندى الصباح.

أما السيد القوني، ناظر المدرسة الإعدادية الثانوية المشتركة، والذي تولى المسئولية بعد التحاقنا بها بشهر أو شهرين، فلا يمكن أن يُنسى.

طوله الفارع، مشيته السريعة، ثم توقفه المفاجئ كأنما قرر شيئًا فجأة، يده في جيب بنطلونه بينما الجاكيت مفتَّح الأزرار، تطويحةُ رأسه الأصلع إلى حد ما، انفراجُ فمه كأنما ليبتسم، ثم تقطيبةٌ مفاجئة، ليست كريهة وإنما متفكرة. أنفه الدقيق، الطويل بعض الشيء، الوجاهة التي إن غابت الصورة كلها يبقى أريجها يتضوع. يصل إلى المدرسة بعد بدء الطابور بقليل. نعلم بوصوله عندما تسري همهمة بيننا كدوي النحل: "الناظر وصل"، فيعتدل في وقفته كل معوج، ويصغي لما يقال في الإذاعة المدرسية، أو على الأقل يتظاهر بالإصغاء، وأحيانًا يقف ليتكلم فيجمل ما رآه بالأمس حسنًا، ويؤكد العيوب التي يتحتم تقويمها، ثم يقرأ من نوتة صغيرة أسماء بعض المشاغبين آمرًا إياهم بعدم التوجه إلى حجرات الدراسة.

- دول يستنوا مكانهم علشان ليا حساب معاهم.

وكانت سيقاننا، نحن الصغار، ترتعد حيث نتصور أنفسنا مكانهم، ونحمد الله أننا لسنا منهم وإن كنا لا ندري ماذا سيفعل بهم.

كنا نحترم هذا الرجل أكثر مما نخاف منه؛ فهو متفاهم وغير غشيم، والمدرسون أيضًا كانوا يبجلونه، وبعضهم كان يحثُّ الخطى أمامنا في أرض الطابور ليسلم عليه بانحناءة مصطنعة. كان يتشاغل عنهم بما هو أهمُّ. وحدث أن صار لمدينتنا حاكم جديد بدأ الناس يتكلمون عنه وعن بطشه من أول يوم، ويذكرون أنه زار المستشفى العام زيارة مفاجئة وعمل العمايل وسوى الهوايل!

قالوا إن له علاقات شخصية حميمة مع السيد المحافظ الـذي يقـال إنه سيشرف مدينتنا بالزيـارة الـسامية خـلال أسـبوعين، سـتكون أول مدينة يزورها في الخطة الجديدة وذلك حبًّا في حاكمها الـذي يعـدُّ الأخ والصديق بالنسبة إليه.

وأذكر يوم جاء وخرجنا لاستقباله منذ الصباح الباكر، ووقفنا على جانبي الطريق الآتي من دمنهـور، هنـاك بعـد المستـشفى، حتـى حميـت الشمس، ولم يأتِ السيد المحافظ سوى بعـد الظهـر وكـان في اسـتقباله بالورود والأحضان حاكمُ مدينتنا، أخوه وحبيبه.

وهُرعنا إلى الصوان الكبير الذي جرى فيه التكريم، وأذكر مما قالـه السيد المحافظ ردّا على مشكلة الغلاء:

بلدنا أسعاره هينة يا أخي، عندك برة في إنجلترا مثلًا دخلهـم كبـير فعلًا لكن أسعارهم أغلى بكثير، بيضة الدجاجة مثلًا سعرها هناك أربعة قروش! فنفخ الناس بأفواههم متعجبين.

ما زلـت أذكـر الـرقم المبـالغ فيـه آنـذاك، وأقارنـه بأسـعار اليـوم وأتعجب.

وأذكر أيضًا الهتافات للمحـافظ وحـاكم المدينـة والطبـل البلـدي والخيول المطهمة الراقصة ثم الموكب وهـو يغـادر، بينما نحـن الـصغار نخشى أن تدوسنا الأقدام.

وفجأة، في ضحى اليوم التالي، انقلبت المدرسة رأسًا على عقب لأن عربة المجلس توقفت أمام بوابـة المدرسـة وترجـل منهـا بهيئتـه المهيبـة

ورجاله حوله ووراءه – رئيس المدينة، والحقيقة أن المدرسة كانت لائقة المظهر، لا شية فيها، وكان الناظر في مكتبه عندما دخل عليه أحد المشرفين لاهثًا:

– محمود بيه هنا يا جماعة!

– فين؟

– يمر على الفصول.

هكذا جاءتنا الأخبار، قالوا إن الناظر تضايق لأن رئيس المدينة لم يمر عليه أولًا في مكتبه ثم يمران معًا على الفصول كما تقتضي اللياقة، بل كان مندفعًا كالعاصفة التي لا تجد أمامها ما تكنسه.

ما أسرع أن مرَّ أمام فصول الإعدادي والثانوي، وعايَنَ الهدوء السائد في المكان، والمدرسين الذين كان بعضهم عندما يشم رائحته يغادر الفصل ويلقي نفسه في أحضانه العريضة، والحاكم يفسر ذلك بحب الشعب له، ويدخلون بعض الفصول ويسأل الطلبة عن أحوالهم واحتياجاتهم، كل هذا وناظر المدرسة في مكتبه لم يُهرع إليه كما يفعل المسئولون في كل مكان يزوره. قال أحد رجاله مفسرًا:

– يمكن يا فندم ماحدش إداله خبر!

ولم يَرَ الحاكم بدًّا من المرور على مكتب الناظر في نهاية الجولة ليرى أية نوعية من الناس هو.

سمعنا بأن الناظر استقبله في مكتبه باحترام حيث أجلسه مكانه واقتعد هو الكنبة الجانبية مع رجال الحاكم، وسمعنا أيضًا أن الحاكم رفض أن يشرب القهوة التي جاء بها عم بيومي الفراش يتكفأ.

كانت الأنباء تتلاحق وتختلط علينا نحن الصغار، وتتشكل في صور مختلفة مبالغ فيها أحيانًا، وكنا مبهورين بما نسمع وكأن حقائق التاريخ تَنكتب أمام أعيننا.

فالذي حدث هو أن الزيارة تكررت بعد أيام، عندما كان الناظر في حوش المدرسة هذه المرة جالسًا تحت مظلة التربية الرياضية، وشاهد البوابة تفتح على مصراعيها، واندفاع الحاكم ورجاله، فنهض مبتسمًا لهم، وصافحهم بعد أن أخرج يسراه من جيب بنطلونه، قال البعض إنه لم يخرجها، ولم يكد يبدأ ترحيبه بهم حتى اندفع الركب تجاه الفصول.

قرر الناظر أن يظل في مكانه في الحوش لأنهم هم الذين لم يرغبوا في اصطحابه. لن يلحق بهم. مسنود مسنود.

انتهت الجولة والتقى الرجلان وجهًا لوجه، وكان الناظر هو المتكلم:

- آمل أن يكون كل شيء على ما يرام يا فندم.

لم يرد الحاكم إلا بابتسامة عريضة، وصافح الناظر عاصرًا أصابعه بيده القوية وكأنما يريد أن يقول له: "سأعصرك هكذا"

ثم اتجه نحو الباب ورجاله يلهثون خلفه.

لا أذكر كم مرَّ من الأيام بعد الزيارة الثانية، ولكنها كانت قليلة على أي حال، عندما حدثت الزيارة الثالثة التي في نهايتها، وبكل ثقة وأدب، كما تحكي كل الروايات، سأل الناظر رئيس المدينة إن كان قد رأى في المدرسة ما يستدعي تلك الزيارات المتكررة للفصول. ألقيت القنبلة أمام الأعين والأسماع، وشخصت العيون ترقبها قبل أن تنفجر وتتشظى.

– أنا لا أتكلم عن زيارة المدرسة لا سمح الله، تعال كل يوم، زرني في مكتبي وخد قهوتك معززًا مكرمًا، لكن المرور كل يوم والثاني على الفصول يسبب ربكة في النظام المدرسي.

– أنت إذن الذي ستمنعني؟

– حاشا لله، ولكن زي ما قلت لك تعال كل يوم، أما الفصول...

يقال إن الحاكمَ ضربَ بقبضته القوية على زجاج المكتب متوعدًا، ولكن البعضَ ينكرون تلك الرواية لأن الزجاج تمت معاينته في اليوم التالي واتضحت سلامته، واكتفت الرواية بالقول إن حاكم المدينة ورجاله انتفضوا كالزعابيب، وكأن وجهه تحول إلى قنبلة ساخنة، ولم يصافح وهو خارج، بل توقف لدى باب المكتب كأنما تذكر شيئًا، وأوعد بصوت مكتوم:

– أنا حاكم المدينة من أقصاها إلى أقصاها، وسأزور الفصول كما أشاء، ولن تكون أنت هنا!

[أسمعتم الجملة الأخيرة، وشممتم رائحة الشياط؟]. كل من سمعوه أكدوا لمن لم يسمعه أن السيد القوني منقول منقول، إن لم يكن اليوم آخر النهار فغدًا صباحًا على الأكثر.

- زمانه اتصل بالمحافظ، والمحافظ أمر مدير المديرية بنقله بلا تأخير!

وكان أغلب ظنهم في محله؛ لأنهم سمعوا أن مكالمة تلفونية فورية أبلغت الناظر أنه منقول إلى محافظة أخرى.

وقال الجميع بلا استثناء للسيد القوني الذي كان حاضرًا في أذهانهم:

- مش كنت تلايمها شوية أحسن؟ طاطي عشان الريح تعدي!

لم يكونوا يعرفون أنه هو الآخر واصل! وأن أخاه عوض على درجة وزير ويخدم مصر في مكان مهم جدًّا خارج البلاد! سبحان الله! الرجل جاءهم بشخصيته ولم يتفاخر بشيء من هذا ولم يذكره، لم يقل لهم إن أخي من أبرز سفراء مصر. لم يقل ذلك، بل عاش بينهم وهو الغريب دون أن يصنع لنفسه هالة غير عمله الذي يعمله.

في اليوم التالي غاب الناظر ووصل من المديرية جواب النقل، والتنفيذ فورًا. سمعنا بذلك نحن التلاميذ الصغار فكدنا نبكي غيابه، وأيضًا بعض المدرسين كانوا متعاطفين معه، أما البعض الآخر منهم فكانوا يضحكون وهم يقلدون حاكم المدينة في جبروته ويقولون:

- الحمد لله أنه لم يضربه بالشلوت! ده راح المستشفى عمل هناك عمايل!

وفي اليوم التالي كنا في أرض الطابور كاليتامى، وكان وكيل المدرسة على ما يبدو قد هيَّأ نفسه أن يقوم بعمل الناظر ريثما يتم تثبيته في العمل الجديد، وقال له بعض المدرسين:

- اضرب بيد من حديد ونحن معك!

كنا نسمع ذلك عندما لمحناه داخلًا من البوابة الحديدية بقامته المديدة ويده ما تزال في جيب بنطلونه بينما ربطة عنق حمراء تتدلى من رقبته! التهبت أيدينا نحن الصغار بالتصفيق العفوي، والتحق بنا المدرسون يصفقون بقوة أكبر عندما رفع السيد القوني يديه يحيينا!

كان الرجل في وقفته هادئًا كعادته، وطلب من المدرسين الذين تجمهروا حوله أن يقف كل منهم أمام فصله.

- خير يا حضرة الناظر؟

- الحمد لله.

- زعلنا خالص لما شفنا الجواب وعلمنا الخبر

- جواب إيه؟

بدؤوا ينسحبون إلى أماكنهم لا يكادون يفهمون شيئًا. بعد دقائق جاءت الأخبار المؤكدة. قال الأستاذ فرحات: "الأوامر كما كنت!"

- يعني إيه؟

- يعني قرار النقل اتلغى.

- سبحان الله، قادر وغيره ما يقدر.

***

كان الأستاذ الجبالي مدرس الرياضيات بالفصول الثانوية معروفًا لدينا نحن طلبة الإعدادي، قبل أن نلتحق بالثانوي ويدرس لنا. كنا نراه في فناء المدرسة يمشي كأنما يتحدر من مرتفعٍ. ونتفرج عليه في الملعب الكبير المقابل للمدرسة وهو يشوط الكرة فتزلزل العارضة. كان في الملعب جبارًا في طريقة دخوله على الخصم، قويًّا صلبًا، شوطته سم! الجميع يهابونه، وإذا ما قارناه بغيره تمنينا أن يأتوا لنا بمدرس ابتدائي ونرسب خيرًا لنا من أن يكون هو أستاذ فصلنا. تلك كانت فكرتنا المسبقة عنه.

عندما رأيناه داخلًا علينا الفصل سابَتْ ركبنا. شاربُه الأسود العريض، ذقنه الحليق يوميًّا والذي يميل لونه إلى ما يكاد يكون أخضر، وجبهته البارزة بشكل لافت، ولا بد أن يمسح السبورة بنفسه حتى لو كانت ممسوحة نظيفة ولامعة.

تغيرت نظرتي إليه بعد أول حصة وإن ظللت أتوجس منه. بعد حصتين وجدت شرحه جيدًا وواضحًا فقلنا الحمد لله. بعد شهر قال:

- الحصة الجاية امتحان.

أكلَ الخوفُ رؤوس الزملاء، لكني لم أكن خائفًا.

وكان الامتحان مكونًا من نظريتين ومسألتين. المسألتان عليهما ٣٦ درجة والنظريتان ٤ درجات. قال: كل واحد سيأخذ أقل من ٢٠ سأكمل له الباقي بالعصا!

ران الخوف على وجوه العديد من الطلبة، وتيقنوا أنهم مضروبون لا محالة، إلا أنهم لم يعتقدوا أن الضرب سيكون مبرحًا وقاسيًا لتلك الدرجة.

الحصة التالية كانت استثنائية جدًّا.

اجتاز الأستاذ الجبالي عتبة الفصل ومعه عصا خيزران جبارة انكمشت لمرآها الجسوم وضاقت الصدور. أما هو فجلس بعد أن مسح السبورة كعادته رغم أن الأولاد كانوا سبقوه وجعلوها تبرق. أخرج أوراق إجاباتنا من حقيبته، بتؤدة، ثم نادى:

- حمدي الرويني: ٤٠ من ٤٠

فدقت القلوب كالطبل. ثم ردد اسمي فخفق قلبي الضعيف، وقال: ٣٦، لأنه تمكن من حل المسألتين حلًّا صحيحًا وترك النظريتين. شغلَ مخه وحل صح، مش حافظ النظريتين، مش مهم! أنا مدرس رياضيات وأقدر الطالب الذكي الموهوب، الفهم عندي أهم من الحفظ. وعشان كده سأرفع درجته إلى ٤٠ من ٤٠، شايفين؟ أنا لا أظلم أحدًا.

ظللت منكمشًا وكأنما خوفًا من أن يرجع في كلامه ويسلبني الأربع درجات. ثم سكتَ لحظات لا أدري كيف مرت على غيري الذين تأكدوا لحظة بعد لحظة أن باب الفرج ينغلق دونهم، وبعدها أردف:

- أما باقي الطلبة فكلهم ساقطون! راسبون!

ترقرقت الهمهمات خفيضة في البداية ثم ما لبثت تعلو وتنتشر وقد أدرك الجميع أنهم مضروبون لا محالة. اندفعوا يترجونه أن يعطيهم فرصة أخرى للمذاكرة لكنه أبَى.

بدأ النحيب يهب من جهة البنات فقال: "لن أضربكن، ولكني سأعاقبكن بطريقة مؤلمة أكثر!"

ونادى أول اسم قائلًا: ٨ درجات، يعني ١٢ عصاية. تعال افتح يدك!

أمسك بالعصا كجزار يقبض على ساطور.

لا أدري كيف تجرأ الطالب وخرج إليه. وظل يضرب والطالب يتلوى وإذا تباطأ في فتح يده يناوله على ظهره حتى يفتح، والضرب على الظهر غير محسوب! وهكذا واحدًا بعد آخر، طوال الحصة والبكاء طاغ، والعويل مصحوب بالتشنجات، والدم يسيل من بعض الأكف، وأغمي على طالبة لم تتحمل فيما يبدو أن يُضرب فتاها! ولا أحد يفتح علينا الباب ويشفع لهؤلاء الذين يجأرون بالتوسل.

في مساء ذلك اليوم تم تحرير تسعة محاضر شرطة في حق الأستاذ الجبالي، وفي اليوم التالي ذهب أولياء الأمور بصحبة أبنائهم إلى مركز البوليس للتنازل عن المحاضر. بعض أولياء الأمور قالوا للأستاذ: "اكسر عظامهم وعلينا تجبير كسورهم ما دمت تعلمهم".

هذا ما كان يقوله كل أولياء الأمور في ذلك الزمن.

بعد أيام عرف عدد غير قليل من الطلبة والطالبات أين يقيم الأستاذ، وصاروا يتلقون عنده الدروسَ مجموعات. ولم أذهب معهم لا أنا ولا حمدي الرويني ومع ذلك ظل يحترمنا ويعاملنا أفضل معاملة.

لو سألتني يوم أن أدمَى أيديهم بلا رحمة، عن تصوري لمستقبل العلاقة بين هؤلاء وهذا الأستاذ لقلت لك إنهم سيظلون يكرهونه طوال الحياة، وبعد المماة سيقاضونه أمام رب العالمين، لكن الذي حدث كان مختلفًا تمامًا...كيف؟

تبدأ الحكاية بنجوى، ابنة وكيل المدرسة. كانت زميلة لنا في الفصل منذ الصف الأول الإعدادي وحتى فارقتنا في الأول الثانوي حين ترقى والدها إلى ناظر، وتحتم عليه الانتقال إلى بلد آخر ونقلها معه. أقول هي زميلتنا من أول المشوار. عندما رأيت لأول مرة عينيها الخضراوين كالبرسيم، ابتعدت مصعوقًا عن المكان الذي كانت فيه، لا أصدق أن وجهًا صغيرًا كهذا يمكن أن يضم فيما يضم جوهرتين كهاتين. كان المدرس قد طلب منها أن تكتب شيئًا على السبورة فلما لم تستطع قال لي أن آخذ منها الطباشيرة وأكتب ما عجزت هي عن كتابته. تقابلنا في

منتصف الطريق، وناولتنيها وهي تبتسم، ربما ابتسامة خجل مَن جانبَهُ التوفيق، وربما لأنها كانت تقول لي في سرها:

- خذ، أرني شطارتك!

مددت يدًا مرتعشة إليها، وأنا تائه في حقول الأخضر الطازج، الناعم، السحيق! وصلتُ إلى السبورة فوجدتها تموج بالخضرة. لم تكن السبورة سوداء في ذلك اليوم. استدرت إلى الأستاذ مستفهمًا ببلاهة مَن لم يعد يذكر شيئًا.

حملتني صيحته إلى مكاني لا أدري كيف. بعد ذلك اكتشفت أن معظم الطلبة يحبون نجوى. وتبينت أيضًا أنهم يكلمونها، وأحيانًا يضحكون معها، هذا يطلب منها أستيكة، وذلك قلمًا، والآخر يسألها عن:

- الحصة الجاية عندنا مين مِن الأساتذة؟!

وأنا بعيد عن كل ذلك أتساءل أحيانًا:

كيف يمكن أن يتواصل شخص مع كل هذا الجمال مجانًا؟ أليست رؤية الجمال أخذٌ حقيقي، فأين العطاء المقابل؟ هل تسخرون مني إذا تعجبت أمامكم، وقلت: "أبوها يراها كل يوم، وكذلك أمها وإخوتها، ولساعات طويلة! يا بختهم!".

وعن طريق نجوى تعلمت شيئًا من أسرار الجمال؛ إن سنتها المكسورة لا تبخس جمالها، بل تزيده. هل يمكن استخلاص نظرية محكمة من ذلك؟ نظرية نحل تمارينها مع الأستاذ الجبالي؟

وتتفرع هنا حكاية:

فعندما وصلنا إلى الصف الأول الثانوي كان طالب من فصل آخر، يكبرنا بعام، يدخل عندنا في الخمس دقائق الفاصلة بين الحصة والحصة، كان يدعى قاسم أبو رضا، وسيمًا كان، بشوشًا، محبوبًا من الجميع، لكنه كان يركز اهتمامه على نجوى.

قيل إنهم جيران في السكن، وقيل إنه يحبها كما يحبها الكثيرون غيره، لكنَّ واحدًا حاقدًا زعم أنها أيضًا تحبه! لم يصدق أحد هذه الفرية!

خصوصًا أنا! بدأت أركز نظري عليه:

يدخل الفصل كعصفور. يتلقاه أحباؤه فلان وفلان وفلان، وغيرهم أيضًا. روحه حلوة، جذاب. هذا لا يمكن إنكاره. يتجه إلى نجوى. لا يتهيب، يكلمها كأنها أخته، تتجاوب معه. عادي. وفي حصة الرياضيات، وبعد المجزرة بأسبوعين أو ثلاثة، سمعت الأستاذ الجبالي يتساءل: "الواد قاسم ابو رضا بيدخل هنا يعمل إيه؟"

كنا نعرف أن قاسم في القسم الأدبي ولا سلطان لمدرس الرياضيات عليه، ومن ثم لن يعرف وسيلة ليزنقه بها. لكن الذي تعجبنا له أن يتساءل الأستاذ عن شيء كهذا وفي العلن. ولم نصدق

صاحبنا الشكاك عندما أخبرنا أن هذا الأستاذ بجلالة قدره، يغار من قاسم!

- يغار؟!

- إنه يحب نجوى!

- من؟

لم يذكر الاسم حرصًا منه وحيطة، لكنه قلده عندما يضرب الطلبة بالشلوت!

هل هذا ممكن؟ ولم لا؟ إنه في السابعة والعشرين وهي في الخامسة عشرة، وهل عندك دليل أو حتى شبهة؟ قال: ستثبت لكم الأيام ما تبحثون عن إثباته!

ونسينا الموضوع حتى كان يوم...انتهت إحدى الحصص وخرج المدرس، فدخل العصفور كما هي عادته، لكن غير المعتاد أن أربعة من فتوات الفصل، خرجوا يستقبلونه في المساحة الفاصلة بين (التُّخَت) الأمامية والسبورة. حوار سريع يُظهر اعتراضهم على حركاته السخيفة، ثم لكمةٌ مباغتة طالت وجهه، ورفصةٌ في ظهره تمكن أحدهم من تنفيذها على الطاير فأسقطته، وأمسكه الاثنان الآخران يقيدان حركته، بينما انهالت لكمات من كل جانب تؤكد أن الأمر كان مبيتًا له بليل.

كنت أراهم يضربونه وهم يتلذذون! من هم؟

الذين ذاقوا الضرب من الأستاذ الجبالي حتى دميت أكفهم، ومِن بعد ذلك صاروا من جنوده المخلصين. بإشارة واحدة فهموها قاموا بالواجب وزيادة. هكذا وفي لحظة، يصير الشخص المحبب ممقوتًا، ويتم ضربه بأعصاب بارده، وبأداء يرضي المحرض، حتى وإن لم يكن ثمة اقتناع. المهم إنجاز العمل على الوجه الأكمل.

نقلوه في سيارة أجرة إلى طبيب فذلك أفضل من المستشفى وسين وجيم، واستشرى اللغط، ومن يا ترى المحرض؟ لكن الأستاذ خليل عيسى مدرس الرياضيات بالإعدادي استدعاني في اليوم التالي من الفصل، ومشيت إلى جانبه حتى حجرة المدرسين، مضطربًا كنت، ولا أدري إذا سألوني عن شيء بماذا سأجيب. دخلت هذه الحجرة لأول مرة خلال أربعة أعوام. كانت غاصة بأساتذة المدرسة، قال لهم الأستاذ خليل:

– هذا هو حمادة، أنا عارفه، تلميذ مجتهد، وأعرف والده وعمه وجده، ناس أفاضل محترمين مافيش كلام. هوه اللي حيقول لنا الحقيقة وينورنا! وعلى فكرة يقال عنه إنه شاعر!

التقط الخيط الأستاذ حسن الخطيب الذي كان جالسًا في مكتبه في آخر الحجرة وصاح: شاعر بمغص؟! فزادت سخريته من اضطرابي وإن كنتُ واثقًا أنه لا يقصدني وإنما التعليق يخصُّ الكلمة المذكورة. مع ذلك فساقاي ترتعدان، أسناني تصطك. ماذا سأقول؟

سألني إن كان قاسم أبو رضا يكثر من دخول فصلنا، قلت نعم. سألني عن السبب، قلت: لا أدري. سألني: ماذا كان يفعل في الفصل؟ قلت: يتحدث مع هذا ويضحك مع ذاك...

- بس؟

- ما شفتش منه غير كده.

- يعني ماكانش بيعاكس البنات؟

- يمكن كان بيتكلم لكن ما بيعاكسش.

لم أكن أريد سماع مثل هذه الأسئلة ولا أريد أن أجيب عنها، كنت أود أن أدخل في الموضوع مباشرة وأعرب لهم عن شكوكي، لكن ...

- لماذا ضربوه؟

- أكيد أحد الأشخاص حرضهم عليه.

- أكيد؟

- جايز.

- حد زي مين؟

- اسألوهم.

- نحن نسألك أنت.

وطلب لي كوب ماء لأني ظللت أكح كحة مكتومة. كان لساني أشبه بصنفرة الخشب. (ناشف حطبة).

قبل أن ينتقل أبوها من البلد إلى مدرسة بعيدة ويأخذها معه سمعنا أن الأستاذ جبالي طلب يدها وأن أباها تعلَّل في الرفض بصغر سنها وأن أمامها مشوارًا طويلًا في التعليم. قال البعض إن الوكيل ترك البلد حفاظًا على ابنته، وقيل بل بسبب ترقيته، ولم نهتم نحن بتمحيص الأسباب.

صارت المدرسة بعد ذلك التاريخ خالية من نجوى.

***

سمعنا عن صيف البلاجات والمايوهات لكننا لم نمارس مثل هذه الحياة ولم نَرَها رأي العين. الصيف عندنا حرارة وعرق ولزوجة، وخروج وقت العصاري إلى النيل، بالصنانير والطُّعم، ثم العودة مساءً ببعض الأسماك الصغيرة، لكن أبي قال: "سأعدُّ لكم مفاجأة، تعرفون الشبكة التي تصيدون بها الفراشات؟ سنطبق هذه النظرية على صيد السمك!" واشترى عصا خيزران طويلة جدًّا كان قد بحث عنها في الأسواق الأسبوعية وأوصى البائعين حتى جاؤوا بها إليه وهم حائرون ماذا سيفعل بها. هي أطول منه ثلاث مرات. حملها لا أدري لمن، وطلب منه أن يجعلها دائرة حقيقية، لا تنبعج من جانب ولا تميل من ناحية، ثم طلب من أحد معارفه الصيادين أن ينسج لها شبكة من خيط الغزل المتين، وسأله الصياد مندهشًا، لا شك، ما الذي سيفعل بها.

بقيت معضلة تثبيت يد طويلة متينة بالدائرة بحيث يمسكها الشخص الذي سيصطاد السمك.

تخونني الذاكرة فلا أتمكن من استرجاع شكل تلك اليد ولا كيف يمكن أن تتصل بالدائرة الخيزرانية ولكني متأكد على أية حال أن ذلك قد تم بشكل من الأشكال.

تساءلت أمي وهي تمني النفس بوجبة سمك شهية:

- ألا يهرب السمك عندما يرى تلك الداهية في طريقه؟

أجابها إن السمك لا يمكنه أن يَرى في موسم الفيضان. المياه تكون متخمة بالغرين الخصب القادم من الجنوب حاجبًا عنه الرؤية.

- مسكين!

تتعاطف أمي مع السمك كما تتعاطف مع العصافير والنمل.

ورحنا أنا وإخوتي ننتظر يوم بدء العمل بهذه الشبكة العجيبة. حاولت رفعها ممسكا يدها الطويلة فكادت تأخذني وتسقط على الأرض.

الشبكة تكون أثقل عندما تُمسك من طرف يد أطول.

وظللنا كل يوم نتعجل أبي فيقول لنا: "غدًا بإذن الله".

يبدو أنه كان ينتظر أحد معارفه ليأتي معنا لكن ذلك لم يحدث فاضطُرَّ أن يخرج بدونه. قال: "لن نذهب إلى النيل، سنجرب الترعة البحرية أولًا".

- كما تشاء يا أبي وإن كانت الأسماك في النيل أكثر.

- ولكن الترعة أكثر أمانًا.

معه حق، فالنيل وحشٌ ضارٍ هذه الأيام، ينحت الأرض ويجرفها، ويتوغل في أراضٍ جديدة. تأتي المراكب بكتل الأحجار فتلقَى في النيل لتعزيز الرؤوس الحجرية المقاومة للتيارات الجارفة. المياه في لون الطحينة السمراء، وينصب الصيادون سنانير كثيرة بلا طُعم فيعلق بها السمك الذي فَقَدَ الرؤية.

قام أبي بلفِّ الشبكة حول الدائرة واليد الطويلة، وحملها ونحن ننطلق معه نطير من الفرحة بهذه التجربة الفريدة.

سعادتنا غامرة، استشرافية. أوهامنا تُصوِّرُ لنا الأسماك التي سنعثر عليها في الشبكة العجيبة بعد أن نُخرجها من الماء، أشكالا وألوانًا: قراميط تجأر وتكافح وكأنها تحارب، بياض مستكين يفتح فمه العريض ويموت سريعًا، بوري نشويه ونلتهمه في فرح غامر، بلطي يخرج ناشرًا زعنفته العليا في شموخ متذمر...

تركنا البيوت خلفنا وسرنا في طريق ضيقة حتى وصلنا إلى الترعة.

عرضها حوالي أربعة أمتار لا تزيد وغير بعيدة عن المقابر.

لمحت شجيرات صفصاف على اليسار يغسلن شعورهن الخضراء في مائها الجاري، وشجرتين لا أدري ما نوعهما، هائلتين، أمامنا مباشرة على بعد ثلاثين مترًا تصفر الرياح في أوراقهما المدلاة المدللة.

انتظروا هنا لحظات. النسيم ليس العليل وإنما المترع بالصحة ينبعث منه الهبوب الآن. املأ صدرك معي، املأ! لاحظَ أبي اندفاعَ الماء في المجرى. لم نفهم نحن شيئًا لكنَّ وجهه لم يكن مسرورًا. ملامحُه لم تكن مستبشرة.

فرَدنا الشبكةَ وأمسكها أبي من اليد الطويلة وأمالها إلى الماء ونحن نرقبه. دقائق ويظهر السمك. نسمات العصاري جفَّفت عَرَقَنا تمامًا، وأزاحت عنَّا التعب. فرحتنا بما هو آتٍ تفوق ألفَ مرةٍ الجهدَ الذي بذلناه. غطست الدائرة الخيزرانية في الماء الأسمر. تقلصت ملامحُ أبي لأن المقاومة كانت شديدة.

التيارُ يدفعها دفعًا، وأبي لا يقدر على الثبات في المواجهة. عليه أن يتحرك ضد التيار كي يدخلَ الماء في الدائرة مُحمَّلًا بالسمك!

لم تمر دقائق حتى كان قد بذل جهدًا خارقًا، وبدأ يَظهرُ ارتعادٌ خفيفٌ في إحدى يديه. لن يصمد طويلًا على الأرجح.

- أرني يا أبي!

رأيتُ أن أتناولها منه لأريحه دقيقة لكنه خاف أن يجرفني التيار.

- ماذا كنا سنفعل إذن لو كان ذهابُنا إلى النيل؟

راح أبي يُخرج الشبكة ببطءٍ وعيوننا معلقة بها نترقب بلطية بيضاء تلمع في الشمس فلم نجد. قلنا سيستريح لحظات ثم يعاود المحاولة لكنه أصدر الفرمان:

- سنرجع اليوم ونعاود غدًا.

شهقنا جميعًا شهقة مستنكرة فهدَّأ من روعنا:

- ألم أقل لكم إن خروجنا اليوم تجربة لنتعلم من أخطائنا؟ أعدكم أن نأتي ثانية بعد إجراء بعض التعديلات على هذا الاختراع.

في طريق العودة قابلنا الأستاذ جيكار وتساءل وابتسامة تملأ وجهه:

- ما هذا يا مولانا؟ هل كنتم تصطادون الوز العراقي؟

توجَّه أبي إلى صديقه الصياد ونحن معه، واقترح عليه فكَّ الشبكة وإعادة تركيبها بطريقة أخرى: "عصا من هنا وعصا من هناك وبينهما خيط الغزل، ويمسكها اثنان". اندهش الصياد: "يا أستاذ كومي! سأقترح عليك اقتراحًا يا مولانا: أن تأخذ أنت القارب والشِّباك كلها، وآخذ أنا السبورة والطباشير والعيال وأقوم بالتدريس لهم. ما رأيك؟"، مع ذلك قام الصياد بإعادة تصنيع الشبكة بالطريقة التي أرادها أبي، وذهبنا ولكن إلى النيل هذه المرة! في الطريق قابلنا خالي محمود العشري فحذرنا من النيل وجبروته، لكن أبي أصرَّ على التجربة فقال خالي: "رجلي على رجلكم!"، وذهب معنا. وكان منظر النيل مخيفًا، المياه تتحرك مندفعة، بُنية غامقة، في لون القهوة، أو الطحينة، تحس بها ثقيلة وإن كانت سريعة الحركة. بعض الشبان يصطادون باستخدام السنانير وبدون طُعم. يقذفون السنارة ثم يجذبونها إلى أعلى فتلطش في سمكة

عابرة. شمرَ خالي جلبابه وعقدهُ على جنبه، وخلع حذاءه ووضعه على الشاطئ وأمسك الشبكة من أبي وقال: "عنك يا شيخ!"، ونزل. في كل يد يمسك عمودًا من أعمدة الشبكة، ويغطسها في الماء ويخرجها. وأخيرًا رأيناها تلمع كالفضة تحت الشمس: بلطية كبيرة! هللنا. ناولني إياها وحذرني: "إياك تفلت من يدك!"

قبضتُ عليها بقوة وإن كنتُ أتمنى أن أداعبها بحنان. كم هي جميلة ومفعمة بالحياة! وكبيرة! ستفرح بها أمي! ما زال خالي في الماء ينزل بالشبكة ويصعد ولا سمكة أخرى! صرختُ لأن السمكة غافلتني وقفزت فوق الصخور. يداي خاليتان منها. حاولنا القبض عليها دون جدوى. تسللتْ في خفة ومرونة وانسربتْ في الماء. تجهم وجه أبي وقال بحنق: "كفاية كدة يا حاج محمود، النيل خطر عليك!"

ورجعنا مبهوتين!

***

لم يكن الصف الأول الثانوي سيئًا كما توقعته قبل أن يُظلني. أؤكد أني توقعته سيئًا كدِرًا ولا أدري السبب، ولم أحاول حتى الآن معرفة سر تلك المشاعر المنقبضة العدائية التي استقبلت بها ذلك العام الدراسي. لم أكتئب وأنا أستقبل عامًا دراسيًّا جديدًا كما حدث لي عشية تلك السنة.

لا تبرير عندي لذلك الإحساس الكامد، القلق، الموحش، الضارب في القتامة.

في الإجازة السابقة أذكر أننا أخذنا نصيبنا من اللعب، كالعـادة، في نهر الشارع، وأحيانًا في جانـب الـساحة، وأحيانًـا في الوسـعاية الترابيـة خلف مقام سيدي شميل.

أمور عادية لا تستحقُّ البكاء عليها بعد انصرامها. لكني وأنا أتهيـأ للمدرسة مُقبلًا على ذلك العام كنت أنزف من الداخل.

أعود قليلًا في الزمن وأجـدني واقفًـا أنتظـر نتيجـة انتهـاء المرحلـة الإعدادية، في المكان نفسه أمام محل بيع الجرائد، وسميرة كما هي عادتها، تأخذ الشلنات من الناجحين، ربما كانت تجمع البرايز هذه المرة، لا أذكر تحديدًا، المهم أني نجحت وبمجموع كبير، وأكلنـا المكرونـة وانبـسطنا، وبدأنا نفكر في المرحلة المقبلة. في العـشية زارنـا الأسـتاذ عبـد العلـيم، المستشار الثقافي لأبي إن كنتم نسيتم، وقال: "الثانوي العام أفـضل بـس مشواره طويل، إيه الرأي؟" قال أبي: "وكمان يوجد معهد المعلمـين وده يؤهلك تبقى مدرس ابتدائي زي حالاتنا".

قال المستشار، وفيه كمان مدرسة الـصنايع، ممكـن بعـد مـا تخلـص تفتح مخرطة، ورشة نضيفة، بس دي مش سكتك!

سألني أبي "إيه رأيك؟ تدخل ثانوي عام زي حمدي الرويني؟!"

لماذا هذا التحديد؟ دائمًا يتحدثون عنه وكأنه القدوة! والحقيقة أنني كنتُ ألاحظ أشياء غريبة في هذا الصديق الحميـم، مـثلًا ونحـن نلعـب الكرة في الشارع، ونضطر أحيانًا أن نفعل ذلك غير منتعلين أية أحذيـة،

كنت عقب اللعب أرى العرَق اللزج في رجلي وساقي قد أمسك بطبقة سوداء من التراب ولصقها في الجلد فأظل أفركها بيدي قبل أن أدخل المنزل وأغتسل، أما هو، حمدي، فكأن قدميه لا تعرقان! وكأن ثوبه لا يتسخ!

هل ملابسه من النوع المقاوم للوساخة. أما أنا فأدخل على أمي فتطلب مني أن أريها ظهري فترى (البُرش) القذر خلف مؤخرتي فتنهرني لأنها نصحتني مرارًا ألا أجلسَ على عتبة منزل إلا وقد وضعت أسفل مني ورقة جورنال قديم أو إذا اضطررت فالاحتياط الواجب أن أثني ذيل الجلباب كي يكون الاتساخ داخليًّا غير ظاهر للعيان.

- قوم اقلع هدومك أغسلها لك!

وقررت ألا ألعبَ حافيًا، وصار الحذاء الوحيد المتاح ينفتق من الجنب كسمكة الرنجة عندما تتعرض للهب، وأذهب به كل يوم لعم فريد الذي كان يحتل جزءًا من الرصيف قريبًا من مدرستنا حيث السندان، لا أدري ماذا يسمونه، نصفه السفلي منغرس بالأرض بينما لسانه الحديد يغوص في جوف الحذاء، وفي حركة ميكانيكية يسحب عم فريد المسامير من فمه واحدًا بعد آخر ثم يدق بالشاكوش جابرًا الفتق، وكم عانيت تلكم المسامير التي كانت أحيانًا تنفلت من عقالها وتندسُّ في قدمي!

أجلس إلى جواره حتى ينتهي، أراقب ظهره الذي ينوء بأثقال سبعين عامًا حتى صار كسنام الجمل، ولا يتركني حتى يحكي لي نتفًا من قصة حياته التي يقول عنها: "كلها عِبَر وفوايد!"

سأنقطع عن التعامل معه تمامًا فيما بعد والسبب ستعرفونه في حينه.

القصد، بعد طول المباحثات قلت لأبي: "كل اصحابي رايحين ثانوي عام".

- خلاص، على بركة الله.

إذن سأظلُّ في نفس المدرسة التي أحببتها منذ دخلتها أول مرة بعد الاندهاش بمنظر المساطر الطائرة، لعلكم تذكرونه، فلماذا الضيق إذن؟ لا أدري.

لم أنم تلك الليلة التي سأكون في صباحها طالبًا ثانويًّا حتى اخترعت ما خفف عني بعض اللواعج.

ظللتُ أحسب عدد الأيام الفعلية في العام الدراسي فوجدتها مئتين وعشرين تقريبًا، قلت: "غدًا سأذهب إلى المدرسة وأقول في نهاية اليوم: مرَّ واحد على مئتين وعشرين. سيمر اليوم التالي أيضًا وأقول: "مر واحدٌ على مئة وعشرة، ويومان آخران وأقول: مرَّ واحدٌ على خمسة وخمسين".

وأضحك! الأيام تجري سريعًا والمقام يتقلص بينما البسط واحد! لم أشأ أن أعاقب توهاني بقولي: "عندما يمر واحد على اثنين فليس معنى ذلك اقتراب نهاية العام، بل سيكون ما تبقى من السنة واحدًا على اثنين أيضًا!"

***

كأنما أسمع أمي تلوم أبي: "الباعة الجائلون يمرون أمام البيوت ويتوقفون لبيع ما معهم من كل شيء، وأصحاب العربات الخشب ينادون على الطازج اليانع، النساء ينتقين من البضائع ما يروقهن، ويساومن حتى ينزلن بالأسعار إلى النصف، فلماذا تضطرنا للتعامل مع محمد الخضري الذي لا يترك ابنك يلمس بأصبعه ثمرة طماطم أو ربطة سبانخ؟"

أضحكُ لأني أنا الذي أذهب إليه وأرى إصراره على إقصاء يدي جانبًا عندما أحاول تغيير ثمرة بطاطس أو كوسة. يبعد يدي برفق صارم قائلا: "أنا الذي أنتقي لك أجود ما عندي إكرامًا لوالدك الشيخ كومي. أبوك حبيبي وصاحبي".

وأقدم له النوتة فيكتب بها السعر الذي يروقه دون مساومة؛ فالجنيه الحاضر هو الذي يساوم بدلًا من صاحبه، أما النوتة (المكعمشة) من كثرة ما عبثت بها الأيدي فيلفها السكوت.

ويكون أولُ يوم في الشهر ثقيلَ الوقع على أبي. يجمع النوتات ويحسب الحسابات ويوائم بين ما فيها من أرقام وبين ما يقبضه من عمله بالمدرسة، وينفخ في يده ويكاد يهجم عليه المغص اللعين، ثم يصل إلى قرار يضطر إليه اضطرارًا: ألَّا يدفع المبالغ كاملة.

الذي له ستة جنيهات يقول: "يكفيه خمسة هذا الشهر ويتم ترحيل الجنيه إلى حساب الشهر التالي".

ويعطيني نوتتين تخصان محمد الخضري وعلي الجزار وهما متجاوران.

يمسك الخضري بالنوتة والفلوس ويحسب الحسبة ويعيد إحصاء النقود قبل أن يتمتم: "فاضل جنيه".

- لم يعطني أبي غير ذلك.

فيسجل المبلغ في النوتة ويضم إلى الحساب الجديد ما تبقى من حقه علينا" "قل للشيخ حساب الشهر الجديد سيكون ثقيلًا".

ويسألني: "هل ترى هذا الدكان؟"

- بتاع الجرائد؟

- عليك نور. اذهب لعم السيد القطري وقل له يعطيك الأهرام أقرؤها وأعيدها إليه.

فأفرح بتقديم خدمة إليه عسى ينتج عن ذلك صداقة بيننا فلا يصدني عندما أنتقي ما أشتريه منه. أتوجَّه إلى دكان الجرائد حيث الآنسة سميرة التي حدثتكم عنها عند ظهور نتائج الامتحانات العامة فهي التي تتولى تبشير الناجحين والناجحات مقابل خمسة قروش.

وطبعًا يتم ذلك تحت إشراف عم السيد القطري الذي لم يكن يتواضع ويتفاهم مع أحد وخصوصًا مع طفل مثلي. أبلغته رغبة عم محمد الخضري في نسخة من جريدة الأهرام على سبيل الاستعارة يقرؤها ثم يعيدها إليه.

– ما شاء الله ما شاء الله

– هو الذي قال.

جعل يسحب النسخة من رصة الجرائد ولا يعطيني إياها ويقول لسميرة: خلي بالك!

ويتقدمني صائحًا: تعالَ!

نصل حالًا إلى الفرش فيهتاج صوته:

– من أنت حتى ترسل إليَّ مرسالًا للشحاتة؟ تخشى أن تعفر نعلك هذه الخطوات؟ ثم مَن أنت حتى تقرأ الأهرام كل يوم؟ سعد باشا زغلول أم البكباشي عبد الناصر؟

ومحمد الخضري يبتسم دون رد بينما السيل المنهمر ما يزال جامحًا:

– وزير؟ سفير؟ وتقرؤه بلوشي؟ ماذا استفدنا منك؟ ربطة جرجير؟ حزمة ملوخية؟ لا شيء يا سيدي!

ويناوله الجريدة ويجلس مكانه على الكرسي.

– اقرأ وأنت واقف ما دمت لا تدفع!

وأظل أنا واقفًا لا أدري إن كانت مهمتي قد انتهت ولكني ما أزال مغرمًا بمتابعة الحوار بين الكبار الذين يضحكون مع إن منظرهم لا ينبئ أنهم يضحكون أبدًا.

– أنا أدخل على مأمور القسم وأقول له: أنا السيد القطري وكيل الأهرام، طلباتي كذا وكذا فيلبي دون تردد. أما أنت فتبيع الطماطم المفعصة المدودة على النوتة! اسفخس!

وتتناثر الضحكات في السوق، لا أحد يزعل من أحد. وتستهويني روح المرح تلك فلا أبرح مكاني حتى يعود وكيل الأهرام إلى دكانته المكدسة بالصحف..

عندها فقط أدخل بالنوتة إلى دكانة عم سعد الجزار الذي يلاصق حانوته مباشرة عربة عم محمد الخضري. أعطيه الفلوس ناقصة جنيهًا أو جنيهًا ونصفًا فيضيفها إلى حساب الشهر التالي ويسألني إن كنت أريد لحمًا فأجيب على الفور: "يوم الخميس!"

***

ولا أذكر بالضبط إن كانت إدارة المدرسة قد أمرتنا بلبس الملابس الكاكي التي تسلمناها من أجل حصة الفتوة، التي كان يدرسها لنا بكل جد وانضباط الشاويش أحمد عبد العزيز، الذي كان يعاملنا وكأننا على خط النار، وخصوصًا البيادة الثقيلة التي كنا ندقُّ بها على بلاط الفصل، لكن الذي أذكره أن الطلبة لم يكترثوا طويلًا بالأوامر، خصوصًا والفصل مشترك، يضم بناتٍ وبنين، فكانوا يلبسون ما يطيب لهم من القمصان والبنطلونات والجواكت، وإذا ما اعترض عليهم أحد كانوا يخرجون القميص الكاكي من حقائبهم ويضعونه فوق أكتافهم تتدلى أكمامه دون اكتراث.

أما الحذاء الميري، البيادة ذات الرباط الطويل الذي نُدخِلُه في فتحات بلا عدد بطول رقبتها، فلم يلتزم به أحد غيري! لا أذكر أن أحدًا وضعها في قدميه وذهب بها إلى الفصل غيري، والأدهى من ذلك أن أبي كان قد اقترح أن أذهب بها إلى الجزماتي ليصنع لها حدوة حديدية صغيرة لتظل صالحة للاستخدام طيلة الأعوام الثلاثة فقد لا يسلموننا غيرها ونحتار من أين نشتري بيادة أخرى.

قالت أمي إنها لا تحتاج ذلك فهي أقوى من الحديد، لكني نفذت رغبة أبي وكأني أعاقب نفسي على ذنب لم أقترفه، وعندما دخلت بها الفصل لأول مرة راحت كل العيون تتابعني وأنا أدقُّ بها على البلاط كأني أعلق جرسًا يصلصل في قدمي. لكنهم تعودوا ذلك مني وفشلوا في إقناعي بالتخلي عنها. أتذكر الآن أن أشياء جيدة كانت من سمات ذلك العام.

فعلًا. ففيه تعرَّفتُ الشعر الجاهلي وأدمنته، واعترضت بشدة على المدرس الذي ذكر لنا هذه التسمية!

– مش أنا اللي سميته كده!

– لكنك لم ترفض التسمية بينك وبين نفسك. هل طرأت لك هذه الفكرة من قبل؟

ووجدتني أعرف أشياء لا يعرفها المدرس حديث التخرج.

صرت أتحدث معه باستفاضة، في كل حصةِ نصوص، ذاكرًا المفردات الغريبة التي بدأت أتمثلها وكأني واحد من هؤلاء الشعراء المحرومين المتعطشين للهوى واحتضان الجمال.

امرؤ القيس كأنه صديقي الحميم، بحثت عن معلقته في نصها الكامل وأخذت أرددها حتى في منامي، وعنترة الذي يود تقبيل السيوف لأنها كما تعلمون لمعت كبارق ثغر عبلة المتبسم.....وأما الأطلال والدمن التي تتراءى لي في الخيال فجعلتُ أُلقي عليها السلام كما فعلوا: ألا عم صباحًا أيها الطلل البالي.

وفي أواخر العام تعرَّفتُ قصص محمد عبد الحليم عبد الله، وتمثَّلتُ الإنسان المتمترس في أعماقه، وأحمد رامي الذي يتعذب في عشق ثومة، حبيبة صمتي التي بدأت أنقب عن روائعها وسنباطياتها. وفي هدأة الليل، حيث السكون مختلطًا برائحة الجاز من اللمبة التي أطفئت توًّا يأتيني الصوت القوي، والحاني معًا، يتردد كأنما بين وديان سحيقة وجبال يلفها السموق: "أروح لمين واقول يا مين ينصفني منك! ماهو انت فرحي وانت جرحي، وكله منك!"

لم أعد أذاكر كما ينبغي، بل رحتُ أنهل من الرومانسيات شعرًا ورواية وأغنية، لكن هذا المدرس الذي أحسست كأنه أحيانًا يتحاشاني، شجعني أيضًا.

سأحكي لكم أشياء عنه. أول حصة كانت له عندنا، كان يرتدي بدلة لونها أبيض، سمني بالتحديد، بنصف كم. فتح الزِّرَّ العلوي ليظهر

شعر صدره فيهابه الطلبة. كان فيهم من يُقاربه في السِّن. مع ذلك رأى أن يتقرب إليهم. وعندما جرَّه أحدهم في الكلام راح يتحدث عن الحمار عندما تستبد به الغلمة ويهجم على الأنثى فترفصه وهو مصر على القفز فوقها، وراح متبسطًا يصف الغرمول المنتصب والضحكات تتناثر في الفصل وتعلو وتنتشر فيدقُّ على الطاولة ليسكت الضاحكين ولا يفقد السيطرة على الفصل.

وينظر الطلبة بعضهم إلى بعض معجبين بهذا المدرس الجديد الذي يتقرب من عواطفهم المشبوبة، وفجأة قال: "أريد أن أسمع منكم من يصف لحظة الوداع بأسلوبه ولا يقول كلامًا محفوظًا".

دخلنا في الجد ويجب أن نهدأ ونترك ما كنا فيه من خروج على النص، لكن زميلنا سلام العريف قال له: خلينا في الـ.. أحسن!

ضحك الطلبة وتأكد للأستاذ أن الموقف يُحتِّم عليه فرض الحزم.

- تعال!

- من؟

- أنت تعال!

وخرج إليه سلام العريف يجرُّ ساقيه ويده في جيب بنطلونه، ففاجأه بلطمة قوية لم يكن أفاق منها عندما تلتها أخرى وثالثة، ودق الجرس فأنقذه من التعرض لمزيد من اللطمات.

خرجنا من الفصل إلى الحوش في الفسحة نجرُّ وراءنا ضحكاتٍ ديست بالنعال، ضحكات معفرة بالتراب. كان مكاني في آخر (تختة) وإلى جانبي فتح الله مطر، بينما فتوح الشنيطي وأحمد أبو الكل في (التختة) الأولى أمام المدرس تمامًا. وفي حصة التطبيق تعمَّد المدرس الذي أحكي لكم عنه الآن أن يأتي بأسئلة صعبة خصوصًا في الإعراب، وجلس بعد أن كتب الأسئلة على السبورة ثم قال:

- اللي يخلص يجيب كراسته قدامي هنا.

انتهيتُ من الإجابة بسرعة، وخرجت إليه فوضعت كراستي على الطاولة التي أمامه كما قال، لكنه كان منشغلًا بإحصاء الغياب اليومي فلم يلمحني، ووجدها الطالبان الأماميان فرصة وتناولا كراستي وأخذا ينقلان منها الحل.

هو يعرف أنهما ضعيفان في الإعراب. سألهما: "انتهيتما؟"

وتناول منهما الكراستين. نظر فيهما وابتسم:

- مش معقول. لا يمكن. الكلام ده من دماغكم؟

وانتبه إلى أن كراستي أمامه فأخذ يقارن الإجابات ويهز رأسه مرددًا: ما شاء الله، غش علني، عيني عينك. قم يا له!

وهات يا ضرب!

طاخ! تستغفلونني ياد انت وهوَّ؟

***

ويجيء مولد سيدي إبراهيم الدسوقي فيقول زميلي في الفصل سعد القلفاط:

- ما رأيك؟ نذهب أنا وأنت؟

عرضتُ الأمر على أبي فاعترض خفيفًا بحجة ازدحام المواصلات في تلك المناسبة.

قال سعد وكان جريئًا:

- إن لم نجد مواصلات ذهبنا ماشيين.

في محطة الأتوبيس انتظرنا حتى لمحناه قادمًا من بعيد، ممتلئا على آخره كان، قلنا سينزل الركاب ونركب، فلم ينزل أحد لأنهم كانوا قد ركبوا من البلاد القريبة ليعود بهم إلى دسوق، مع ذلك ركب عددٌ كبير آخر انحشروا حشرًا حتى كادوا ينفعصون أمام عيوننا ونحن نرقبهم من على الطريق واجمين، قال سعد:

- وتاكسات الأجرة نفس الشيء.

- وبعدين؟

- المسافة أكثر من عشرة كيلومترات بقليل.

- أظنها خمسة عشر

- زي ما تكون، يالله بينا!

أمسك يدي يستحثني مؤكدًا أننا سنصل خلال ساعة ونصف على الأكثر. نمشي!

أخذنا طريق النهر، مررنا بقرى لا نعرف لها اسمًا، وكلما بدأ التعب يتسرب إلى إدراكنا قاومناه بجدية أكثر. عند ملتقى إحدى القرى بالنهر كانت امرأة تفرش ببرتقال أخضر في بشائره. لم نكن رأيناه في سوق بلدنا بعد. اشترى كل واحد منا برتقالتين بقرش صاغ، قشرنا بأظفارنا وما زال طعم لذة ذلك البرتقال في ذاكرة اللسان.

المهم أننا وصلنا إلى مشارف كوبري دسوق القديم، وكان علينا أن نجتازه حتى الجزيرة، ثم نعبرها ونسير على كوبري الفرع الآخر من النهر حتى نضع أقدامنا التي غزاها التعب، على مشارف المدينة. سألني سعد إن كنتُ قد تعبت، فقلت له:

- لاحظ أننا لن نقعد لنرتاح، بل سنمشي لغاية الصبح!

يصدنا الزحام، لكننا اخترقناه.

كان الغروب قد فردَ ملاءته على المدينة الصاخبة.

أول ما استرعى انتباهنا تكالب مجموعة من الناس على طاولة لا ندري ما وراءها. اقتربنا فإذا برجل طويل كزرافة، في جلباب مخطط بالأزرق، يلعب الثلاث ورقات وينادي:

- بشلن تكسب شلن.

غمز لي سعد الذي يبهجه أننا وفرنا أجرة مواصلات، ففهمت أنه يغريني باللعب؛ فإما أن نخسر الشلن الذي وفرناه وإما أن نزيد مكسبنا.

قال الرجل: الشلن يكسب شلن، من يلعب؟

فوضعت بريزة كاملة فوق الورقة التي ظننتها كاسبة.

قال: "بشلن؟"

قلت واثقًا: "بالبريزة كلها"

وصممت. رأيت الرجل كأنما خاف أن أُفقِدُه نقوده عاد وسألني فأكدت كلامي بثقة. لا أذكر إلا تعالي صيحات السخرية بعد أن رفع يده عن الورق، وعلمت أني أضعت أجرة السفر ذهابًا وعودة!

نظرت إلى سعد فوجدته يطمئنني دون كلام، لكنه لعب بشلن ليعوضني بعض خسارتي. خسر هو الآخر.

مشينا صامتين نجرُّ أقدامنا الواهية، وضمائرنا المتقرحة. أسلمنا أنفسنا لموج الزحام. من كل البلاد يأتون. نبهني إلى شيء: "لو واحد منا ساب إيد زميله مش حنعرف نتقابل أبدًا". "معك حق. هات إيدك" وعصرنا أصابعنا عصرًا".

الأضواء والكهارب، الضوضاء والزحام. الربح والخسارة، الطيبة والاستغلال، لم نأكل من ساعة لقمة الظهر التي أكلناها في بيوتنا سوى

البرتقال. المشي الكثير زاد من إحساسنا بالجوع ورغبتنا في الأكل. قال سعد: "نصبر حتى نصل إلى مشيخة الطريقة الـ"... وذكر اسمًا لم يعلق بذاكرتي، قال إن أحد شيوخها من أقربائه. "الصبر طيب. ما تستعجلش على رزقك!"

فوجئنا بمن ينادي من مكبر صوت صغير يحمله في يده:

- السينما بتسعة مليمات.

قلنا ندخل، حتى لو كان الفيلم بلا طعم ولا رائحة فإننا سنكسب راحة أقدامنا. سنجلس ساعة أو أكثر. دفع كل منا قرش صاغ وتناول بالمليم المتبقي حبة كراملة. دخلنا فلم نجد كرسيًّا واحدًا في المكان. لا لنا ولا لغيرنا. الجميع وقوف كالأشباح!

شاشة بيضاء مفرودة على حائط بينما أغنية "وطني حبيبي الوطن الأكبر يوم ورا يوم عمال يتحرر"، إذا لم تخني الذاكرة، كانت تلعلع، والناس يقولون إنها تمهيد للفيلم، لا يهم أن نقف ما دمنا سنستمتع بالفيلم. وأضيئت الأنوار بمجرد انتهاء الأغنية فتبدت قذارة المكان، وظهر بعض الفتوات يحثون الناس على الخروج ليدخل غيرهم.

- والفيلم؟

قال سعد: "اخرج في سكوت وإلا ضربونا!"

وبعد دقائق سألني بلهفة: "سمعت ما سمعت؟ ينادون هناك على السيرك بأربعة مليمات!"

قلت سنتفرج على خروف مربوط ويقولون لنا إنه أسد!

- تعالَ!

- فين يا سعد؟

- ندفع نصف القرش وناخد حبة كراملة بالمليم ونشوف إيه الحكاية.

دخلنا وأنا ناقم، لكن كل هذه الأعداد المتوافدة ليست ناقمة مثلي فيما يبدو.

نسلكُ في ممر طويل، نتدافع لضيق المكان حتى وجدنا أنفسنا نخرج إلى الشارع الآخر الموازي لذلك الذي دخلنا منه. وبعض الفتوات يدفعوننا لنخرج فنجد أنفسنا في دوامة الزحام يبحث كل منا عن يد الآخر كي لا نتفرق. لا يمكننا مكافحة كل هذا الزحام لنعود إليهم، وحتى إن عدنا ماذا بأيدينا نفعله؟

- كده يا سعد؟

لم أكد ألومه حتى وجدت أبي أمامي. كأني وجدت ضالتي. فرحتُ به فرحًا شديدًا. أعطاني عشرة قروش قائلا: "اصرف وانبسط!"

سألته: "سأشتري بها الحمص؟"

قال: "لا، سأشتريه أنا"

وسلم على سعد وسأله عن أبيه الشيخ ما أخباره. قلت لسعد:

- معنا فلوس شوف انت عاوز إيه!

- ولا حاجة، تعال نتعشى.

بمجرد سماعي كلمة "نتعشى" تحركت أحشائي ترقبًا بهيجًا لمأدبة فاخرة. ظللنا فترة طويلة نبحث عن مشيخة الطريقة التي ذكرها لي صاحبي حتى عثرنا عليها، كانت الحضرة في ذروتها، والذكر في أوج اشتعاله. لكن سعد استطاع أن يستخلص قريبه ذاك من بين الجموع بمهارة عجيبة. يدخل من هنا ويدور من هناك ويسأل هذا وينـدسُّ في تلك الكتلة البشرية ويدي قابضة على يده كيلا نتوه. أخيرًا عثر عليه وهمس في أذنه:

- فيه أكل؟

قال: تعال يا حبيبي!

ومشيت معهما إلى منعرج خفي دلفنا إليه، وجيء لنا بالعظم المكسو باللحم، كميات كبيرة، وكان بعض العظم نفسه طريًّا فقرقشناه، وتلَذَّذنا بصوت القرقشة تلَذُّذَنا بازدراد اللحم كما انسجمنا مع القرفة التي تناولناها بعد ختام فصل من فصول الحضرة. سألني سعد وهو موقن بالإجابة: "إيه رأيك؟"

- آخر تمام!

فإذا بقريبه يأتي ويسألنا: "لعلكم جعتم. أحضر لكم العشاء؟" اندهشنا وقلنا إننا لم نهضم بعد ما أكلناه. قال: "الحضرة والذكر وهز الجزع يساعد على الهضم. هيّا نأكل". لكننا شكرناه وانصرفنا.

ولا أترك ذلك العام الذي بدأ معاديًا لمشاعري، دون أن أذكر أحداثًا أخرى...

كان لنا زملاء من الريف يأتون ويقطنون في شقق يؤجرها أصحابها للطلبة؛ فالمواصلات في تلكم الأيام كانت صعبة وشحيحة، وخصوصًا في الشتاء حيث تنقطع معظم مواصلات القرى. وكان لي صديق من هؤلاء يُدعى عبده القرنفلي، كان أكبر مني بعامين لأنه رسب سنة، وفي البدء دخل المدرسة كبير السِّنِّ بضعة أشهر، بينما دخلت أنا صغيرًا بضعة أشهر، فاتسعت المسافة الزمنية بيني وبينه لكننا تصادقنا جيدًا. وكنتُ وأنا ذاهب إلى المدرسة صباحًا أمرُّ عليه هو والساكنين معه في الشقة فأجدهم يشربون الشاي بعد الإفطار ثم ينتهون من استعدادهم ونخرج معًا، كانت الشقة في طريقي إلى المدرسة.

وألاحظ البؤس الذي هم فيه، وعدم النظام، كل شيء مُلقًى في أي مكان، سلاطة، هرجلة، مزاح ثقيل، شتائم بالأم في كل جملة، حركات خارجة، بهدلة، كل هذا مصحوب بالضحك العالي والضرب بالأيدي والأرجل. لكن عبده قال لي: "سيبك منهم دول حبة عيال، خليك معايا" وسألني إن كنت أقبل المذاكرة معه مساءً، فوافقت بعد تردد.

الحجرة التي هو فيها له وحده، أما الحجرتان الأخريان فمكدستان بالزملاء الغلابة. سهرنا مساء اليوم الأول نذاكر، وكان عنده رغبة يتعلم، ويعرف أن بإمكانه أن يستفيد من طالب متفوق مثلي، وكان بالشقة كهرباء فقلت ما أجمل أن أهجر اللمبة الجاز قليلًا. شجعني على

السهر النور غير المؤذي للعين. قال عبده: "سأنام نصف ساعة وعليك أن توقظني". قلت: "بل يكفي هذا". فاعترض وتمسك ببقائي قائلًا إنه لم يحل واجب الرياضيات بعد ويخاف من الأستاذ. لم تمر لحظات حتى علا صوت تنفسه في سكون الليل، رتيبًا عميقًا متناغمًا. لسعتني موجة برد مباغتة. كان هنالك حِرام قديم موضوع على الكنبة. انتقلت إليه وفردته على ساقي. ولم أشعر إلا وقد سحبني النوم لطيفًا سهلًا ومراوغًا. لا أدري كم مر من الوقت قبل أن أكاد أسمع من يناديني وكأنما من تحت الأرض. يتكرر اسمي في فضاء الروح وكأنما لساني مربوط أو واقع تحت تخدير ثقيل فلا أستطيع النطق فأرد على النداء. طرقات تدوي كأنما على باب بعيد في نهاية نفق مظلم لا بداية له. فجأة تبينت أن الصوت صوت أبي. فزعتُ. جلستُ في مكاني على الكنبة. الصوت يظهر الآن جليًّا. دفعت الحرام بقدمي وهُرعت لأفتح له وشددت الغطاء عن عبده وناديته وأنا أغادر المكان فاستيقظ. خرجت لأبي وأنا أداري خجلي. لم أجده ثائرًا ولا غاضبًا. ظنَّ أني خفتُ أن أعود إلى البيت ليلًا فآثرت النوم عند زميلي. شكرًا يا أبي. لم أنطقها بلساني وكنت وأنا سائر إلى جواره وفي يده العصا يطوِّح بها أرتعد من البرد.

لم أمرَّ عليهم إلا بعد أيام، وكان ذلك اليوم عطلة بمناسبة أحد الأعياد الوطنية، فوجدت الشقة نظيفة مرتبة، والأولاد مستحمين، مفرفشين، قلت "إيه الحكاية؟" قال عبده: "هنية!"

فانفجروا ضاحكين، ثم سألني وهو يغسل براد الشاي:

- أعمل لك كوباية شاي مظبوطة على مزاجك ونبدأ المذاكرة.

وكانوا ما يزالون يضحكون.

وألحت عليه أن يخبرني فقال: "مافيش يا أخي، دي واحدة غلبانة، أنت عارف أبوها، عم فريد بتاع المراكيب، الذي يفرش قدام سور المدرسة، تأتي كل أسبوعين تنضف لنا الشقة".

لكنه ونحن وحدنا في حوش المدرسة وشوشني أنها تفعل أشياء أخرى، مقابل قرش صاغ من كل واحد، يعني لو عاوز تجرب حالك وتتمرن على الرجولة ادفع لها قرش صاغ بس!

أدركتُ بصعوبة أن أشياء كبيرة وغير طبيعية ومحيرة تدور هنا حيث أقف الآن، كأن يتحرك جبل على قدمين أسطوريتين ويظل يمشي في غبشة الليل حتى يصل إلى البحر فيلقي بنفسه ويغرق، أو سحابة لا تمشي مستقيمة بل تظل تميل باتجاه الأرض حتى تجد نافذة مفتوحة فتنحشر فيها وتُغرق كل الناس في ذلك المنزل. لا أكاد أصدق ما أسمع ولا أتخيله بخيالي!

قاطعتُ ذلك المكان نهائيًّا رغم أن عبده عدد أسماء الزملاء الذين فعلوا وفعلوا وحكى طرائف عنهم مريعة، ثم سألني: "يعني أنت أحسن منهم؟"

وصرت وأنا ذاهب إلى المدرسة أدير وجهي إلى الناحية الأخرى كلما اقتربت من موطن الفساد ذاك.

وكان بيننا من يُدعى توفيق، كان أبوه عاملًا بالمدرسة لكنهم ليسوا من هنا بل من بعيد، وكان زميلنا هـذا لاعبًـا مـاهرًا في الكـرة الطـائرة، طويلًا مفتولَ العضل، كفُّ يده كخف الجمل من كثرة ما ضرب الكـرة بقوة ساحقة. يقفز ويضرب. قـال لي تعـال نـذاكر مـع فـلان، لا أذكـر اسمه، يسكن في شقة عند أسرة طيبة، ثم همس في أذني: "المرأة الساكنين عندها مؤدبة ومحترمة لكن عليها شنطة تبص لها ما تشبعش!، ووراكهـا من تحت الجلابية الخفيفة ملفوفين لف!".

هززت رأسي: "اسكت يا توفيق! أنا ما بذاكرش مع حد!"

لكني آخر العام ذاكرت مع حمدي الرويني. فوجئ بي داخلًا عليـه وقد دعاني للمذاكرة، حـين لم يجـد معـي كتابًـا مـن كتـب المدرسـة ولا ملخصًا من الملخصات فسألني ما هذا الذي ستذاكره؟

قلت: "رواية من أجل ولدي!"

بُهتَ! بدا وجهه ممسوحًا كأنما لا يفكر في شيء، لكنـه كـان شـاردًا بحق، طلب مني أن أسأله ويسألني في اللغة العربية، فأخذنا نـستعرض قوتنا بأسئلة معقدة فوق مستوى طالب الصف الأول الثانوي، ونجيب باستعراض.

قال بعد ساعة: "نذاكر مادة أخرى"

قلت: "ذاكر أنت ودعني مع الرواية!"

كنت قد تعرفت إلى محمد عبد الحليم عبد الله، وأخذني إلى عالمه الاجتماعي الرومانسي. صار هو والشعر الجاهلي أفيونتي!

مال عليَّ بمسألة في الرياضيات قائلًا إن الأستاذ جبالي نفسه يمكن أن يحتار فيها. قلت له: "هذه رواية المرأة في صورها الأربع: زوجة وأم وعشيقة ولا أدري ما الرابعة، نسيتها!

نسيتها الآن لكني ذكرتها له في حينه.

وحدثته عن "لقيطة" في دقيقتين ريثما يستريح من مسائل الرياضيات.

وفي هذا العام نفسه قرأت "إني راحلة". أدهشتني الرواية التي تؤكد أن الحب شريعة الوجود، لكن حمدي الرويني الذي قرأها في إجازة العيد كتب على غلافها الداخلي: "إنها الرواية الخالدة".

كنا اتفقنا مع الأستاذ بسيوني كحيل العين أمين المكتبة أن نعمل معه الجرد السنويِّ لكتب المكتبة في مقابل أن يسمح لنا باستعارة ما نشاء وخصوصًا في فصل الصيف. مع ذلك كانت تقابلنا اللوائح بالصعوبات والإجازات تعترض رغباتنا.

ولا مصدر لي أنهل منه الروايات ودواوين الشعر غير مكتبة المدرسة. وذات يوم ونحن في الفسحة دخلت المكتبة كعادتي أتصفح الكتب فأشار لي الأستاذ بسيوني بيده ورأسه فقصدته فأكمل إشاراته فاقتربت منه بأذني ليوشوش لي: أريدك بعد الدراسة فلا تنصرف حتى

أراك. ولمحت ديوان علي الجارم بأجزائه الأربعة أمامه على المكتب. مددت يدي وتناولت الجزء الأول، كان الورق فخمًا والطبعة أنيقة. أربعة أبيات أو خمسة في الصفحة تحتها شرح للكلمات الصعبة أتوق إلى معرفتها توقي لقراءة القصائد. كنت في تلك الفترة أبحث عن قاموسي الخاص الذي سأستخدمه طوال حياتي الأدبية المفترضة. هذا الكتاب الضخم المشروح يمكن أن يعينني. سألته: "ممكن أستعيره؟" قال: "بعد الدوام أراك. لا تغفل عني!".

وخرج التلاميذ من المدرسة وتلكأت لأرى الأستاذ بسيوني ولمحت اثنين من الزملاء كانا في انتظاره أيضًا، أشار إلينا فدخلنا المكتبة. جاء فراش ليكنسها فقال له: "تمهل حتى نخرج". وكان يقوم بتسطير ورقة كتب فيها أسماءنا وطلب منا التوقيع فوقعنا ثم استفسرنا منه فقال: "حالًا ستعلمون!". أمسك بديوان على الجارم كاملًا ففرحت لأنه سيعيرني إياه. خرجنا إلى حوش المدرسة فدخل الفراش ليكنس. "اسمعوا يا حبايبي" وكنا قد اقتربنا من برميل الصاج الذي يحرقون فيه الأوراق التي يجمعها الطلبة من فناء المدرسة بعد الفسحة. كانت رائحة الدخان ما تزال رابضة فيه. "جاءت إشارة من المديرية بحرق هذا الكتاب!" لم أصدق ما أسمع. استأنست الصدمة بصعوبة حتى أتفهم الموقف. "هذا الشاعر يمدح الملك في معظم قصائده، وربما كان هذا هو السبب في صدور مثل هذا الأمر بإحراقه كيلا يوحي للتلاميذ بما يخالف توجهات الدولة". صرخت فيه: "أعطنيه ولن يعلم أحد! لقد وقعنا

على إحراقه وتلك شهادتنا معك فلا تحرقه وأعطنيه!". وخففتُ من لهجتي كيلا أستثير غضبه، وحايلته، ولو كان يجدي البكاء لبكيت لكنه لم يتراجع وأشعل عود الكبريت وأدرت وجهي للناحية الأخرى والنار تلتهم الكتاب وحرارةُ الغضبِ والنارِ تلفح وجهي.

***

لا توجد عندنا في المنزل ذخائر كتب تلائمني. بعض المجلدات أعادها أبي إلى مكانها في الدولاب القصير (التخين) بعد أن أزال الأكواب منه منهيًا عهدَ المعمل الخاص بالراديو. كلها كتب فقه وتفسير. أتذكر تفسير النسفي القابع في ورقه الأصفر القديم. كُتب المعهد التي كانت مقررة عليه قبل أن يستدعوه ليقطع دراسته عقب وفاة والده. ثمة بؤرة حنق في صدره ترقد عميقًا.

ذات مرة، وكنا سائرين على النيل قبل المغرب ساررني.

قال لي إن الحياة غريبة ومربكة!

تهيأت لسماعه تهيؤًا تامًّا؛ فمثل هذه اللحظات نادرة الحدوث.

- جدك عليه رحمة الله أنفق على عمك وعلَّمَه حتى أكمل دراسته في المعهد الأزهري بالقباري، وحصل على وظيفة ملائمة، وتقاضى راتبًا مجزيًا، وانتقل جدك إلى رحمة ربه وأنا طالب بالمعهد نفسه. تم تقسيم الميراث بشرع الله، كلهم يقولون هذا: بشرع الله، لي نصيب كنصيب عمك، ولكل عمة من عمَّاتك نصف نصيب الواحد منا. عمك معه

فلوس من وظيفته التي ساندته وعاونه أبوه طيلة مدة التعليم وأمده بالمال ليحصل عليها. فاهمني؟ اشترى نصيب عمتيك الاثنتين. صار له في البيت ضعف الذي لي، فاهمني؟ هو موظف ميسور الحال، وأنا بعدُ طالب، مات جدك وقد أنفق على عمك الكثير. ألم يكن الواجب على الأخ الأكبر أن يقوم معي بمثل ما قام به والدنا معه؟ أو على الأقل بنصف ما قام به والده معه؟ أعني أن يتولى رعايتي حتى أكمل تعليمي وأصير مثله؟

لكن الذي حدث أنه قال لي ما معناه: "كفاية عليك كده!"

توجهت إلى أختي نفيسة فقالت القول نفسه كأنما حفظت الجملة عن ظهر قلب لتقولها لي. وأيضًا أختي خديجة. الكلام نفسه.

شرع الله!

هكذا يظن جميع الناس أن ذلك شرع الله!

أنا لا أتهم عمك، حاشا لله! بل هو أخي الذي لا أخ لي غيره.

وبعد يومين بعث مَن يُحضر حاجياتي من الحجرة التي كنت أؤجرها في القباري فرجعت ودموعي على خدي. هذا حظ الصغير من الكبير.

أنا لا أحقد عليه فهو مشهود له بالطيبة والورع، وشيخ جليل، موقر، لكن ما ذنبي أنا في تأخر مجيئي إلى الدنيا؟ عمومًا أنا أتكلم بصيغة عامة ومن حيث المبدأ. جعلت أودع زملائي الذين تفوقت عليهم في

أشياء وتفوقوا عليَّ في أخرى، وكنا سعداء مع مشايخنا وأساتذتنا وكانت لنا معهم حكايات.

هل تسمع الشيخ فلان الذي يلقي كلمة في إذاعة صوت العرب قبل تلاوة القرآن ليمهد له؟ كان أجهلنا وأغبانا! ليس معنى هذا أننا كنا جهلة وأغبياء لكنها اللغة! فاهمني؟

لو كنت أكملت تعليمي يا حماده!

وعندما وجدني متأثرًا من أجله، ولكي يرفه عني باح لي بسر:

كانت هناك من تدعى عزيزة! لا يمكن أن أنساها! وفي الوقت نفسه لا أذكر منها أي شيء سوى اسمها؛ لهذا سمَّيتُ أختك باسمها.

- كنتَ تحبها؟

- مش فاكر غير اسمها، وإن بلكونة شقتهم كان تحتها قهوة. الكلام ده مرت عليه عشرات السنين. آه! زمن!

ويردد بحرقة لا أدري إن كانت من الذكرى أم من التحسر على الشباب الذي تولى أم من استحضاره بيت الشعر الملتاع:

وإني لتعروني لذكراك هزة ... لها بين جلدي والعظام دبيبُ

ويكرره مغيرًا العجُز:

وإني لتعروني لذكراك هزة ... كما انتفض العصفورُ بلله القطرُ

أعـاد أبي هـذه الحكايـة ذات مـرة وكنـا عنـد أختـي أم هـاني في الإسكندرية ثم همس لها: "ما تعرفيش تنزلي القبـاري مـرة مـن المـرات وتسألي عنها؟" وضحك حتى لمعت أسنانه التي سودها الـشاي الثقيـل وسجائر الفلوريدا التي كـان يـدمنها، والتـي لم تفلـح البيكربونـات في تبييضها. مع ذلك كانت تلمع داخل إطارات غامقـة. بـصي يـا زينـب: "شقتهم تحتها قهوة!"

وينفجر في الضحك. هذه حالته حين يكون منسجمًا. "الله أعلم إن كانت عايشة عـلى وش الـدنيا إنـما العـمارة فيهـا قهـوة تحـت، وفوقهـا شقتهم!" يعود أبي من ذكرياته المحوة تمامًا إلا من بقايا نكهة أيامٍ طيبةٍ ليردد هذا البيت: "مشيناها خطى كتبت علينا... ومن كتبت عليه خُطى مشاها". ويشهق: "الله يرحمَك يا بَه الله يرحِمك يمَّه".

ومن المؤكد أن عينيه راحتا تتوردان كأنه يبكي منذ ساعات.

كان أبي نحيلًا رقيق العظم، ناعم الشعر مع صلع خفيـف انـسرب إلى رأسه من منفذين أماميين بينهما ظَلَّ صـامدًا، شـعرٌ نـاعمٌ وخفيـف، أراقبه والمشط يجري فيه عندما يرفع الطاقية البيضاء التـي كـان يـضعها على رأسه دائمًا عقب عودته من المدرسة.

أما عمي فقد كان متين البنيان، ربعة، عريضًا فخم الهيئة، عليهِ هيبة ووقار مما مكَّنَ له في عمله وفي التفاف الناس حوله وهـو يخطـب فـيهم من فوق المنبر بصوت فيـه حنـان الإيـمان وطمأنينتـه وسـكينته. عينـاه وادعتان طيبتان مترعتان بالرقة في وجـهٍ ممتلـئٍ وقـور، بينـما أبي عنـدما

يغضب كانت عيناه تتوهجان بالجمر كعيني جدِّي عندما يكون غيرَ غضبان. لم أعرف جدي غاضبًا لكن صورته الوحيدة في الوضع العاديِّ، قبل أن يلينها المصوراتي ويحطم أبي الصورة المكبرة ويبيدها، كانت كما سبق وأخبرتكم ترمي بشرر. وأسأل نفسي أيهما ورث عن أبيه الملامح الأصيلة؟

وتكون الإجابة السريعة: "أبي"

ويسعدني هذا.

***

وسَرَت أنباءٌ في البلد أن الكهرباءَ ستدخل الشوارع والبيوت. كنا صغارًا وتهيأنا للفرحة العارمة فلم ندخل بيوتنا في الأماسي بل كنا ندور في أرجاء البلد نتفقد الأعمدة وهم يغرسونها في الأرض ويمدون الأسلاك.

وطاف المنادي يُنادي يا أهل بلدنا كل من يريد شراء عداد كهرباء وعمل مقايسات لإدخال الكهرباء إلى منزله يتوجه إلى محطة الكهرباء للتعاقد.

قال أبي وكنا على السطح نراهم يمدون الأسلاك في شارعنا:

- عمك سيشترك ويبقى يمد لنا سلك من عنده.

- ببلاش؟

- طبعا لا. سأدفع له كل شهر ما يطلبه.

سألته أمي: "سيوافق؟"

أجاب وهو يسلمني خيط الطيارة:

- ما يوافقش ليه؟ سيخسر شيئًا؟

كان وجهها عندما تنبسط يضيء بابتسامة عذبة، وتطوِّح ضفيرتها الثرية وراء ظهرها مبتهجة لأبسط الأسباب. أقل شيء كان يفرحها. لم تستخدم المعجون ولا مرة واحدة في حياتها فلم نكن نعرفه، لكنَّ أسنانَها لم تكن صدئة. أعود لابتسامها، لكنها الآن في لحظة تحوُّل عجيبة. غمامةٌ اجتاحت الوجهَ البهيج. لا حظ أبي الذي لاحظتُ نفسه فبادر يسألها عن السبب.

اقشعر ذقنها فامتلأ بأسطر كالكتابة المطموسة.

- مالك يا إحسان؟

- ما ليش!

كأنما يعاقبها:

- طاب انزلي اعملي لنا شاي!

لم تتحرك.

لم أجرب عليها العصيان أو تكسير الأوامر. احمرت عيناه:

- يا تتكلمي يا تنزلي تعملي الشاي!

ولم يحوِّل نظراته النارية عنها. أخيرًا جاءنا صوتها المرطب بالدموع:

- شايف سلوك الكهربا اللي ما لهاش أول ولا آخر؟

- شايف

- عصافير كتير قوي ستموت متكهربة يا كومي!

والحمد لله، لم يحدث ما خشيته أمي.

فما زالت العصافير رغم مرور السنين تقف على أسلاك الكهرباء ولا يموت منها عصفورٌ واحد.

ولا أنسى لحظة إنارة الشوارع بالمصابيح المتألقة. سرت موجة عارمة من الفرح اجتاحت البلدة. وعندنا في الدار اكتشفنا أن بيت عمي الذي يحيط ببيتنا الصغير من اليمين والخلف مضاءٌ يتألق. بمجرد أن ضغطوا على أزرار الكهرباء سطعت الحجرات.

سمعنا هذا فغمغمت أمي:

- والسلك؟

تمتم أبي: "بيقولوا اللي يمد سلوك غير اللي في العقد ينحبس!"

هذا ما أخبره به أخوه. قالت له يا كومي دي الدار واحده ومقسومة كده وكده. قال لها: "اسكتي!"

- يعني حنعيش في الضلمة؟

- ضلمة لما تلمك. ما احنا طول عمرنا في لمبة الجاز. طول عمرنا مع الهباب. حنتبطَّر عالنعمة؟ يا ستي تركيب العداد يتكلف عشرين جنيه وأنا مرتبي في الشهر عشرة عُمي.

وخرج.

ولم تحزن أمي عندما قال لها: "ضلمة لما تلمك!"

أقصد لم ألاحظ أنها زعلت من أبي.

هي تعرف أنه يستفرغ ما في جوفه من ضيق مخزون، وعليها أن تتحمل بلطف.

عاد بعد ساعة ووقف في الصالة وقد اشترى حجرين (طورش) ولمبة كشاف وأسلاكًا. أوصَل بعضهم ببعض وثبتهم بالحائط بمسامير صغيرة وترقبنا المشهد المأمول. تألقت اللمبة التي في حجم عقلة الأصبع.

صفقنا. نورها باهر رغم صغر حجمها. لماذا لم يفعل أبي ذلك من قبل؟

لم تمر عشر دقائق حتى هجم الظلام. "إيه الحكاية؟ ولَّعي عود كبريت لما نشوف. اللمبة احترقت". كان واضعًا إياها قرب عينيه يحدق إلى سلكها اللولبي الداخلي المقطوع. "يا خسارة! إيه الصناعة البايظة

دي؟" خرج واشترى لمبة جديدة. لم تمر دقيقتان حتى خفُتَ الضوء. "قال الحجارة خلصت والا إيه؟ باين عليها قديمة ومعفنة". صرخ في أمي:

- قاعدة مستنية إيه؟ قومي قِيدي اللمبة الجاز!

تمتمت أمي وهي تشعل عود الثقاب:

- مالناش غيرك يا لمبة الهباب!

وهكذا سنظل أعوامًا طويلة أخرى واللمبة (نمرة عشرة) متربعة على عرشها في الصالة حيث نجلس أو نذاكر أو نسهر لسماع الراديو.

مع ذلك فقد كنا موغلين في التفتح....وبالنسبة لي فقد اغترفت من ينابيع الشعر ما وسعني الاغتراف، وافتُتنت بعوالم الرواية أيما افتتان.

أما الشعر فالجاهلي كان الآسر والجذاب، وأما الرواية فتولستوي ودستويفسكي وجوجول فضلًا عن قصص تشيكوف القصيرة الساحرة ومثله جي دي موباسان، ثم الكُتاب العرب الذين يمكن الوصول إلى إبداعاتهم.

لم تكن المدارس تفتح أبوابها للطلبة خلال فترة الصيف ومن ثمَّ حُرمنا مكتباتها.

وأذكر أنني كنتُ أترجَّى زملائي عساهم يعيرونني من كتب آبائهم أو إخوتهم الكبار إن كان لديهم شيء منها.

- أخي لا يسمح لأحد أن يقرأ كتبه.

- هات الكتاب أقرأه ثم أعيده إليك خلال ساعات.

- ربما يأتي بعد ساعة.

- هات الكتاب أنظر إليه وأتصفحه في وجودك دون أن أمضي به إلى بيتي.

- قد يضبطني أخي وأنا أُريك إياه.

كأننا نتحدث عن مخدرات لا عن كتب.

قلت لحمدي الرويني: "أخوك يعمل في المعهد بكفر الشيخ وطبعًا المعهد فيه مكتبة كبيرة. ليته يستعير بعض الروايات".

ولم أكن أتوقع استجابة حقيقية كتلك؛ فبعد أسبوعين جاءني برواية "الفيلسوف" التي كتبها محمد السباعي ولم يمهله القدر ليكملها فأتمها ابنه يوسف الذي قرأت له: إني راحلة، ورُد قلبي، وأخذني أيامها إلى عوالم محلقة في الرومانسية. جعلت أقارن بين أسلوب الأب وأسلوب الابن وكنت سعيدًا بهذا الكتاب إلى أن عثرت على كتاب آخر لمحمد السباعي وهو ترجمته لرباعيات الخيام فأخذني بين دفتيه.

أعدت "الفيلسوف" إلى حمدي بعد يومين لكن أخاه لم يتحفني بكتاب آخر رغم إلحاحي. وكان من بين أصدقائي من يُدعى عبد الفتاح جنيدي، والده عم سعد كان يعمل سائقًا لعربة الإسعاف الوحيدة في

بلدتنا، ويقضي سنوات اعتقال لا حصر لها لأنه كان من الإخوان المسلمين أعداء عبد الناصر. يأخذني عبد الفتاح إلى مقر الإسعاف حيث يحتفظ هناك ببعض الكتب. لا يذهب عقلك بعيدًا! كانت مجلدات لمجلة تُشبه المصور أو آخر ساعة اسمها (الاثنين) على ما أذكر.

وافق على أن يعطيني أحد هذه المجلدات لكنني لمحت أعدادًا من مجلة الرسالة ففضلت البدء بها.

وكان لي ابن عم يكبرني بسنوات، معار في بعثة لأندونيسيا، حدثتكم عن زيارته لنا في أحد الأعياد، أسمع أن له مكتبة كبيرة في تجويف جدار المنظرة في بيت عمي. طلبت من ابن عمي الذي يصغرني بعامين أن يستأذن لي والده، عمي، في النظر إلى هذه الكتب ومعرفة عناوينها. دخلت المنظرة فجلست إلى عمي الذي أبدى إعجابه برغبتي في القراءة، وقال لابنه: "هات المفتاح يا ربيع".

ونَهَضَ ليقف على الكنبة، وفتح القفل. لاحت الكتب تحت غبار خفيف وجلس عمي على كرسي تاركًا لي مكانَهُ على الكنبة لأطل على المكتبة. وسحبت أول كتاب. ونفضته بيدي.

"لا لا"!، صاح. "سيسقط الغبار على الكنبة".

- سأنفضه يا عمي!

فصمم: "بعد يوم أو اثنين سأجعلهم ينظفون الكتب مما علق بها من غبار، ويمكنك بعد ذلك الحضور لتراها".

- دعني أسحبها واحدًا إثر واحد، بالترتيب، وأنفضها في الشارع كتابًا بعد كتاب، وأعيدها إلى مكانها نظيفة.

- ولماذا ترهق نفسك؟

- إنني أجد في ذلك متعة يا عمي.

- الصبر! أوصيك بالصبر والصلاة.

- أنا أصلي الفرائض والنوافل والحمد لله.

- ولكنك لا تصبر!

بعد ثلاثة أيام أخبرني ربيع أن أباه مسافر. وتعالَ، يمكنك أن ترى كتب المكتبة.

ورجوته أن يسمح لي بتنظيفها: "يا أخي نحن ننظف ميضأة المسجد، ونملأ الصهريج بمياه الطلمبة".

صعد ربيع على الكنبة وناولني خمسة كتب، حملتها إلى الباب الخارجي ونظفتها من التراب. وضعتها على منضدة واستلمت منه غيرها وأنا كأنما أجعلها تستحم وتتمشط ويشرق مُحيَّاها.

- يكفي اليوم.

- نكملها.

- الصبر كما أوصاك أبي.

وخرجت وفي يدي "تاييس" لأناتول فرانس عليَّ أن أسهر عليها وأعيدها قبل ظهر الغد، ومعي أيضًا ديوان سلطان العاشقين لابن الفارض.

وعلم عمي بما كان فأثنى على رغبتي في القراءة، وصعد على الكنبة ليفتح القفل بيده.

ثم عاد إلى الكرسي وصعدتُ أنا.

- انظر أيها تريد أن تقرأ!

فتخيرت خمسة كتب ووعدته أن أعيدها خلال خمسة أيام.

قال: "انتظر!"

وسحب ورقة وقلمًا وسألني أن أملي عليه العناوين ليسجلها، درءًا للنسيان، كما قال.

فأمليت، وكتب، وأودع الورقة بين دفتي مجلد ضخم بارز. أما ربيع الذي كان يصغرني فهو الذي عرفني بالشهيد هاشم الرفاعي كما كان يسميه وقال لي: ديوانه في مكتبة المدرسة عليك استعارته من هناك!

***

في أي يوم من أيام الله عضني الحب في كبدي وأحشائي؟

كنتُ في الصف الثاني الثانوي، القسم الأدبي، لكني لم أحفر ذلك التاريخ باليوم والساعة مع الأسف في جدار الروح. انفتحت بوابة

المدرسة، وكانت الحصة الأخيرة، تربية رياضية، وانتهينا من شوط كـرة قدم، وجمعنا حاجياتنا وحملنا حقائبنـا لنخـرج مـن البوابـة حـين صـاح الكابتن صابر جويد:

- البنات أولًا!

كنَّ بنات الصف الثاني الإعدادي بينما نحـن طلبـة الـصف الثـاني الثانوي، مع ذلك وقفنا عـلى جانـب البوابـة نرقـب الوجـوه الـصغيرة والقدود الناحلة ونتطلع في حياء أو خبث.

ودق قلبي عاليًا..صورة جانبية لها، مرفوعة الصدر والوجـه، بيـنما العينان إلى أسفل، وذيل الحـصان يـشي بانـسيابية هائلـة لـشعر فـاحم، ناعم، فخم يتهدل على قميص أبيض نظيف.

وكما نسيت التاريخ ولم أسجله بـأحرف مـن نـار، نـسيت أحـداثًا كثيرة، متشابهة، تؤكد كلها أني وقعتُ في الحب (لشوشتي).

كل أغاني أحمد رامي تكأكأت على بالي دفعة واحدة، وتساءلتُ عن الخطوة التالية. بعد شهر حكيت للسيد عيسى عن الداء الـذي أصـابني وحرمني النوم: "تخيل يا سيد أصحو في عز النوم فأسأل الله أن يحفظهـا ويحميها، أتضرع إلى الله أن يقيها كل سوء ويجنبها كل مكروه"

- ما اسمها؟

ويفغر فاه دهشة لأني حتى تلك اللحظة ورغم مرور ثلاثـين يومًـا على عضة الحب لم أعرف لها اسمًا ولا أدري أين تقيم.

- كم مرة رأيتها؟

- ثلاث مرات بعد الصعقة الأولى.

- ولماذا لم تمشِ وراءها لتعرف أين تقيم؟

فلا أرد.

وفي يوم من الأيام رأيتُها تدخل إلى شارع جانبي فقفز قلبي فرحًا ومرحًا لأني عرفت شارعهم؛ فما بالكم لو عرفتُ بيتهم بالتحديد؟!

يا كل هذه الشوارع تحت الشمس! يا كل هذه المنازل المتراصة المتلاصقة! لقد اقتربتُ من تحديد المكان الذي يفوق كل الأمكنة، وندرس في الأدب العربي بيت إبراهيم ناجي: هذه الكعبة كنا طائفيها والمصلين صباحًا ومساء، فأتذكر البيت الذي لم أتعرَّفه حتى الآن.

رأيتها خمس مرات في ثوبين أحدهما قطيفة كحلي، والآخر بني، والمرات الثلاث في الزي المدرسي.

ولشدة الصعقة التي زلزلتني كنتُ عندما ألمحها أُديرُ وجهي للناحية الأخرى حيث تندس عشرات الأعين في جسدي كرشقات النبال.

***

انتهينا من الصف الثاني الثانوي وعنما تبدأ الدراسة سنذهب إلى الصف الثالث في المبنى الجديد. هكذا قيل لنا، وذهبنا فعلًا إلى المكان وشاهدنا المدرسة الجديدة التي قد زُرعت في الحقول!

المدرسة العتيقة لن ندخلها بعد الآن. خمسة أعوام قضيناها بها وبَقِيَ عام واحد سنقضيه في غيرها. ليتهم لم ينتهوا من بنائها وتجهيزها لنبقى في مدرستنا القديمة حتى نحصل على الثانوية العامة. تلك المدرسة التي عضني الحب فيها بكلابيب من حديد. لن تطأ قدماها ملاعب المدرسة الجديدة ولا طرقاتها.

وقبل أن أنسى: الأستاذ عبد الرحمن الحلو مدرس اللغة الفرنسية، الوسيم المهذب، والذي أسر قلوبنا بإخلاصه في عمله، وكان طرازًا فريدًا في شخصيته، انتقل إلى مدرسة أخرى في بلد آخر ولن يأتي معنا إلى المدرسة الجديدة. سنعاني الأمرَّين من بعده.

***

وفي إجازة الصيف التي توشك على الانقضاء، انضمَّ بعضنا إلى فريق رفع الأثقال الذي يشرف عليه المدرب عبد الحي الأحمر، بينما انسلك آخرون في فريق الملاكمة يدربهم الأستاذ معوض الخولي طامحين أن يصبحوا مثل كاسيوس كلاي أو قل محمد علي كلاي الذي هزم سوني ليستون بالضربة القاضية في الثواني الأولى من مباراتهما الثانية وقبل أن يستقر الجمهور في مقاعدهم. دفع الواحد منهم آلاف الجنيهات ولم يشاهد سوى بضع ثوان فقط فصرخ بعضهم: "هاتوا فلوسنا!"

محمد علي الذي كان يحوم كالفراشة، ويلدغ كالنحلة، ويرقص على الحلبة افتتننا جميعًا، فسهرنا نتتبع أخباره!

ووجدتُ نفسي أسجل اسمي وأتدربُ....وأتابعُ مباراة بين معوض الخولي ومحمد الأصولي، وأتعجب من كمية الضربات التي يتلقاهما أحدهما من الآخر، ويتحملان!

كلاهما يحمي وجهه بيديه، لا يفعلان مثل محمد علي الراقص البارع على الحلبة، والذي يناور ويحاور ولا يختبئ أبدًا.

ولم تمض أسابيع من التدريب حتى فوجئت بمن يقول:

- ستقام غدًا ست مباريات ملاكمة بمناسبة عيد الثورة سيتم تحديد الأطراف فيها قبل بدء المباريات.

معنى هذا أنك لن تعرف خصمك إلا والجماهير محتشدة، وأنت وحظك، يكون وزن الديك أو وزن الذبابة أو الريشة أو حتى الثقيل!

ولأننا كنا هواة؛ كان الواجب أن نحمي رؤوسنا بوقاء خاص، لكنهم فيما يبدو سيعاملوننا كمحترفين! المهم إمتاع الجمهور ولو بمذبحة!

وفي الحفل الذي حضره رئيس مجلس المدينة ومأمور المركز أعلنت الأسماء عبر مكبر الصوت. وذكروا اسمي، واسم غريمي محمد عبد المنعم. انتابني الضيق فأنا لا أجيد اللعب إلا مع من هو أقصر مني. أما محمد عبد المنعم فطوله فارع وذراعه أطول من ذراعي، وسيطال وجهي ولا أطال وجهه إن اشتبكنا في ضربة طولية. سبق لي رؤيته وهو يلعب. يخبئ وجهه تمامًا مُرسلًا يسراه المستقيمة إلى وجه خصمه، سريعة وحاسمة. لكنني أحاول تقليد محمد علي كلاي، مثلي الأعلى.

كم تمنيتُ أن يكون خصمي هو ذلك اللاعب القصير، ثقيل الحركة، الذي أطال وجهه ولا يطال وجهي.

في الأسبوع السابق كنا ننطلق في نسيم الليل نخترق الضاحية كي نرفع من كفاءتنا وتحملنا، واليوم تُدار المباريات أمام حشد كبير كلهم يحلمون برؤية صورة شعبية من محمد علي كلاي.

انتهت مباراتان إحداهما حُسمت بالقاضية، ونودي علينا فصعدنا إلى الحلبة. ما أطول خصمي!

قبضتاه في القفازين الضخمين تحميان وجهه ثم يلقي بضربات ماكرة إلى جسد الهواء بينما جعلت أنا أتراقص على أرض الحلبة مبعدًا عن تفكيري طول خصمي وتمترسه خلف قبضتيه. كل ذلك دون أن أحمي وجهي بقبضتي.

ودق الجرس. جعلتُ أراوغُ محمد عبد المنعم وأتفادى ضرباته، ويُهيَّأ إليَّ أني سمعت من ينعتني بكلاي. يقصدني أنا بلا شك؛ لأني لا أغطي وجهي وإنما أراوغ بجذعي، وقدماي تتحركان بسهولة حتى فوجئت بصدمة قطار في أسناني!

تزلزلتُ. ارتعدت فرائصي من شدة الضربة. هل يتحتم تغيير استراتيجيتي وحماية وجهي من التهشم؟ لكني لم أتدرب على ذلك ولا أُتقِنُه. وأنا في هذا التفكير تزلزلتُ بضربةٍ أخرى. ويبدو أن خصمي استطاب ذلك فازداد نشاطه.

ضربة قوية من يمناي المستقيمة في بطنه لا شك آلمته وجعلته يجفل إلى الخلف لحظات، لكن ذراعه الطويلة استأنفت ملاحقتي.

أين الجرس؟ ما للثلاث دقائق طويلة هكذا؟!

ضربة طائشة مني في خلفية دماغه فكاد يسقط. الحكم يحذرني واللعب يُستأنف. شفتي صارت في حجم بطيخة، ودوار ملعون بدأ يحكم المؤامرة. هل سأستطيع إكمال الجولات الثلاث؟

استطعتُ. لم أفقد وعيي ولم أسقط على أرض الحلبة. تتموج المرائي وتوشك أن تنغلق الرؤية. تنفذ إلى صميم الإدراك أصوات التشجيع أكاد أتبين منها: اضرب! اضرب! اضرب!

ذلك صوت السيد عيسى.

- إياك أن يهزمك!

ذلك هو زيزو الأسمر

- من تحت لفوق!

من المؤكد أنه..... نسيت اسمه.

من يعيد إليَّ عافيتي قبل تهتك اللحظات؟

صعد كثيرون يهنئونني لأني ألعب بطريقة فيها من رائحة محمد علي.

حتى لو انهزمت في هذه المباراة الودية فقد لعبت دون تغطية وجهي بقفازي، وتمكنت من الصمود حتى نهايتها..

يشدُّ زيزو الأسمر على يدي، ويقسم أنني أستحقُّ الفوز. هذه اللعبة غادرة. ليست العبرة في الوزن. يجب أن يتساوى الملاكمان في الطول أيضًا، لكنك بطل.

ويظل يرفع من معنوياتي، وأتساءل: إن كانت عيناه تريان شفتين كفلقتي بطيخة مشقوقة نصفين؟

في اليوم التالي أتوجه إلى دكانة زيزو.

تشجيعه لي يزيده عندي غلاوة. أشعر بصدق صداقته. يؤكد لي أنني ضربت خصمي أكثر من خمسين ضربة لكنه ناشف كخشب الزان.

– لو كان ذلك لتورمَ وجهُهُ تمامًا.

تمنيت لو ابتعد عن منطقة الورم هذه.

المكواة الحديد على النار. أسحب كرسيًّا خشبيًّا وآخذ مكاني على عتبة المحل (ليطسني) هواءُ الشارع.

تدخل امرأة من الريف وتُخرج بضعة جلابيب رجالية من قعر القفة يتناولها منها محاولًا التغزل:

– كتب علينا ألا نرى القمر سوى مرة واحدة أسبوعيًّا، في يوم السوق.

– ألا يكفيك مرة كل سبعة أيام؟

– أنا لا أرتوي ولو شربت كل ليلة.

ألاحظ أنه بدأ يدخل في (الغويط). هو يحاول أن يجعل صوته واضحًا في مسمعي ليريني شطارته: "على فكرة يا سمسمة، اسمحي لي أسألك: ما أسعد لحظة في حياة كل زوجين؟"

تنظر المرأة تجاهي ولا ترد. يستأنف: "عندما يلتقي البحر الأبيض مع البحر الأحمر، أليس كذلك؟"

- سأذهب لأتسوق وأعود لآخذ منك الجلابيب تكون كويتها جيدًا.

- لم تجيبي عن سؤالي، سأغششك في الامتحان: عندما يلتقي الماء الساخن.....

- فتك بعافية.

- سؤال آخر أسهل من هذا: ألم تستخدمي خيارة أو أصبع موز أو شيء من هذا؟

- شف شغلك يا راجل! هذه أشياء ليس بها ماء ساخن كما تعرف.

فيضحك شأن من شارك في هذا الحوار مراتٍ من قبل لكنه هذه المرة يحصل على مستمع جديد. بعد أن تختفي المرأة في السوق يؤكد لي: "لو لم أفعل مثل ذلك ما جشمت هذه المرأة نفسها مشقة القدوم من بلدتها ومعها ملابس زوجها أو ابنها لأكويها لها. كل امرأة ولها مفتاح، وأنا أحمل في دكاني مفاتيح العديد من نساء القرى المجاورة".

فجأة تحلُّ بي الصاعقة... ألمح وجهًا كوجهها، لكن هذه الفتاة أصغر من تلك بعام أو عامين. الملامح المعذبة لروحي نفسها، النظرة التي ترتشق في بؤبؤ عيني. حمدتُ الله أن لكمات أحمد عبد المنعم لم تصل إلى عيني. رحتُ أتتبع الصبية وهي تمرق إلى داخل الحارة المواجهة للدكان حتى وجدتها تدلف إلى إحدى الدور وتختفي داخلها.

الدار مكونة من طابق واحد، أمامها نخلة مثقلة بالبلح.

كنتُ قد هممتُ بمغادرة الدكان لكني الآن على استعداد للبقاء هنا إلى آخر الزمن. ودرت في دوامة: "أهي أختها؟ قريبة لها؟ بل تكاد تكون هي هي".

دخلت امرأة أخرى ومعها ملابس قدمتها لزيزو الأسمر فسألها إن كان زوجها أعادها إلى عصمته.

- لسه والله يا عم زيزو.

- وكيف تقضين ليلك وحيدة في السرير؟

- ابني الصغير في حضني.

- وهل حضن الطفل الصغير ينفع؟

***

وألمحها وهي خارجة من خلف النخلة فأتكهرب. أتأملها وهي قادمة فكأنها هي. المرأة تغادر الدكان فأسأل زيزو: "هذه الصبية تسكن هنا في الحارة؟". نظر إليها ثم بخَّ الماء على المكواة ليخفض حرارتها: "بل تأتي لزيارة خالتها رفيعة".

- ألها أخت أكبر منها قليلًا؟

- ما الحكاية يا بطل؟

- لا شيء.

- أجل لها أخت أكبر منها بحوالي سنة، وأطول منها بحوالي عشرة سنتيمترات. تريد معلومات أخرى مجانًا؟ ووجهها أكثر بياضًا. تريد شيئًا آخر؟

كأنما تنهال على رأسي حجارةُ بناءٍ وأنا أجلس في ظل جدار. المفاجآت مهما تكن سعيدة فهي مفاجآت أتحاشاها وأتفاداها ما استطعت. ولكن أي مصادفة عجيبة؟!

انعطفت الصبية إلى الاتجاه المعاكس للسوق وأنا أتأمل خطواتها أو قل خطوات أختها، وحتى شعرها الذي تصففه على هيئة كعكة أتمثله وهو ذيل حصان كما تفعل أختها فأؤكد لنفسي أن أشياء جميلة وممتعة يمكن أن تحدث دون سابق إنذار.

أخبرني زيزو الأسمر وهو لا يعرف أنني أعرف: "أختها معكم في المدرسة، في الإعدادي بينما هي ما تزال في المرحلة الابتدائية".

لم أنطق. لا أريد أن يُفتضح أمري مع زيزو الذي صاح كأنما يسير في جنازة: "وحدوووه! ما لك؟ أين عشَّشَ فكرُك؟ اصح يا نايم! هل السنارة غمزت؟ قل لي، سرك في بير!"

- أبدًا، مجرد سؤال.

- هكذا؟ أنت الخسران، وستحتاج إلى خدماتي عن قريب.

وعندما لم أرد استفزني:

- على فكرة، شفتاك متورمتان!

***

وأكاد أشعر بالندم لأني لم أسأل زيزو الأسمر عن اسمها عندما سنحت الفرصة وعرفت اسم خالتها رفيعة. يا ألطاف الله! وهل كنت أجرؤ على توجيه السؤال؟

أمرُّ أحيانًا في الفسحة أمام باب فصلها. وكأنما أوصاني الصُّمة القشيريُّ أن أتمتع من شميم عرار نجدٍ فما بعد العشية من عرار! يتعالى صياح الحبيس المعربد بين أضلاعي.

كأني مجنون ليلى في عشقه السرمدي. أمرُّ على الفصول فصول ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارَ، وما حب الفصول شغفن قلبي ولكن حب من سكن الفصولَ.. أنا المجنون والمجنون أنا.

ويحدث أحيانًا أن يطرق باب فصلنا من يسأل: "أعندكم طباشيرة زيادة؟"، فنسخر منه: "الله يحنن عليك".

أو يسأل: "معكم عصا للأستاذ فلان؟"

فنجيبه:" اذهب وقل له لم أجد!"

هل أستطيع أنا عندما لا يكون في فصلنا طباشير أن أفعل شيئًا مثل هذا فأدقُّ باب فصلها وأسأل أستاذها عن أصبع طباشير أو عصا؟

لو ذبحوني لا أفعل. وأراني هائمًا في صحارى الحرمان القاحلة مع الشعراء المحرومين الأقدمين، أحمل راية الهيام والعطش القاتل.

وقد أمرُّ ليلًا من أمام بوابة المدرسة، وأرفع رأسي قاصدًا مكانًا بعينه تجلس هي نهارًا على دكة خشبية فيه، وهو الآن مغلق الباب والشبابيك، طلل، قفر، قاحل، كئيب، ينتظر على أحر من الشوق. مع ذلك أناجيه قائلًا: "ألا عِم مساء أيها الطلل البالي!"

أو أسأل مبنى المدرسة كله:

يا دار مية بالجواء تكلمي!

أو: يا دار مية بالعلياء فالسندِ... أقوت وطال عليها سالف الأبدِ

وقفت فيها أصيلانًا أسائلها... عيَّت جوابًا، وما بالربع من أحدِ

ثم يهبط وحي كوكب الشرق، الست أم كلثوم الخالدة، من عليائه على قلبي كالرذاذ الوادع: "ما بين بعدك وشوقي إليك، وبين قربك وخوفي عليك، دليلي احتار". وفيها: "يا قاسي بص في عنيَّا وشوف إيه انكتب فيها!"

وأسقط في فخ الشجن مع هذا اللحن:

"يا طول عذابي واشتياقي ما بين بعادك والتلاقي"

وأجدُني أمام دكان زيزو فيبتسم لي بعد أن يبخ المكواة بفمه المنفوخ ماءً:

- ليتك جئت قبل ثلاث دقائق! صاحبتك هنا!

- صاحبتي؟

فيضرب بالمكواة على القماشة التي تختفي تحت البخار كلما تحركت المكواة الساخنة، ويُحرِّك حاجبيه: "كانت هنا وما زالت!"

- من؟

- وراء النخلة، عند خالتها!

- من؟

- ليس عندك سوى هذه المَنمَنَات؟ لمياء أيها الأحمق.

- أختها؟

هكذا شهقت، فرفع المكواة قبل أن تحرق الثوب وأقسم:

- أنكوي بالنار كما ينكوي هذا الحديد حتى يصير أحمر في لون أشياء حساسة أنك تحب أختها سندس!

- اسمها سندس؟

- لا تخف! سرك في بير!

- كمان لا تعرف اسمها يا عبيط!

صار زيزو الأسمر من هذه اللحظة من أحب الوجوه التي أتمنى ألا تغيب عن سمائي، مع ذلك لم أصارحه، ولكنه بالتأكيد رأى ذهولي وأنا هائم ما بين سندس وإستبرق وأنهار من لبن وعسل مُصفًّى وأنهار من خمر لا يُسكر، وأطيار تحوم خضراء خضراء خضراء....

أخيرًا أيها الزيزو الأسمر أهديتني معرفة اسمها! سندس؟ والصغرى أكاد أنسى؟ لمياء؟ هل قلتَ ذلك؟

امتلأتُ بشحنة كهرباء ستفجرني إن ظللت مكاني. أردت أن أنطلق عَدوًا على جسر النيل هاتفًا سندس سندس. سندس سندستِ قلبي فراح يتسندس سندسة عظيمة.

يا دار سندس بالعلياء فالسندِ!

لكنه قال إن لمياء هنا، فلماذا لا أتحامل على نفسي وأتحمل الشحنة القاسية وأتمهل حتى أراها؟ ألا يكفي أن أرى أخت سندس والتي تمتلك صورتها وإن لم تكن مطابقة تمامًا؟ الكعكة التي على الرأس أنزعها وأضع بدلًا منها ذيل حصان. هل هذا عمل شاق؟!

وإني لأرضى من سنَيْدسَ بالذي لو أدركه الواشي لقرت بلابلهْ، وإني لتعروني يا سندس لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطرُ.

وإني لأكتفي، بل وأتمنى لو تحقق لي، برؤية لمياء لأراك فيها لأنني في الحقيقة لا أراك إلا كما يرى رمل الصحراء دموع السماء كلَّ حين ومين!

وتطالعنا الصحف الثلاث بعناوين كبيرة زاعقة: دخلنا عصر الفضاء! ونرى الصاروخ القاهر على الصفحة كأنه في حجم مئذنة جامع!

- تخيل لو انطلقت مئذنة حجرية وسقطت فوق تل أبيب، ماذا يكون تأثيرها؟!

- فما بالك بصاروخ في حجم المئذنة مليء بالمفرقعات!

وصرنا ندرك دون وعي أن أمريكا ترتعد فرائصها من تقدمنا العسكري، وأن مصنع ٣٣٣ الحربي أهم من وكالة ناسا ومن البنتاجون! وأن فرنسا تتهيأ لتتلقى ضربة شلوت في مؤخرتها من القدم المصرية، بينما بريطانيا على وشك أن تتوسل إلينا ألا نحتلها كما سبق واحتلتنا! أما عن إسرائيل فلعلهم أصيبوا جميعًا بالإسهال كما في حالة وباء الكوليرا!

وكنا نمارس في تلك الأيام أنواعًا كثيرة من الرياضة البدنية في المدرسة. ونحفر مساحة كبيرة من الأرض نملؤها بالرمل الأصفر حتى إذا ما وثبنا الوثب الطويل أو الثلاثيَّ لا تتكسر عظامنا. استهوتنا اللعبة فأكثرنا من ممارستها، ويبدو أنني أكثرت من القفز والسقوط على رجلي اليمنى فأثر ذلك في المكان الذي تجثم فيه الزائدة الدودية فتركز الألم في تلك المنطقة من الجسم. وراح زميلي وحيد المزين يخوفني من تلك العملية التي أُجريت له هو منذ أسبوع. يحدثني عن حقنة شرجية مؤلمة. وعن حلاق يزيل شعر العانة. وعن لحظات الإفاقة من البنج بعد

العملية حيث يأخذ الإنسان في إخراج ما في خزانة أسراره مما يجعل من حوله يضحكون منه. لا أدري إن كان الألم يتزايد طبيعيًّا أم بتأثير هذا التخويف الذي بدأ يتسلل إلى بدني فيؤرقني.

وكان لإحدى ممرضات المستشفى العام طفلة في فصل أبي بالمدرسة كانت تأتي بعد ظهر كل يوم إلى المدرسة لتأخذها معها. فحدثها بشأني فقالت له: "لماذا لا تأتي به إلى المستشفى ليشخصوا له حالته؟ اطمئن عليه. سيكون في عيني". قال: "ربما يشفى من تلقاء نفسه". فإذا بها تحدثه عن الأخطار التي يمكن أن تترتب على الزائدة الدودية إذا ما حدث – والعياذ بالله – أنها انفجرت.

في تلك الليلة لم ينم أبي. وقال لي في الصباح بعد أن فطرنا: "سأذهب بك إلى المستشفى. هل تقدر أن تمشي إلى هناك؟" قلت: "أحاول". ومشينا أنا وهو، وكل بضع خطوات يقول لي: "على مهلك. استرح لحظات" فيجيئه صوتي واهنًا: "لا تخش شيئًا"! ونسير والطريق يمتد حتى وصلنا. وترحب بنا تلك الممرضة وتتحدث إلى الأطباء توصيهم بي، وذهبتْ بي إلى سرير جلست على حرفه وتركتني أنظر حولي فأرى أكثر من ستة سرر بالحجرة ويقشعر بدني حالما ألمح بؤس المرضى فركبني المرض. قامت بإحضار ملاءة نظيفة وفردتها على السرير وألبست المخدة وجهًا نظيفًا سرني أن أشم رائحة الصابون المعطر فيه. وأعطتني جلبابًا أبيض ارتديته فوق القميص والبنطلون وقالت لي: "منور يا ابن الأستاذ كومي. أبوك رجل محترم. أي شيء تعوزه اطلبني، وإذا لم أكن موجودة قل لزميلاتي إنك من طرفي وسيقمن باللازم".

جاء الطبيب وضغط على مكان الألم وسألني: "هل تشعر بالألم هنا؟"

فلم أنطق. بمجرد أن دسَّ أصبعه في مكان الألم تحوَّل أصبعه إلى بنج فلم أشعر بالمكان ولا بالألم. أعاد السؤال فقلت له: "كنتُ أشعر هنا بألم عظيم".

- والآن؟

- لا يوجد أي ألم.

قاسَ النبض ووضع السماعة خلف ظهري وعاد فضغط على المكان المؤلم فلم أحسَّ بأي ألم. فتحدَّث قليلًا مع الممرضة ومضى يكشف على بقية المرضى. قالت لي: "اشتباه. ستبقى هنا ثلاثة أيام تحت الملاحظة". وأعطتني حقنة مضادة للالتهابات وخرجت فانسحبتْ من المكان موجةٌ طرية وتوافدَ الغم وصيحات التألم، وبين سرير وسرير عشرات من الناس الغلابة يواسون المرضى ويُصبِّرونهم على بلواهم وهم يتألمون ولا أحد يسأل عنهم. ويسألني مريضٌ عن اسمي واسم أسرتي وبلدي وأصلي وفصلي ثم عن موعد العملية فأجيبه وأنا أقضم الكلمات قضمًا كي يسكت، فإذا به يعاود السؤال لعدم وضوح الإجابة. ثم عاد من جديد يسألني عن اسمي فذكرته له واضحًا هذه المرة فقال: "بالجودة". لم أتبين الكلمة فرحت أستوضحها منه فقال: "بالجودة". فأسأله ماذا قال فيعيدها مراتٍ وأنا لا أفهمها خارجة من فمه معجونة بالغرابة. فخلد إلى الصمت يائسًا من إفهامي. ويأتيني وجه أمي الباكي

لحظة فارقتها للمجيء إلى المستشفى، وإخوتي وأخواتي، وأصدقائي، وكلام وحيد المزين، المخيف. ومر اليوم الأول بعد ليلة غزانا فيها البعوض غزوًا كاسحًا ولا يستطيع أحد أن يغلق نافذة. يأتي التومرجي بعد استغاثات ويرش المبيد فيتساقط البعوض والذباب فترة من الزمن إلى أن يصل المدد من جحافل جائعة جديدة. وفي الصباح رأيت الممرضة التي قالت لي وهي تعطيني الحقنة المضادة للالتهابات: "لو استمر الحال هكذا ستخرج دون إجراء عملية". فاستبشرتُ خيرًا.

ويجرفني الحنين إلى أهلي الذين كأنما لم أرَهم من ألف سنة. يدبُّ الوهن في عظامي كأني لم ألعب يومًا في حياتي ولم أحرك ساكنًا من قبل. وفي فترة الزيارة يأتون فيدقُّ قلبي عندما ألمح بسمة أحدهم تشع في وجهه إذ يراني فيتقدمهم نحوي فاردًا جناحيه. أما زملاء المدرسة فجاؤوا في غير أوقات الزيارة. كانوا كثيرين. أبلغني أحد الممرضين برغبتهم في رؤيتي وهذا غير مسموح الآن. قلت: "فليدخلوا فردًا فردًا"، فقال: "غير مسموح". كادت عبراتي تخنقني فرقّ لحالي وسألني: "تقدر تنزل لهم؟" قلت: "أقدر". قال: "وإن كان هذا غير مسموح به لكني سأجازف. تعال"

واحتواني تحت جناحه ونزلنا السلم تاتا تاتا. سألني إن كنت أجريت العملية فقلت: "يبدو أن ذلك لن يكون" فشخصت عيناه من الدهشة. أشار إلى زملائي خارج السور القبلي للمستشفى وكان جزءٌ منه غير مبنيٍّ، بل هو أسياخ حديدية صدئة واقفة مشدود بعضها إلى

بعض بحيث لا تستطيع دجاجة أن تمرق من بينها. لمحتهم فهُرعت تجاههم ناسيًا تعبي الكامن. راحوا يمدون لي يدًا بعد يدٍ من بين الأسياخ فأصافحهم بحنان جارف. وراح وحيد المزين يسألني عن الحقنة الشرجية ويضحك، بينما داعبني زيزو الأسمر بكلام مليء بالألغاز فتعالت قهقهات الزملاء. وعندما أكثرت من الضحك شعرت بوخزة في المكان الذي أخشى منه فظهر الفزع على وجهي. قالوا: "اصعد الآن واسترح وسنجيئك غدًا في موعد الزيارة". لكن زيزو الأسمر، وبحركة أدهشتنا، قفز من فوق السور واحتضنني فغمرني حنانه وضاحكني بالسؤال العجيب: "يا ترى الجو بتاعك علم بحالتك؟!" ثم أعاد الوثبة ليخرج كما جاء.

سالت دموعي وأنا أصافحهم.

***

وفي تلك الأيام سمعنا عن الاستفتاء! وقال أبي إن اسمه في كشوف لجنة مدرسة المؤسسة الابتدائية، وطلب مني أن أرافقه لنبحث عن اسمي فربما يكون قد ظهر لي أنا الآخر حق الإدلاء بصوتي!

الوقت كان العاشرة صباحًا، تزيد قليلًا أو تنقص عندما وصلنا. وجدنا الجنزير والقفل على الباب الحديد. ظننَّا أن اللجنة لم تصل بعد رغم أن الموعد من المفترض أن يكون قد بدأ منذ ساعتين. ارتسم القلق على وجه أبي وتساءل إن كان تم تغيير مقر اللجنة دون إخطار أحد؟ دقيقة أو دقيقتان وجاء شخص أو اثنان واندهشوا مثلنا. بعضهم أمسك

بالجنزير وجعل يدقُّ به أعواد البوابة ليحرك انتباه مَن بالداخل إن كان ثمة أحد هناك. جاء فراشُ المدرسة النوبتجي متثاقلًا يجرُّ ساقيه كأنما نهض توًّا من نوم عميق. سألناه فأجاب: اللجنة كانت هنا من بداية الليل. سهروا مع الصناديق. ملأوها. وفي الصباح جاءت سيارة حكومية حملتها إلى دمنهور.

– حملت ماذا؟

– الصناديق!

– فارغة؟

– قلت لكم سهروا طول الليل!

– والاستفتاء؟ والغرامة؟ نخشى من الغرامة إن لم نُدلِ بأصواتنا.

– يا أخي كلنا أدلينا بأصواتنا دون أن ندري. الباشوات كتر خيرهم سودوا الاستمارات وأراحونا.

ومع ذلك أصرَّ البعض على التوجُّه إلى الأستاذ شعبان رمضان وكان موظفًا مدنيًّا بمركز البوليس وسألوه هل حقًّا توجد غرامات؟

فطمأنهم أن أحدًا لم يتغيب عن حضور الاستفتاء في بلدنا!

***

دكان زيزو الأسمر...وأظل قابعًا على الدكة الخشبية أمامه إلى جوار الباب حتى ألمحها تغادر بيت خالتها من وراء النخلة فيمتلئ

جسدي بالشوك بعد العرق، وأظل أرقب وجهها الشبيه بوجه سندس، وعندما تقترب من الدكان لتحود إلى الشارع الآخر أستدير بوجهي لأحدث زيزو في أي شيء، أو في لا شيء بينما تكون عيناه هو مثبتتين عليها فاحصتين.

أنا لا أريدها أن تراني أراها. لا أريدها أن تدرك أني أتابعها. لا أريد أن أجرح وجهها بنظرة تسقط عليه من قريب.

- الجو بتاعك أجمل منها رغم جمالها الزائد

- الجو بتاعي؟

- والله برافو عليك، عرفت تختار، أنت ماء من تحت تبن!

أتركه وأمضي...كان في الإمكان أن أسير خلفها لأصل إلى بيتهم وأعرفه، لكني أمرق في الاتجاه المقابل، وكلما ابتعدت هي ابتعدت أنا أكثر حتى أصل إلى جسر النيل فأقطع مسافة طويلة أبدد بها طاقتي. لا أريد خدش ظلها المرمي على أرض الشارع.

***

وذات يوم استعرت خمسة كتب من المكتبة التي في بيت عمي، وجعلت كعادتي أقرأ في كتاب ثم أنحّيه جانبًا لأقرأ في الآخر وهكذا ثم أعود إلى الكتاب الأول فأقرأ فيه فالثاني فالثالث. وانتهيت من أربعة منها لكن الخامس كان دسمًا جدًّا والسطر فيه يعدل صفحة في غيره. لن أستطيع إكماله إلا بعد أسبوع أو أسبوعين!

ومن الصعب إعادة الأربعة وتركه لأني لن أطيق قراءته على انفراد.

ظللتُ أبحث في كتبي الخاصة حتى عثرت على كتاب لا حاجة لي به، وفكرت في أن أضعه مكانه وأعيد الكتب إلى عمي الذي يعرف أنها خمسة لم يكن سجَّل عناوينها هذه المرة! في هذه الحال سأستعير خمسة كتب أخرى ويكون عندي السادس الذي سأعيده بالطبع عندما أنتهي من قراءته.

لم تكن عندي نية للاستيلاء عليه.

ذهبت بالكتب. كان عمي جالسًا على كرسي كبير، والمصحف في يده مفتوحًا فصدَّق وأغلقه ورحب بي. أمسكَ الكتب من يدي وسألني إن كنتُ قرأتها جميعًا، بينما راح يمعن النظر فيها كتابًا بعد كتاب حتى توقف عند الكتاب المدسوس. تابعتُ عينيه وهو يتأمله مليًّا ثم نحاه جانبًا وراح يتابع بقية الكتب. ما زال الكتاب منعزلًا عن زملائه. سألني:

- هل استعرتَ هذا الكتاب من هنا؟

وبسرعة الخوف أجبت: "طبعًا يا عمي!"

أمسكه وجعل يتفحصه بوجهه الطيب قبل أن يسألني: "وما الذي استهواك فيه حتى تستعيره؟"

- كتاب كويس!

- لكن منظره ليس على ما يرام.

- لكن جوهره أثمن من مظهره.

هَزَّ رأسَه الضخمَ متمتمًا: "المسألة إذن مسألة جوهر! جميل جميل!"

في تلك اللحظة دخل ربيع فتناول الكتب من على الكنبة والمفتاح من يد والده وفتح المكتبة ووضعها في مكان خالٍ، وسألني إن كنتُ سآخذ غيرها؟

كأني كنت أنتظر الأمر من عمي الذي عاد إلى المصحف وفتحه واستأنف تلاوته فسارعت منتقيًا أربعة كتب فقط. رفع وجهه تجاه ابنه وحرَّك يده كأنما يكتب بقلم غير منظور ففهمنا، وقام ابن عمي بتسجيل الكتب في ورقة. وهكذا خرجت من التجربة مستورًا بنيتي إعادة الكتاب، وأكدتُ لنفسي أنني لو كنت انتويت الاستيلاء عليه لانكشف أمري وافتُضحت. وبعد عشرة أيام عدتُ بالكتب الخمسة إلى بيت عمي.

***

ويحدث في بعض العصاري أن أغفو ساعة أو بعض ساعة.

وفي قيلولة دافئة صحوتُ من نومي فإذا ملابسي الداخلية غارقة في سائل دافق. أعرف أن الاستحمام واجب. ولكن كيف أتحصل عليه؟

نحن عادة نستحم مرة في الأسبوع تزداد إلى مرتين صيفًا، والماء عندنا في المنزل لا يكاد يكفي.

أمّ ناجي براتب شهري بسيط تملأ لنا من النيل الزير الكائن في الحوش فوق الحمَّالة الحديد ملاصقًا للصالة، ووعاءً من الصاج كبيرًا له حنفية لغسيل الأيدي بعد الطعام، وللوضوء وغير ذلك.

وتقريبًا كل واحد منا يستحم في يوم شبه محدد من أيام الأسبوع، وأنا كان موعد استحمامي أمس، واليوم استحمَّ أخي أو أختي. أدرك ذلك. قلت لأمي: "أنا حران وجسمي يأكلني وأريد أن أستحم!"

قالت ما كنت أتوقعه:

- أنت استحممت البارحة!

- ولكني أريد تكرار ذلك الآن.

- اصبر لبكرة.

- حران وزهقان.

- اخرج والتمس الهواء البارد على النيل. ليتني مسموح لي بالخروج كنت خرجت!

كيف أُفهمها يا رب؟ فكرت أن أفعل ذلك في الجامع. بعض الناس يستحمون في بيوت الراحة في دورات المياه الملحقة بالمساجد، هؤلاء تقريبًا يفعلون ذلك باستمرار فهل أنضمُّ إليهم؟ وكيف؟ ومَن يَرَني سيتساءل لماذا لا أستحم في بيتي؟

القصد، قمت بغسل ثوبي الداخلي تحت الحنفية وعصرته جيدًا ثم ارتديته ليجف على جسمي ووقفت على سطح المنزل ساعة قبل أن أنزل وقد اختمرت الفكرة في ذهني.

توجهتُ إلى منزل عمتي التي تعيش وحدها بلا أنيس، وحكيت لها نفس ما حكيت لأمي.

- انتظر يا ضناي حتى أدفئ لك الماء لتستحم!

ولم تمضِ دقائق حتى كان وابور الجاز يئزُّ تحت وعاء كبير و(الطشت) في منتصف الحجرة، وعمتي تشجعني: "بعد أن تستحم ستهدأ ويزول عنك التوتر"

وتغلق الحجرة عليَّ وتتركني أتخلص من أحمالي الثقال وأصلي العصر قبل أن يفوت موعده.

***

وفجأة ودون مقدمات صرنا أسرى للعبة الشطرنج!

وصار كل منا يدلي بدلوه في اللعب أو المشاهدة الموغلة في الصمت أحيانًا. تكلمْ كما تشاء ولكن إياكَ أن تُنَبِّهَ أحدَ الخصمين إلى خطر يحدق بقطعة من جيشه! وحكيتُ لأصدقائي نقلًا عن أبي حكاية الوزير الهندي الذي اخترع اللعبة ليسرِّي عن الملك، وكيف فرح الملك بهذا الاختراع العجيب فأراد أن يكافئه، وإذا بالوزير يطلب طلبًا يبدو في ظاهره هينًا وإن كان في حقيقته عويصًا تعجيزيًّا لا يمكن تحقيقه.

وتعمقنا في اللعبة فصار بعضنا يذكر كلمات مثل "الجامبيت"، و"الدفاع الصقلي" و"خدعة نابليون"، ويفتي بعضُنا بجواز بدء الطلعة الأولى ببيديقين فتكاد تنشب مشادة كلامية. كل يوم ننتظر زوال القيلولة أو ربما لا نصبر حتى تزول فنخرج إلى شارع النيل حيث محلج القطن والصعايدة الأشداء يرفعون البالات الضخمة بقوة جسدية جبارة تحت نغمة غناء تساعدهم على أن يوحدوا من حركاتهم ويروِّحوا عن شقائهم العرقان. نفرح إن وجدنا الصخرة الضخمة المستوية الملاصقة لجدار المحلج شاغرة فنقتعدها ونفرد اللوحة أو الرقعة كما سماها بعضنا ونرص القطع البيض والسود ونتعارك على من يلعب بالأبيض. ونلحظ جميعًا ما عدا الخصمين اللنشاتِ البحرية القادمة من كفر الزيات متجهة إلى دسوق وعلى متنها عائلات بأكملها يدقون الطبول فرحين بأنهم ذاهبون إلى حيث قبر العارف بالله إبراهيم الدسوقي، ولنشات أخرى آيبة نلمح فيها أطفالًا على رؤوسهم الطراطير الملونة بينما سرسعاتُ الزمامير تصل إلينا مبهجة ندية، وصنادل قادمة من رشيد محملة بأقفاص البلح يتجمع الأهالي يشترون منها، وعندما تكون الريح نائمة يقوم النوتية بسحب الصنادل المحملة بالقرميد أو شكائر الأسمنت بحبال تدور حول صدورهم يسمونها "اللبان" ربما لاقترانها بالصدر مما يذكرنا بـ"لبان الأدهم" في قصيدة عنترة، وبسواعدهم السمر يغرسون عصا في الماء يسمونها "المدرة" يدفعون بها أنفسهم إلى الأمام، وهم يتحركون برشاقةٍ حفاة الأقدام بجوار الماء يُنشدون. وكان النيل فتيًّا قويًّا يتباهى بعضلاته أيام الفيضان. وأحيانًا إن لم تكن

الصخرة الضخمة المستوية الملاصقة لجدار المحلج شاغرة كنا نقعد تحت شجرة ذقن الباشا المواجهة تمامًا لاستراحة المغازي باشا والتي تحولت بعد التأميم إلى مكاتب للعاملين بالمحلج، تلك الشجرة العتيقة الضخمة التي لم نجد لها مثيلًا على مَر الزمن في بلدنا والتي سيتم ذبحُها بلا رحمة عندما يبدأ العمل في تحجير الرصيف وإنشاء الكورنيش ونحن كبار. سيهجم عليها النجارون بمناشيرهم الكهربائية يقطعون أطرافها إربًا إربًا ويحملون كتلًا من أخشابها الثمينة وينتظرون أيامًا ليروا هل من معترض، وفي تلك الأيام المترقبة تكون الشجرة قد استجمعت قواها وانبثقت من جذعها الهائل المائل على الأرض نتوءات حية مفعمة بالخضرة لتدب فيها الحياة من جديد، لكن صبرَ النجارين ينفد فيتسابقون في ذبحها من هنا ومن هناك حتى لا يتبقى منها شيء، والنيلُ من تحتهم يرقب المشهد ويجري لا يتكلم.

وها هو الصيف يحثُّ الخُطى والعام القادم ثانوية عامة، ونلعب الشطرنج بإدمان، ونصاب بالصدمة عندما ضاع الوزير الأسود!

لم يكن هو أول قطعة تضيع. في البداية فقدنا بيدقين استبدلناهما بقطعتين نقديتين من المعدن، لكن ضياع الوزير أجهض احتمالنا! ثم انفجر الحل السعيد كما النبع من بيتنا القديم، إذ كان أبي يعد لي مفاجأة سارَّة!

لم يحرمني اللعب كما حدث في صيفية قديمة وإنما كلَّف زمليه الأستاذ إدوارد مدرس الرياضيات بالمدرسة الذي كان كثيرًا ما يسافر

إلى الإسكندرية فاشترى لي هدية من هناك. رُدت الروحُ ونحن ننظر إليه ونرص قطعه المتباهية. شطرنج خشب فخم جميل اللوحة قال أبي وهو يسلمه لي مزهوًّا: "العب مع زمايلك وانبسط ونشط دماغك!"

***

ها نحن الآن في الصف الثالث الأدبي....

في المبنى الجديد الذي صار يضم فصلين للصف الثالث ومثلهما للثاني وثلاثة فصول للصف الأول.

عددنا في الفصل ثلاثة عشر فقط لا غير، بيننا زميلة واحدة تدعى معالي ننظر إليها على أنها أختنا الوحيدة. عيناها واسعتان وتتحدث معنا بأخوية.

رأيتها تندهش وقد رأت في يدي رواية غصن الزيتون لمحمد عبد الحليم عبد الله كان صديقي فوزي المخبزي قد أهدانيها.

قالت إنها لا تقرأ سوى نجيب محفوظ، ودار بيننا نقاش ولم يقتنع أحدنا بوجهة نظر الآخر. عرفت فيما بعد وقد أخذني نجيب محفوظ أنها كانت أنضج مني أنا الذي كنتُ غارقًا في الرومانسية (لشوشتي).

المَدرسة الجديدة تقع بين حقول خضر تبدو كسجادة حية تتموج في الريح. أنظر من نافذة الفصل وأتنهد اشتياقًا وحرقة. يمكنني أن ألمح كتف مبنى المدرسة الأخرى التي حُرمنها. أذكر وجه سندس التي توجد هناك بعيدًا وأتنهد.

أسمع من يناديني. حمدي الدغيدي والسيد عيسى ومحمد هلال وإسماعيل سالم وفتوح الشنيطي ورفيق سمعان ويحيى دراز وبقية الفريق في الملعب يدعونني لأشاركهم، لكني ميَّال إلى العزلة تمامًا كزميلنا فؤاد رمضان. في الإجازة السابقة تمرَّنَّا على رفع الأثقال، والملاكمة وكمال الأجسام أيضًا. الأستاذ يوسف مدرس التربية الرياضية بجرمه الهائل والعصا في يده يدير طابور الصباح ويهدد كل متقاعس. العصا تمتد كأنها شريرة بذاتها وتلسع كإبليس. بدأ البعض يتذمرون مع الأيام لكنهم لا يعرفون العواقب فتحملوا الأمر على أنه هزار ثقيل. يضحكون وهم يتألمون. لكن الذي حدث اليوم مختلف تمامًا. ما كان أحد منا يجرؤ على معارضة الأستاذ يوسف.

يبطش كما يشاء فيضحك والآخرون يتحملون بينما كنتُ أتجنبه أنا، تمامًا. وفوجئنا جميعًا بالطالب محمد السيد عوض المنشاوي يتحدث للمرة الأولى في طابور الصباح. والمنشاوي هذا هو الأول على القسم العلمي، يكبرنا بعامين أو أكثر لأنه التحق بالمدرسة الابتدائية متأخرًا. يبدو أن والده لم يكن يرغب في تعليمه. طويلًا نحيلًا كان، أسمر، يضع على عينيه نظارة سميكة. صوته مفعم بالثقة كأنما يتحدث عن حقائق علمية أو رياضية.

راح في كلمته الصباحية تلك يتحدث عن السادة والعبيد، وعن العبد الذي يُقرع بالعصا، وعن الحر الذي تكفيه الإشارة.

هادئا وادعًا واثقا والطير كانت واقفة على رؤوسنا.

الأستاذ يوسف بجرمه الهائل والعصا في يده ينقر بها على طرف حذائه في ميكانيكية لا شعورية، ثقيل تمامًا وأذناه مع الطالب المتحدي. المنشاوي تطرَّق إلى الديمقراطية التي معناها أن يحكم الشعب نفسه بنفسه دون بطش أو إهانات أو إذلال. منذ الآن سنرفض العصا لأننا آدميون ولسنا من ذوي الأربع!

واستمر تحت التصفيق المدوي: حتى ذوات الأربع يجب علينا احترامها والتعامل معها برفق ما دامت لم "تؤذِنا". وأنهى كلمته بأن توجه لكل من يحملون العصيَّ في المدرسة قائلًا إن عليهم تكسيرها أو إحراقها فلا مجال لها في مكان محترم مثل مدرستنا!

باختصار، وفي لحظات صار المنشاوي بطلًا ستفتخر به مستناد إلى أبد الآبدين.

ترك المنصة وعاد إلى مكانه في أرض الطابور، وتابعت عيوننا الأستاذ يوسف وهو يتجه إلى الميكروفون في هدوءٍ مخيف. وبيديه القويتين أمسك العصا من طرفيها وكسرها. صفقنا له حتى دمعت أعيننا. قال: "أشكر الطالب الذي أعرف كم هو مجتهد في دروسه، وأعرف الآن أنه يتمتع بمزايا أخرى كثيرة، وأكسر العصا أمامكم على أن تكونوا على مستوى المسئولية، رجالًا حقيقيين"

***

وذات يوم وأنا في المسجد، بين الأذان والإقامة اضطرب بدني فجأة، داهمتني رغبة عارمة في الانطلاق على جسر النيل كما هو الحال بالنسبة لي في لحظات الفرح الجامح أو التوتر المربك. قلت لنفسي: "سأصلي العصر وأغادر". هذا طبيعي. لكني لم أستطع مقاومة الرغبة في الخروج! بسرعة أمسكتُ حذائي وقصدت الباب والصلاة تُقام.

أي إحراج هذا؟ أي تصرف مخجل؟ لم أكد أتفادى الأعين الرامقة وأنزل درجات السلم الثلاث حتى وجدتها أمامي! من؟ أختها؟ بل هي!

بعينها! سندس!

لم تستطع ساقاي مواصلة حملي. ماذا فعلت؟ لم أحاول السير خلفها حتى منزل خالتها رفيعة أو حتى دكان زيزو الأسمر. ولا حتى أن أحاذيها وأرنو إلى وجهها السماوي رنوة واحدة.

ذيل الحصان خلف ظهرها يناديني أن أتشبث بخيوطه وأصعد إلى السحاب. ألمحُها تخطو وخطواتها واثقة. ومن ثم... أغمضت عيني لحظات لأسيطر على دوار مفاجئ. ثم درتُ على عقبي وعدتُ إلى المسجد.

صليت

صليت

صليت

وأنا أرتعد.

استعدادًا لامتحان الثانوية العامة يجب تسليم ثماني صور لتقديمها مع الاستمارات، وأنا منذ الإعدادية لم أجلس أمام مصوراتي.

بعض زملائي يذهبون إلى دسوق للتصوير في استديوهاتها الحديثة، والباقون يفضلون استديو الجلبة عن السفر. حذوت حذو الآخرين. غاب طويلًا في ضبط الإضاءة ثم طلب مني أن أبتسم.

تذكرتُ أمي التي تنتقد كل من (يفشخ ضبته) في الضحك. ربما تمزح معنا لكن ذلك ترك أثره في نفسيتي فضممت شفتي مكشرًا.

- ابتسم يا أستاذ!

زيادة في الحيطة جمعت فمي كله في عقدة واحدة كيلا يكون لي في الصورة فم واسع (تعايب) أمي عليه.

للمرة الثالثة يرجوني المصور الذي بدا مترددًا أمام مشهد لم يَرَ مثله في عمره.

- ابتسم!

فأزيد في العناد.

استسلم المصور لغبائي وأخيرًا رفع الغطاء عن العدسة ثم أعاده إلى موضعه. في تلك اللحظة تراخى فمي عن عقدته العجيبة.

سيتعجب كل من يرى الصورة لهذا الوضع الذي لا مثيل له.

***

ولأن عددنا قليل تقرر ألا نؤدي امتحاننا في البلد، بل في مدرسة عمر مكرم بدمنهور. شهق أبي: "كارثة لم تكن على البال! ستحتاج إلى سكن ورعاية. حكاية كانت مستخبيَّة!"

وعلمنا أن بعض أهالي زملائنا يتفقون مع السائقين لتوصيلنا حتى باب المدرسة، لكن أبي تحفظ على ذلك: "وكيف نضمن الطريق؟ عطل؟ لا سمح الله، حادث؟ وتضيع السنة عليهم؟" إلى أن علمتُ أن صديقي مراد سيقيم في دمنهور عند أخته المتزوجة هناك، وأيضًا عند أخيه. والعجيب أنه عرض عليَّ أن أقضي أسبوع الامتحانات معه هناك!

- ممكن؟

- ليتك توافق!

- أليس في ذلك أدنى حرج؟

وأخبرت أبي ففرح بالفكرة. ظهر البِشْرُ على ملامحه وذكر لي أنه كان "مرعوبًا" خشية سوء المواصلات! "السيارات قديمة والسائقون متهورون!"

- لكن زملاءنا سيسافرون يا أبي!

- أنا أسمع عن سائق يُقال إنه حفر حفرتين في قعر السيارة من الأمام، أسمعت عنه؟

- حفر حفرتين؟

– أجل، وعندما تتعطل المكابح ينزل قدميه من الحفرتين ويثبتهما في أرض الطريق فتتوقف السيارة!

– ربما تكون هذه نكتة يا أبي.

– لكن لها دلالتها.

***

ولأن والد صديقي مُتـوفًّى فقـد رأى أبي أن يقابـل والدتـه ويتفـق معها. ولم يدخر وقتًا فأخذني وذهبنا. هشت لمرآنـا وذكَّـرَت أبي بـالجيرة الطيبة واستطردت وهي تحاول إقناعه بالدخول لشرب الشاي: "ابنـك ابني، هما صديقان وأَخَوَان. لا تقلق عليه، هو في عيني".

فأخرج من حافظته ثلاث ورقات مالية دسَّها في يدها.

– هذا مصروفه يا أم مراد.

– يا عيب الشوم!

لكنه حلف بالله أن تقبل الجنيهات ولا تـرد يـده: "أتريـدين شـيئًا آخر؟"

– هذا أكثر كثيرًا من المطلوب.

وكم كنت أصر على قراءة وقـع الأحـداث عـلى ملامـح وجـه أبي ونحن عائدان. سمعته كأنما يحدث النفس: "ورقة واحـدة مـن الـثلاث كانت تذهبُ بك إلى لجنة الامتحان وتعود بك، لكني أشـتري راحتـك بثلاث ورقات كاملة!"

وجاء يوم السفر فجمعتُ كتبي وكراساتي في حقيبة، وركبنا أنا ومراد وأم مراد حتى دمنهور. أخذنا الحنطور حتى توقف أمام المنزل الذي نقصده، وكانت هذه المدينة في تلكم الأيام ضاجَّة صاخبة لا تنام، تنتظر قدوم جمال عبد الناصر إليها.

طائرات الهليكوبتر تحوم في سمائها. مكبرات الصوت تجوب شوارعها بالأغاني الوطنية. (هيصة ما بعدها هيصة) رغم كون موعد الزيارة ما زال بعد أيام. كنت وأنا محشور في الحنطور أتابع ما يجري دون تفكير، كأني مساق إلى مصير مجهول.

نزلنا في حي شبرا الصاخب، المفعم بفرحة الانتظار. صعدنا السلم الضيق، شبه المظلم. تقدمتنا أم مراد لتعانق بنتها، بعد ذلك مراد ثم أنا. قالت وهي تمدُّ لي يدًا متثاقلة: "هذا صاحبك يا مراد؟"

وجلستُ مع صديقي في حجرة الجلوس ريثما يتم ترتيب الأمور، وراح يكلمني عن الاحتفالات وكأنما ليبعد عن سمعي حوارات الصالة. سألته: "أكانوا يعرفون أني قادم؟"

- طبعًا.

فلماذا أحسَّ أن أخته فوجئت بوجودي؟ وربما تمكنت من فك شفرة الكلام وتبينت خوف الابنة من ألا يقبل زوجها مثل هذا الوضع.

ذاكرنا ساعة أو أكثر، أنا ومراد، ثم قلت له: "كل واحد يراجع وحده كي يركز أكثر".

وصباح اليوم التالي سِرْنا أنا وصديقي في شوارع وحارات لنختصر الطريق حتى وصلنا إلى اللجنة.

وقفت قرب البوابة حتى لمحت السيارات القادمة من بلدتنا تأتي بزملائنا فلُمْتُ نفسي: "لماذا لم أفعل مثلهم؟"

وقبل دخول اللجنة دارت حوارات بين زملائنا، وتوجهات بأن يساعد من يستطيع مَن لا يستطيع: "لا تخافوا، لو تعاونتم كرجال لن يستطيع المراقبون مواجهتكم جميعًا. الكلمة في الهواء لا دليل عليها ولا يستطيع أحد إثباتها في محضر غش".

ووجدتني أنتحي بعيدًا عن كل ذلك. لا أحب أن أغش من أحد ولا أن يغششني أحد، مهما ينادوني لن أرد عليهم.

وفي اللجنة، في امتحان اللغة العربية، نسيت كل مَن حولي، وهدأت أعصابي وأنا أكتبُ موضوع الإنشاء، وكان عبارة عن قصة مسافر تنتظره أمه، استحضرت محمد عبد الحليم عبد الله. رحتُ أكتبُ وأنا طائر على جناح أغنية الأطلال تأتيني من مقهى قريب. ربما كنت الوحيد في اللجنة كلها الذي انتبه لها.

وكان المراقبون أشداء فحمدت الله أنهم كفوني شَرَّ الضعفاء من زملائي. وعندما مَرَّ المراقب بالبطاقات ينظر إلى الصورة وصاحب الصورة ليتثبت من شخصيتنا توقف عندي طويلًا. لا شك أن صورتي وأنا مضموم البوز قد شلت حركته. راح يذكر اسمي وأنا أقول: "نعم". سألني إن كانت تلك صورتي، وهو غير مصدق.

بعد امتحان التربية الدينية وجدت مراد ينتظرني فمشينا صامتين حتى المنزل. تغدينا وسمعت أمه تقول له: "سنشرب الشاي عند أخيك رزق". وكانت الحقائب معدة، وركبنا الحنطور إلى هناك. كان رأسي ثقيلًا، وكم تمنيت الخلود إلى شيء من الراحة ومراجعة مواد الغد لكنني لم أتوصل إلى ذلك! وكانت شقة رزق أكثر اتساعًا، وفوجئت بأن أم مراد (مسخسخة) كأنما هي خارجة من عركة، وتحتاج لمراجعة طبيب. ذهب مراد معها وأيضًا زوجة ابنها رزق الذي فضل البقاء، بينما بقيت أنا لأذاكر فشممت رائحة غريبة تنبعث من نارجيلة تكركر بالقرب مني...

عم رزق من أصحاب المزاج العالي. لا بد أن هذا ما يسمونه الحشيش. اهتزت يدي بالكتاب. أموت وأسأله عن هذه الرائحة. أنظر ناحيته مراتٍ فإذا به يسألني: "تأخذ نفسًا؟"

فارتعبت. ويبدو أن وجهي انصبغ بالأصفر.

قال: "أفتحُ لك الشباك إن كان صدرك مكروشًا".

وقام وفتحه. عيناه حمراوان مخيفتان. توهمتُ أن رجال الشرطة يمكن أن ينقضوا علينا ويقبضوا عليه ويجرجرونني معه! أغلقت الكتاب وأغمضت عيني ولو استطعت لأغلقت أنفي أيضًا. لماذا لم يصطحب رزق أمه للطبيب ويترك مراد يذاكر؟ ولماذا تركنا منزل أخت مراد وجئنا إلى هذه البؤرة الفاسدة؟ لعل زوجها رفض وجود غريب مثلي في شقته لهذا قصدتُ ابنها رزق! هل أفاتحها في أوهامي وحيرتي بعد أن تعود بالسلامة من عيادة الطبيب؟

عادوا والعرق على جبهتها وأدوية كثيرة في يد مراد، وحاولت ألا أشغل نفسي طويلًا، خصوصًا أن صديقي يدعوني لنذاكر معًا فلبيت نداءه بينما قامت زوجة أخيه بإعداد الشاي لنا وجاءت به وهي تدعو لنا: "ربنا ينجحكم".

وفي هدأة الليل وجدت أم مراد تستدعيني إلى الصالة، فدلفت إليها، فإذا بها تسبقني إلى المطبخ فأقترب منها لتهمس في أذني: "سامحني يا بني، الفلوس التي أعطانيها والدك صرفتها على الطبيب والدواء".

- لا أفهم قصدك يا أمي ولكني أتمنى لك الشفاء.

- الله هو الشافي يا بني ولكن لا تخبر أحدًا بذلك. أرجوك!

***

كيف أستطيع الاتصال بأبي ليأخذني إليه؟

كيف الصبر حتى يطلع الصبح فما بالك بالصبر إلى آخر الامتحانات؟

الحوامات تقطع أوصال الهواء بأجنحتها الهائلة ومكبرات الصوت (تلعلع) بالأغاني الوطنية، وعربات مقاومة الحشرات الطائرة تنفثُ الجاز في الهواء فيدخل علينا من الشبابيك. وأنا هنا لاجئ! أقيم عالة على غيري. متطفل. لا يعرف أحد أن أبي دَفَعَ من أجل هذا ثلاث ورقات مالية كبيرة. ثم هذا الحشاش الذي يكركر بالنارجيلة ولا يخشى السجون!

- ماذا تعنين يا أمي؟

- لا شيء، ستبقى معنا فأنت واحدٌ منا، وأستحلفك بـالله ألا تخـبر أباك بشيء!

لم يغمض لي جفن إلا مع الفجر، صحوت بعد ساعة وخرجت مع صديقي إلى لجنة الامتحان. سرنا صامتين نسمع وقع أقـدامنا. وعنـدما وصلنا ولمحت الـسيارات انـدفعتُ تجاهها، وسـألت أحـد الـسائقين: "أعندكم مكان لي؟"

- تريد أن تنضم إلى زملائك المسافرين؟

- أرجوكم إن كان لي مكان!

- وإن لم يكن! أنت نحيل ويمكن أن تجلس بين اثنين من زملائك.

وكانت حمولة السيارات آنئذٍ خمسة ركـاب، اثنـان بجـوار الـسائق وثلاثة في الخلف، هؤلاء الثلاثـة كـانوا يأخـذون اثنـين بيـنهم فتكـون الحمولة سبعة. كان ذلك متعارفًا عليـه. قـال الـسائق: "سـتركب مـع الخمسة فأنت نحيل". أي أن الكرسي الخلفي سيتسع لستة. نحن زملاء ونتحمل بعضنا بعضًا.

وبحثتُ عن مراد لأخبره، فبـدا التـأثُّر الـشديد عـلى وجهـه وهـو يسألني:

لماذا تفعل ذلك؟

وكان أخي سعيد الذي ترك المدرسة واشتغل في أعمال كثيرة قد أهداني قماشة بنطلون ووتربروف بمناسبة نجاحي، ووعدني أن يشتري لي قميصًا في القريب عندما يتيسر الحال.

واغتنم أبي زيارة مستشاره الثقافي الذي وجع دماغنا بالحديث عن النيابة والقضاء ليقنعني بالالتحاق بكلية الحقوق، ولما لاحظ أبي انصرافي عنه سأله: "أتعرف ترزيًّا يفصل له بنطلونًا؟"

وخرجَ ثلاثتُنا قاصدين الشارع الرئيسي في البلدة. المحلات سهرانة، المقاهي عامرة، والحركة في الشارع تنبئ أن الليل في بلدتنا سيتحول قريبًا إلى نهار. لكن سيادة المستشار تخيَّر محلًّا شبه معتم، كأنما هو مضاء بشمعة. ودخل فتبعناه، وعانق الترزي عبد الموجود الذي رحَّب بنا ترحيبًا مبالغًا فيه. وجلسنا.

- بكم تفصل البنطلون هذه الأيام؟

- بدون فلوس!

ويعيد عليه السؤال مرات قبل أن يتلقى منه الإجابة: "بجنيه وربع".

- ومن أجلي؟

- بجنيه وعشرة قروش.

- ومن أجل الشيخ كومي الذي كان أستاذك في يوم من الأيام؟

- من غير فلوس خالص!

- رجعنا للكلام الذي لا يودي ولا يجيب؟

- بجنيه واحد فقط، تحت أمركم.

- بل بخمسة وثمانين قرشًا، ما رأيك؟

ويستدير الرجل ليخرج من وراء المكتب العتيق ليأخذ مقاساتي فأطلب منه تفصيل البنطلون على الموضة. وكانت الموضة أيامها عملَ ما يشبه الزعنفة للبنطلون من الجانبين، فقال: "حاضر يا سيدي!"

وأوصاه المستشار أن يجعل البنطلون واسعًا حتى ألبسه أعوامًا طويلة مقبلة.

عادت إلى الذاكرة قصة الحقيبة الخشبية فخشيت أن تتكرر بحذافيرها.

لكنني لم أتكلم. وسمعته يطلب من الترزي أن يفصل حزامًا للبنطلون من القماشة نفسها: "هذا ما يحدث هذه الأيام يا أسطى!"

- إذن بحبحها وليكن الثمن جنيهًا كاملًا غير منقوص.

- لن نغير من اتفاقنا من أجل حزام. اعتبره هدية منك للأستاذ.

***

ولا أريد أن أطيل عليكم قائلًا إن الترزي فوجئ بالاتساع العظيم للبنطلون، لكنه سألنا أن نثق بقدرة الحزام على ضبطه وعدم تحركه إلى أسفل. "وإلا فلماذا نصنع لكم الأحزمة مجانًا؟"

لكن المستشار حكم بأن يُعيد الـترزي (تقييـف) البنطلـون دون أن يقص منه قطعة قماش واحدة: "اجعلها مثنية من تحـت فـإذا احتجناهـا فككناها!"

ونحن خارجون من المحل ثبت المستشار عينيه في عيني لأول مرة، وقد توقفنا عن الحركة، وقال لي مؤكدًا: "أبوك غلبان يا حمـاده، اتـق الله فيه، كان يمكنه الحصول على أموال رفضها درءًا للشبهات فكـن مثلـه. رفضها لـيس لأنهـا حـرام، ولكـن لأن بهـا شُـبهة. سـتهتم بدروسـك ومحاضراتك وتنجح كل عام، أنت مجتهد فكن مجتهدًا على الدوام".

وكنتُ أظنُّ أن هذا هو البنطلـون الوحيـد الـذي سـأذهب بـه إلى الكلية فإذا بمحمد ابن عمي يجيء من إندونيسيا للمرة الثانية أو الثالثـة لا أذكر، ويعطيني هدية، قطعة قماش متر وربع، لونها أسود غـير قـاتم، أسود متضوئ. ناعمة كالزُّبد. أمسكتها بيدي فراحت تتفلت كقرمـوط السمك! وعندما عرضتها للشمس انبثق من داخلها مليون نقطة ضوئية حية. قالت أمي: "هذه تصلح جيبـة لأختـك عزيـزة". ضـايقني قولهـا ضيقًا مزدوجًا. أصررت أن أفَـصِّلها لي بنطلونًـا ألبـسه في الكليـة بعـد أشهر قليلة. أخذت القماشة وجريت للترزي. لم أنتظر أبي ولا المستـشار الثقافي. كانت بسمة الرجل تتدلى على طرف فمه جهة اليمـين كعادتهـا. تمَعَّن في القماشة يقتلها فحصًا قبل أن يسحب المتر ليقيـسها ثـم غمغـم: "من بلاد برة!"

خفت أسأله رجالي أم حريمي، لكنه سمع سؤالي الذي لم يخرج من فمي لأني سمعت غمغمته: "هناك في بلاد برة لا يفرقون بين هذا وتلك".

- تنفع؟

- وما الذي سيقلل من نفعها؟ كيف حال مولانا الشيخ؟

وذهبت إليه مرتين بناءً على طلبه لعمل البروفات، ثم كان يوم استلام البنطلون عندما أخذته مطويًّا في ورقة جورنال وعدت إلى البيت لتطلب مني أمي أن ألبسه أمامها. صممت على الرفض بحجة البروفات الكثيرة التي قمت بها عند الترزي. وفي النهاية طاوعتُها ورفعت ذيل الجلباب وقبضت عليه بذقني ولبست البنطلون ووجهي في وجه أمي الذي راح يتغير لونه وهي تحوقل في غيظ مكتوم. "ركبتك باينه! منه لله!"

خفضت بصري فرأيت صابونة الركبة كأنما من وراء منخل! هُرعت إليه مغتاظًا من جهله لأن مكواته أكلت البنطلون عند الركبة وإذا ببسمته التي من جهة اليمين تنكمش قليلا وهو يؤكد لي أنه سيرفوه رفوًا دقيقًا حتى يختفي الأثر الظاهر تمامًا.

وبالفعل لم يحرمني الرجل من لبسه في أول يوم لي بالكلية حيث كانت الشمس تقيم فيه وليمة للضوء والألوان وأنا داخل من الباب الخارجي عبر الممر الطويل الذي يحيطه من الجانبين الزرع الأخضر والأزهار التي فارقها الندى منذ ساعة.

وصرنا جميعًا سعداءَ بدرجات متفاوتة عندما تأكد أن طفلًا جديـدًا سينضم إلى قافلة العائلة. من شبه المؤكد أنه سيكون ذَكرًا لأن الإنجاب عندنا يسير هكذا: ذكر ثم أنثى فذكر ثم أنثـى فـذكر ثـم أنثـى، وعليـه فالقادم رغم تأخره أعوامًا طويلة عن الخطة سيكون ذكرًا بإذن الله. كـل منا يؤكد أنه سيستقبله بما يستحق من ترحاب وتدليل. وسـنأخذه معنـا إلى كل مكان نذهب إليه. ونشتري له كل ما يروقه، لن نحرمه من شيء. وكان أكثرنا فرحًا أخي سعيد الذي لم يفلح في التعليم فاشـتغل وجـرى القرش في يده. اختار عمله دون تدخل من أحـد. واتفـق مـع صـاحب الشغل دون أن يخبر أحدًا.

وذات يوم وأنا راجع من المدرسة لمحت مَن يُشبهه ينـصب أعمـدة الفِراشة الخشبية ويصعد فوق العمود الأفقي العالي ويتحرك عليه وهـو جالس بأن يشطح بساقيه كأنه يعوم في الهواء، فدققت النظـر فتـسمرت مشدوهًا وناديت: "يـا سـعيد!" فالتفـت نحـوي واتـسعت ابتـسامته. أخبرت أمي. قالت: "أوَ لا تعرف؟ إنه يعمل في هـذه (الـشغلانة) منـذ أشـهر! في الأفـراح والمـآتم تـراه ينـصب الفِراشـة ويحـضر الكـراسيَّ ويرصُّها، وصاحب الشغل يثق به ويحبه كابنه، ويقـول لأبيـه: "الـشيخ سعيد كلُّه بركة، على فكرة يا شيخ كومي أنا أستأذنك وأخطبه لابنتي!"

فيأتي أبي ليخبر أمي وهو فرحان:

- الناس الطيبون يخطبون ابنكِ سعيد لابنتهم!

- عشنا وشفنا!

وتلمح انطفاء فرحته فتسأله: "وأين هو من الزواج يا شيخ؟"

ويؤكد سعيد لأمه وهو يلمح تكورَ بطنها: "سأشتري للنونو كل الحمص والحلوى والشموع، وأعمل له حفلَ سبوعٍ لا مثيل له".

فتفرح وتمني النفس بأمسية شائقة.

لكنها تنام وتصحو على حلم فتقصه على أبي: حلمت أن الباب البراني انفتح ولقيت دكر بط داخل يجري ناحيتنا كأنه خايف حد يمسكه يتلفت حواليه....

- اسكتي! اسكتي خالص ولا كلمة زيادة!

وخرج وأنا خلفه كظله أتوسل إليه أن يخبرني حتى هدأ وقال: أي حاجة في المنام في اسمها الحرفين دول "الباء والطاء" خطر! سواء البط أو البطيخ أو حتى البطاطس! وربك يستر!

***

ويذهب سعيد إلى العزب بالفِراشة والناس كلهم يحبونه وينادونه:

- بركاتك يا شيخ سعيد.

إلى أن كنا في شهر الصوم...وكان قد انتهى من نصب الفِراشة في إحدى القرى القابعة على كتف مجرى مائي كبير. وكان الحر قاسيًا فقال: "أنزل أرطب جسمي بالماء فأنتعش"، وكانت كراكات ضخمة قابعة عن قرب تقوم بتجريف المجرى وتعميقه، ويبدو أن قدمه زلَّت في

إحدى تلك الحفر. فلم يخرج حيًّا من الماء. جرفه التيار. مرت ساعات البحث عنه كالدهور، وعندما يَئِسوا أتوا بالسنانير يبحثون بها عن جثته فتمكنوا صباح اليوم التالي من انتشاله على بعد كيلومتر من المكان الذي غرق فيه.

ونحن على الشط في قسوة الحزن ووحشة الليل والريح ننتظر.

وفي المساء أقام صاحب الشغل سرادقًا ضخمًا وكنتُ ألمح الحزن في عينيه، إلى أن قرأ القارئ: (يا أيتها النفس المطمئنة) فانتحى أبي جانبًا به ليحاسبه على تكلفة السرادق.

سمعت الرجل يقول: "الشيخ سعيد لم يكن ابنك وحدك! كان ابني أنا أيضًا. أي فلوس تريد أن تدفعها؟ لقد كان يعمل عندي ومات في أثناء العمل، وسنجلس ونتفق على التعويض".

- تعويض؟ وتقول إنه ابنك؟ سامحك الله! عمره انتهى هكذا فلا يستطيع أن يتقدم لحظة ولا أن يتأخر. إياك أن تكرر هذا الكلام وإلا لن تعرفني ولن أعرفك!

ويبدو أن أبي كان يؤمل على أخي لمساعدته في تدبير نفقاتي الجامعية، ولما حدث ما حدث راح يؤكد لي:

- لا تقلق، سأمتنع عن التدخين وأوفر لك نفقاتك.

وكانت سجائر الفلوريدا الحامية تحرق صدره كما سمعته يقول، فليمتنع عنها أفضل لصحته. ولكني سمعته يؤكد التأكيد نفسه لأختي:

– بعد عامين تحصلين على الثانوية العامة، لا تقلقي، سأمتنع عن التدخين وأوفر لك نفقاتك الجامعية.

***

ووضعت أمي أخي محمود وأنا على عتبات الكلية، انهمرَ العرقُ على جبين الداية السمراء وهي خارجة من الحجرة تتمتم: "الحمد لله، ربنا أكرمنا".

وكنا سعداء بسماع صراخ الوليد. بعضنا لا شك فكر في الذي خطفه الماء، ولكن هل سنصنع له السبوع الذي كان أخي المرحوم يأمله. بالتأكيد لا. فقد خيم الحزن على منزلنا أشهرًا قبل أن تبدأ غيماته الثقال في التزحزح خطوات مع الريح المواتية. ورغم جسامة الفقد، ورغم دموعي التي ما فتئت تسح ليل نهار، فإن القلب ظَلَّ يخفق أو قُل عاد إلى الخفقان. وكلما اقترب موعد السفر إلى الكلية ومغادرة البلدة فترات ستطول، كلما انجذبت انجذابًا لدكان زيزو الأسمر عليِّ أحظى برؤية أختها. ذلك أنها هي فوق مستوى الآمال.

من أجلها أحببت كل ما يحيط بها حتى الطريق الذي تمرُّ منه أحيانًا أختها! وحتى نخلة خالتها! ويبخُّ زيزو الرذاذ على القماش ويمسح المكواة ليخلصها من السناج قبل أن يجري بها على القماش، ثم يتمهل قليلًا ليكلمني، وكلي أمل أن يقول لي إنها هنا عند خالتها فأهنأ لحظات. فوجئت به يسألني: "هل وصلك النبأ؟"

- أي نبأ؟

- إذن فأنت آخر مَن يعلم!

يجف ريقي فألحسُّ شفتي بلساني لأرطبها دون جدوى.

- ألا تعلم بالله عليك؟

- وتدخل إحدى القرويات فينفتح في الحديث إليها تاركًا إياي في حيرتي ثم أسمعه يقول لها ويقصدني: "واحد صاحبنا يعيش على هامش الحياة يحب فتاة دون أن يكلمها كلمة واحدة، وتتزوج الفتاة المسكينة بعد حصولها على الإعدادية وهو لا يعلم ويظل يحبها!"

- مسكين!

وتغادر الدكان وأظل أحدق إلى وجه زيزو الأسمر بعينين مذهولتين ووجه كالليمون البنزهير. لا أصدق. ويجري بالمكواة على القماش. "هي لم يكن لديها رغبة في الزواج، كانت تريد تكملة تعليمها، لكن تاجر موبيليا ظَلَّ يوسوس في دماغ أبيها حتى اقتنع وزوَّجها له".

- تزوجت تزوجت؟

فينقر على البنك كالمسحراتي:

- اصح يا نايم وحد الدايم

اصح يا نايم وحد الرزاق

رمضان كريم.

تألمت من أجلها لأنها أُجبرت على فعل ما لا تريد، فـدعوت الله في سري أن يحبب إليها ما تكره، وأن يرزقها راحة البال دنيا وآخرة. كـلام كثير كان بودي أن أقوله لزيزو لكن السكوت أطبـق عـلى لـساني فظَـلَّ يستحثُّني للحديث حتى أفلح في أن يجعلني أتكلم: "هي حقًّا ذهبت إلى غير رجعة لكنها كانت في منتهى الكرم معي إذ تركت لي أختها لمياء!"

- لسانك لم يخاطب لسانها بكلمة!

وعندما هممتُ لأردَّ عليه وجدته يقول:

- انتبه! ها هي قادمة علينا!

ودهمني وجودها الساحر وتهتُ في المغناطيسية التي تحيط بها كهالة عندما وجدتها تحيط بنا في الدكان.

- قميص وبلوزة، أعرف.

وجاء بهما من فوق مسمارين بالحائط وراح يطـبقهما، ويـسألها عـن أختها التي تزوجت صغيرة السن، ووجدتني أدخـل في الحـوار منـدفعًا وأسألها إن كان يمكن أن تفعل هي الشيء نفسه؟

وكنت وأنا أسألها الـسؤال اليتـيم هـذا أضرع إلى الله أن تـرد عـلى كلامي ولا تواجهني بالصمت فتقتلني، فإذا بي أسمع صوتها وأغـوص كالسمكة في عينيهـا وأتحـير كيـف أعـاود الخـروج. قالـت: "سـأكمل تعليمي طبعًا!"

أحمدك يا رب وأشكر فضلك. لقد حدثتني وأنا غارق في عينيها اللوزيتين. لن أخرج منهما أبدًا. وكان زيزو قد انتهى من لف الملابس المكوية في جرنال وسلمها إليها، مع الأسف بسرعة، فغادرت المكان. ما زلتُ أنا تائهًا في غابات اللوز. قال زيزو:

- أنتَ ابن حلال، مكتوب لك تشوفها.

وظللتُ، وأنا في الطريق إلى البيت، في المسجد، في الصالة جالسًا إلى الطبلية لتناول الطعام، في الساحة الشعبية أتدرب على رفع الأثقال أو الملاكمة، عند عمي أنتظر الحصول على بعض الكتب، في أي مكان كان، تنهال عليّ كلماتها: "سأكمل تعليمي طبعًا"

و... صدقوني! لن أخرج أبدًا من بحر اللوز!

لكني مع ذلك بدأتُ أطمع فيما هو أكثر، لكن هل سأتمكن من ذلك خلال أيام معدودات؟

لقد اقترب موعد الرحيل. وبدأت أسرابُ الوداع تحلق في سمائنا، وفي زيارة لعمتي أجدها تأخذني إلى ركن قصي من دارها ثم تدخل بي فيما يسمى الحاصل، وكان مُتربًا ومستعمرًا بالعنكبوت. تحذرني: "أنت ذاهب إلى القاهرة يا ضناي!، سأقول لك كلمتين اجعلهما حلقة في أذنك: إياك ثم إياك أن تتكلم في السياسة!" وراحت تتلفت حولها في العتمة كأنما تتوجس من شيء يرانا ولا نراه، "يعني لا تتكلم عن الحكومة كلمة قد لا ترضيهم فلا تعود إلينا سالمًا! فهمت؟ أبوك غلبان وأمك غلبانة وأنا أغلب من الغلب!"

وكلما اقترب موعد سفري تتشبَّثُ أمي بي وتُشرقُ دموعها فيقول أبي لها: "دعيه لمستقبله، سيبدأ حياة جديدة وبإمكانه أن ينطلق إلى عنان السماء إن شاء".

ويربت على كتفي: "ها قد صرتَ رجلًا، ومستقبلك الآن في يدك، إياك ألا تصنع من نفسك شيئًا ذا قيمة!"

***

أخرجُ من البيت أتمشى على جسر النيل. ألمح أخي أحمد عند شجرة التوت. أحذره من الصعود حتى أعلاها؛ لو علم الوالد سيعاقبك، ولو علمت الوالدة لضربت على صدرها صارخةً: "تريد أن تلحق بالذي فقدناه؟!"

أعود وأعرِّج على دكان زيزو الأسمر. أتطلع إلى النخلة والطيف الساري وبيت خالتها وأسأل نفسي ما إذا كان القدر سيكتب لي رؤيتها قبل السفر. ثم أرجع إلى المنزل فأجد أمي تُرضِعُ أخي الصغير. هي في الحجرة على حرف السرير، ساقها اليمنى مثنية مهيأة كمهد للرضيع، وساقها اليسرى في وضع عمودي تكاد أصابع قدمها تمسُّ الأرض. أراها دون أن تحسَّ بي.

في الحجرة أيضًا الصوان ذو المرآة أتفادى أن تظهر فيها صورتي فتراني أمي. اللمبة الجاز ما زالت في مكانها منذ البارحة، مطفأة لأن الوقت ما زال نهارًا، لم تقم أمي بتنظيف زجاجتها بعد.

تبينت الآن فقط أن أختي عزيزة نائمة على السرير الآخر في غبشة الحجرة. تُرى أين زينب ونفيسة؟

أمي حتى الآن لم تلمحني. محمود ينهل من صدرها، وفجأة يبدو أنها تذكرت شيئًا قلبَ عليها المواجع فتحدرت دموعها. الدموع الآن فوق الثدي الذي يقتات منه الرضيع. بسبابتها أزاحت الخط الساخن إلى مجرى جديد. تساقطت العبرات بعيدًا عن الفم المتعطش.

(تمت)

محمد محمد السنباطي في سطور

- من مواليد شبراخيت محافظة البحيرة

الجوائز:

- فازت روايته: خط نار ممتد بالجائزة الأولى في القصة الطويلة من نادي القصة بالقاهرة ١٩٩٧
- فاز بالجائزة الثانية في الرواية في مسابقة كتاب اليوم- دار أخبار اليوم ٢٠٠٥
- فازت روايته ضحكات الخريف بالجائزة الأولى من نادي القصة بالقاهرة ٢٠٠٨

الكتب:

- من كتبه المنشورة: الحجاج بن يوسف الثقفي، السيف والكلمة، عن دار حورس الدولية ٢٠٠٣.
- شمس الطفولة طفولة الشمس: شعر للأطفال
- موسيقا النار: مجموعة شعرية قصائد نثر
- رواية: عاشقة عرابي، سندباد للنشر والإعلام ٢٠٠٩ .
- جنتي في صدري: مسرحية شعرية، الألوكة ٢٠١٠ .
- خط النار ممتد: رواية. مركز الحضارة العربية ٢٠١٠ .
- أنهار الدم: رواية. مركز الحضارة العربية ٢٠١٢.

- رواية إسكندرية شرقًا وغربًا. سلسلة كتاب اليوم/ دار أخبار اليوم ٢٠٠٨.
- بالموج أكتب، شعر، مركز الحضارة العربية ٢٠١٦.
- مصريات، شعر، مركز الحضارة العربية ٢٠١٦.
- شظايا الجريمة، رواية، مركز عماد قطري ٢٠١٦.

أعماله المترجمة:

- ترجمة الجزء الأول، من سباعية في البحث عن الزمن المفقود، دار الهلال ٢٠١٢.
- ترجمة رواية الأب جوريو لبلزاك. سلسلة ال١٠٠ كتاب – الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- ترجمة كتاب: أخي آرتور، نشر في صحيفة الأهرام القاهرية على حلقات ابتداء من الأحد ١١/ ١١/ ٢٠١٢، ثم في مجلة مشارف مقدسية في عددين متتاليين.

من كتبه المعتمدة للنشر:

- الإلياذة الإسلامية في ٣ أجزاء عن دار غراب للنشر والتوزيع.